

[illegible]

PRINCETON UNIV

Princeton University Library



32101 054330814

جوتة

Goethe

إيفجينيا

و
إخمنشت

ترجمهما عن الألمانية

محمد إسماعيل النور

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

القاهرة

طبعة في تأليف والترجمة والنشر

١٩٤٦

١٨٨٠

J. Goethe

جوتة

Goethe

إيفجينيا

و
إجنشت

ترجمها عن الألمانية

محمد بن عبد الله

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

القاهرة

طبعة في التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٦

~~(Arab)~~

~~PT 2034~~

~~A7I4~~

(RECAP)

PT 2034

A7I412

تقديم وعرضه

في ذات صباح نهض جويته مبكراً من نومه وعكف على عمله . ولم يكن في فاير آنذ، بل كان في رومه ؛ طليقا من عبء الوظيفة والبلاط ، خالصاً لفنه ؛ جامعاً ما ازدحم في ذهنه لينشره تحت سماء إيطاليا ، فيزهر ويصفو الصفاء الذي اتسمت به شاعريته .

كان ذلك في يناير ١٧٨٧ ، فلم يكد يفرغ من عمله حتى خرج في التاسعة صباحا يغشى أبهاء الفاتيكان والكنيسة السكستينية ، ويتأمل المثالة القديمة وجمالها الساحي ، وبدائع رفايل ومقدرته الساحرة . فلم يلبث أن تحرك مخيلته ، ثم لطفت وصفت ، ونقلت متعة الفن إلى معمل الفن فخلقت ، وأخرجت من هذا الخلق إيفيجنيا في ثوبها الشعري .

وكانت إيفيجنيا من قبل منشورة مشهورة ؛ أتمها جويته في مارس ١٧٧٩ ، ومثلت على مسرح بلاط فاير في أبريل ، وقام الشاعر نفسه بدور أوريست ، واشترك معه في التمثيل الممثلة والمغنية الحسناء كورونا شرويتز في دور البطلة ، وشقيق دوق فاير في دور بيلادس .

لم تكن هذه أول مرة مثل فيها جويته شيئاً من وضعه ، فولعه بالتمثيل كان معلوما . اشترك معه فيه دوق فاير الأم والدوق نفسه ، وشقيقه وسادة البلاط وسيداته . وكان جويته مجيداً في تمثيل الأدوار ، هزليها وجديها ، يتولى إلى ذلك تحفيظها ، وتوجيه التجارب ، وكتابة الكثير مما يشترك في تمثيله . وقد شهد هوفيلند Hufeland مؤلف « مكروبيوتيك (*) » تمثيلية « إيفيجنيا » . وإليك ما يقوله ذلك الكاتب المعروف عن أثر شخصية الشاعر في نفسه :

« لن أنسى أبداً ذلك الأثر الذي خلفه جويته وهو يمثل أوريست في ثوبه الإغريق . ليخيل إلى أني رأيت أبولون ! فإن أحداً لم يشهد قط هذا الكمال وهذا الجمال في الجسم والروح مجتمعين في واحد كما اجتماعاً في جويته » . وكان الشاعر يومئذ في الثلاثين من عمره « وإيفيجنيا في طوريس » قد استمدها جويته من إيفيجنيا أويريد ، لكن معالجة

(*) Makrobiotik أوفن إطالة العمر ، وبعبارة أخرى علم الصحة . وهي كلمة يونانية مؤلفة من Makro ومعناها الطويل و Bios ومعناها الحياة أي العمر الطويل ، وإليها الإضافة المعبرة عن الفن أو العلم .

الموضوع تختلف في الاثنتين اختلافا أساسيا ؛ ونترك للراسخين في الأدب اليوناني والأدب الألماني حكمهم على الاثنتين من دون محاباة . ولعلك لا تجد ألمانيا إلا ميز جويته على أويريد في إيفيجنيا . وبحسبنا أن نعرض موجزاً للمسرحيتين ، وندل على مواضع الاختلاف وبواعث شاعرنا الألماني :

إيفيجنيا ابنة أجا ممنون وكلية منستره يقدمها أبوها قربانا للآلهة ليتيسر له السفر إلى طروادة مع الجيش الذي يقوده بعد إذ اعتاقته عنه . لكن الإلهة أرتيميس أخت الإله أبولون تنقذها ، فتلقى إيفيجنيا نفسها في طوريس كاهنة لها ، تنهض بوظيفتها الدموية ، وتضحى لها بالزلاّه الغرباء جريا على عاداتها من قديم ؛ فيسخطها هذا المصير ، وتحقق على مينيلادوس وهيلانة اللذين كانا سبب هذا الشقاء . وذووها في غصون ذلك يحسبونها في عداد الأموات ، وهي لا تعلم عن ذويها شيئا . وإنها لسلك ذلك إذا بأخيها أوريست ينزل بطوريس هو وصديقه بيلادس ليسرقا تمثال أرتيميس التي تعبدتها طوريس رغم إرادتها . وكان أبولون أوحى إليه أنه إذا أعاد الأخت إلى دلفي ^(١) لينجيه من الجنيات اللاتي يطاردنه ليل نهار منذ قتل أمه . لكن الرعاة يكتشفونه فيأسرونه هو وبيلادس ويحضرونه إلى الكاهنة إيفيجنيا فتعرف على أخيها . وإذ تعلم بالغرض الذي جاء أوريست من أجله إلى طوريس تدبر حيلة لا تنقذ أخاها فحسب ، بل تعينه أيضا على تحقيق غرضه ، فتزعم أن التمثال يجب أن يُطهر وأن يفضل لهذا الغرض بماء البحر ، فيوافق الملك طواس وهو خالي الذهن . غير أن التدبير يحبط ويكشف قبل الأوان ، فيطارد الفارون ويحل بهم غضب الملك . لكن بالاس أثين ^(٢) تظهر للملك وتوحى إليه أن هذا كله قد تم بمشيئة الآلهة فيرضخ طواس لمشيئة الآلهة ، ويدع اليونانيين يرحلون ومعهم غنياتهم .

هذه قصة إيفيجنيا كما وردت في أويريد فكيف احتفظ جويته بهيكلمها وعمقها ، وكساها حلة ألمانية ؟ إنه بينا النزاع عند الشاعر القديم خارجي محض وحله كذلك خارجي

(١) مدينة عظمتها الأعريق لاحتوائها على معبد أبولون ، ونزول الوحي الإلهي فيها . وقد كان لكمة معبد أبولون هوذا كبير في شتى الأمور الدينية والسياسية والأدبية . وكانت حكمتهم موضع تقدير الكبار .

(٢) إلهة عند الأعريق تقابلها مينرفا عند الرومان . ومينرفا إحدى الثلاث الإلهي الحامي لرومه المؤلف منها ومن الإلهين جوبيتر وجونو . وكان مقرر الكايتول يعبدون في معبد فيه .

كذلك ، إذا بجويته ينقله إلى صميم النفس فتبدو إيفيجينيا مختلفة عن تلك ، وإذ هي عنده محور الموضوع فهي تتطور في مسرحيته تطوراً مختلفاً . إيفيجينيا كما تقرأها لجويته تخضع لمشيئة إلهتها أرتيميس ، ورعة صادقة ، تتسم بالرأفة والإنسانية وحب الوالدين والأخوة ، وتؤثر الصدق وتحفظ الجميل . وروحها الأنثوية الطاهرة ونفسها البريئة تهذب كلتاها وتصلح وتكفر . فهي تلتطف من عادات الهمج الخشنة ، وتجلب البركة إلى أرضهم الوعرة ، وتبطل عادة ذبح الغرباء . ويُعجب الملك طواس عملها النبل فيميل إليها ، ويغرم بها ، فيطلب يدها فترفض طلبه عن تواضع ، فيعود فيلح ، فتحسر النقاب عن أصلها ، وتفضي له سرها وأنها من بيت طانتالوس العيين .

لكن هذا لا يثنيه عن عزمه فيعاود الطلب ، فتتذرع إيفيجينيا بخدمتها للإلهة أرتيميس لأنها لا تحب أن تجرح الملك ، وتزعم أن لإلهتها وحدها الحق في التصرف في حياتها ، فيتملك الألم والغضب الملك ، ويأمر بأن تعود العادة القديمة ، وأن يضحي من الآن فصاعداً بكل غريب يلتقى بطوريس على مذبح أرتيميس . ويوجد من هؤلاء الغرباء إثنان مخبئين في مغاور الساحل ، فيلكونا أول الضحايا من جديد . والغريبان هما أوريست وبيلاوس ، يقدمان إلى إيفيجينيا فتستبين فيهما ابني من أبناء الإغريق ، فتسألها عن الأوطان فتعلم بسقوط طروادة ، وتسمع بالمصير المشئوم الذي نزل ببيتها ، فيتولاها الذعر ، لكنها تتمالك جاهدة . ويقص بيلاوس عليها قصته الأولى الملققة ، وينبئها بفعلة أوريست وتعقب الأرينات (*) إياه ، وكيف أوحى إليه أبوللون بأن يغفر له فعلته إن هو خلص أخته المحتبسة على غير إرادتها في أرض السيت إلى آخر القصة .

في إيفيجينيا هذه التي كتبها جويته صفا ذهن الشاعر واكتمل صفاؤه ، واقتادت الأخت النبيلة أخاها أوريست من ليل اليأس والخيال إلى نهار الأمل المشرق ، ووجد الذنب البشري كفارته في العظمة الأخلاقية ، وانسجم كل شيء بعد الشك والضلال . « وإيفيجينيا » التي تصل في ثوبها الشعري إلى ذروة الشعر الألماني تمزج الحياة النفسية

(*) آلهة النعمة الموكلات بالآثمين لا يزلن بهم حتى يفقدنهم صوابهم أو يكفروا عن خطاياهم ، فإذا كفروا اقبلت الأرينات — ومعناها باليونانية الحائقات — إلى أومينيديات Eumeniden ومعناها الحيريات فكففن عن ملاحظتهم .

العميقة بالسمو الهادئ مزجا رائعا ، ففي نفس البطلة ، وفي نفس أوريست ، وفي نفس طواس ، عراك يحركها من الأعماق ويرتفع بها إلى مرتبة السورة . لكن الشعور الفني الذي حال في « جماعة لاؤوكون »^(١) دون انفجار الألم انفجارا عنيفا ، والذي يحول غضب « أبوللو بلفيدير »^(٢) المندلع إلى كبرياء جهمه — هذا الشعور الفني أو هذا الترفع العف ، يسم لغة المسرحية ويميزها . وقد حافظ جويته في هذه المسرحية على قواعد الجمال ، والتزم الوقار ، ولكن من دون أن ينال هذا التحفظ من حرارة المسرحية — وهذا سر العبقرية الفنية . وقد قامت إفيجنيا على البساطة — بساطة القدماء ، وحافظ فيها الشاعر على الوحدات الثلاث : وحدة الزمان ، لأن القصة كلها تقع في بضع ساعات من يوم واحد ؛ ووحدة المكان ، لأن كل شيء في التمثيلية يجري في حرج المبد ؛ ووحدة الموضوع لأن الحوادث كلها تنطور في طبيعة الأشخاص .

على أننا نحب ألا نغفل هنا شيئا لا ممدى عن تسجيله ، وهو أن هذه المنظومة الجيدة لم يرض عنها الأصدقاء القايرون ، ولا رضيت عنها محافل الفن في رومه إذ ذاك . لم يرض عنها من الفنانين والكتاب أمثال تيشباين وموريس والرسامة أنجيليكا كوفمان وغيرهم . والسبب بسيط : فإن أحدا من هؤلاء المعاصرين لم يكن تغلب في نفسه على « العاصفة والاندفاع » إلى حد أن يجد علياء الهدوء التي تخلق إفيجنيا في سمائها خلوا من البرود . بقيت كلمة لابد منها وواجب على أن أؤديه لسيدني كريمين كان لهما دخل من قريب أو بعيد في ترجمتي لإفيجنيا . أولها أستاذي شقن الذي درست عليه هذه المسرحية أول عهدي بالأدب الألماني منذ أكثر من ربع قرن . والثاني أستاذي الدكتور طه حسين بك . فقد كان من غريب الإتياف أن يطلب إليّ من سنين طويلة ترجمة إفيجنيا بالذات . فكان له في هذا فضل الإيحاء ، وفضل التذكير من حيث لا يشعر ، بأستاذي شقن . وقد

(١) تمثال بالفاتيكان يمثل رجلا وولديه قد التفت حولهم جميعاً حيتان هائلتان . فأما الرجل فلاؤوكون كاهن معبد أبوللون في طروادة . غضب عليه إلهه لأنه دنس معبده بفعلة شنيعة من عمل الحواس ، فأخرج عليه وعلى ولديه حيتين هائلتين من البحر تختفانهم . وكان الكاهن قبل ذلك قد نهى أهل طروادة عن إدخال الحصان الخشبي المشهور الذي اختبأ فيه الأترياق إلى المدينة ، فلما حل به غضب الإله أولوا هذا بأنه غير راض عن نصيحته ، فأدخلوا الحصان إلى المدينة ، وكان ما كان مما تحويه قصة طروادة .

(٢) تمثال لأبوللون في الفاتيكان يمثل قوة الشباب والجمال الكامل . ويعدّه فينكلمان أجمل ما أخرج

قرأت على الدكتور طه بك آثد ترجمتى لإيفيجنيا وأظنه رضى عن أسلوبها . وأرجو أن أكون عند حسن ظنه أيضا فى الترجمة .

ومن محاسن الصدف أن تكون « إجمت » التى تلى « إيفيجنيا » فى هذا الكتاب هى العمل التالى لإيفيجنيا فى رحلة جويته الإيطالية . فى نفس السنة (١٧٨٧) أتم الشاعر فصول إجمت التى بدأها فى فرانكفورت قبل اثنتى عشرة سنة ، وكان على وشك الانتهاء منها قبيل سفره إلى إيطاليا . وكذلك إجمت تناولها التعديل وإن ظلت فى صيغتها النثرية . وكذلك خالف فيها جويته الأصل المعروف ، وغير فى شخصية البطل ما شاءت له بواعثه الفنية . فأجمت بطل من طبقة الفرسان ومن أصل هولندى عريق فى النبلى ، زاد عن حرية بلاده ، وسار فى حياته سيرة مرحلة ، صريحة ، مستقيمة ، وكان دمث الأخلاق مع من هم أقل منه ، فأحبه الجند وبجّل الشعب . وكانت الظروف فى أيامه عصيبة . فالدوق ألبا مبعوث الملك فيليب الثانى ، ورسوله الرهيب ، يصل إلى الأراضى الواطئة ، ويهدد حريتها ، وإجمت خالى البال ، يلوذ من مهامه الجديدة بقرب كلارا ، ينسى عندها هموم الحياة . وكلارا فتاة من بنات الشعب نضرة ، ساذجة ، مرحلة ، تحب إجمت وتتفانى فى حبه . ولأجمت صديق من النبلاء والزعماء حكيم حذر هو أورانيان ، لا يرضى عن غفلة صديقه فيحذره ، ويرى فيه النائم اليقظان السائر فى نومه على حافة السطح فينبهه ، فلا يتنبه بل يبقى حيث هو ، ويقع فريسة لخصمه الدوق ألبا ، بينما ينجو أصدقاؤه بجلودهم لائذين بالفرار .

وإجمت زعيم لا يعرف للمواربه ، ولا يحجم عن قول الحق فى وجه ذى السلطان ، فهو يصارح ألبا الخبيث برأيه ، ويدافع عن حقوق الأقاليم الواطئة . وألبا إنما جاء لهضم هذه الحقوق ، فهو يستدرجه إلى الأدلاء بأقوال تشكك فى ولائه للملك ، فيتذرع بها للقبض عليه ، والزج به فى السجن . ولا يفقد إجمت فى سجنه ثقته بعدالة الملك وصدقة الوصية ونجدة أورانيان والشعب . وتحاول كلارا التى يرفعها الألم واليأس إلى مرتبة البطلة — تحاول إثارة الشعب ، وحمله على تخليص إجمت بالقوة ، ولكن عبثا تحاول ، فتتناول السم ، وتسبق الحبيب إلى الدار الباقية . وفى ليلة إعدامه تتبدى له فى الحلم حائمة فوق سحابة على صورة إلهة الحرية ، وتعلن إليه أن موته سيحقق للهولنديين الاستقلال ، ثم تناوله إكليل النصر .

هذه قصة إجننت كما كتبها جويته . وقد أخذ شيلر على صديقه الشاعر الأكبر بعض المآخذ فيها من الناحية التاريخية . فأجننت الذى يعرفه التاريخ قد كان متزوجا . وهو حين بقى فى بروكسل ولم يرحل عنها ، إنما كان يلبي داعى حبه لأمرأته وأولاده . لكن جويته لم يرد التزام الدقة التاريخية ، فتعمد أن يقدمه — وهو الرجل ذو الزوجة والأولاد — أعزب ، غير عابى بالتاريخ . وجويته يعلل ذلك ويبرره بقوله : « لقد كان على تحقيقا لغرضى أن أجعل منه شخصية ذات صفات تلائم الشاب أكثر مما تلائم الرجل المتقدم فى السن ، وتناسب الأعزب أكثر مما تناسب رب البيت ، والمستقل أكثر ممن تقيده ظروفه » . لكن شيلر الذى يمجّد الفن فى التزام الأمانة عند عرض الألوان المحلية من الناحية التاريخية ، كان يود أن يرى إجننت آخر غير الذى قدمه جويته — إجننت الكفء للمهمة التاريخية العظيمة الملقاة على عاتقه ، لا إجننت الودود الذى يمكن أن نرثى لحاله ونعطف عليه . إجننت الذى يفرض علينا إكباره والإعجاب به .

وهذا مأخذ ينهض إلى اليوم . لكن المسرحية برغم ما يزال لها إلى وقتنا هذا فتنة لم تهرم ، أبقاها ذلك الحب الذى ربط به الشاعر بين الزعيم وبين كلارا بنت الشعب ، وتلك الصورة البارة التى صور بها الفتاة ، وذلك الرسم الدقيق البالغ الدقة ، الذى رسم به مناظر الشعب والأشخاص العارضة . على أنه لا سبيل إلى إنكار أن مشاهد المسرحية تتراص بعضها إلى بعض بدلا من أن يتولد بعضها من بعض ، وأن أسباب نكبة إجننت لم تستقص الاستقصاء الكافى .

ومع هذا فما تزال المسرحية إلى اليوم أثيرة عند الجمهور الألمانى ، وستظل كذلك . ولعلنا نحسن صنعا إذا نحن ختمنا هذه الكلمة برأى للفنان الألمانى العظيم لودفيج فان بيتهوفن فى إجننت . فقد كان كتب لها إفتاحية موسيقية ونشيدا تحم به ، وبعث إلى جويته طى كتاب يسأله رأيه فى موسيقاه ، ويبدى إعجابه بالشاعر . قال :

« ستتلقون قريبا فى ليزيزج موسيقى إجننت . إجننت الرائع الذى تلوته بحرارة ، ومن نحوك فكرت فيه ، وشعرت به ، وترجمته إلى الموسيقى بمثل هذه الحرارة » .

ابن حنبل

أشخاص المسرحية

إيفيجنيا

طواس : ملك الطوريين

أوريست

بيلاوس

أركاس

مسرح الحوادث

حرج أمام معبد ديانا

الفصل الأول

المنظر الأول

إيفيجنيا . (وحدها) أيتها الأعلى المتحركة ، في هذه الغابة المقدسة ، المعروشة ، المتقادمة العهد
ما يزال الرعب يتملكني في ظلالك كلما خرجت إليها ،
مثلما تتملكني الرهبة في قدس الإلهة الرهيب ،
فكأنني هنا لأول مرة ، لا تأنس روحي إلى هذا الجوار .

إن إرادة سامية تحتجزني في هذا المكان غير عام ، وأنا مستسلمة لها ،
وما زلتُ ، كما كنت في عامي الأول ، غريبة في هذه الديار ؛
ذلك أني واحسرتاه ، يفرق البحر بيني وبين أحبائي ،
وأني أقف بالساحل أياما طويلا ، تهفو روحي إلى أرض اليونان ،
أرسل على الموج حر الزفرات ، فلا يجيب الموج بغير الزمجرة وأجش الأصوات .

لهف نفس على الوحيد ، يعيش قصيّا عن والديه وإخوته ؛
يخطف الهم هناءه ، ولما تكد تتناوله شفّته ؛
وتهمم أفكاره دواما إلى أبهاء أبيه ،
حيث الشمس قد جلت السماء ، أول العهد ، لعينيه ؛
وتوقفت بينه وبين اللذات اللاعبات أواصر الحنان .
حاشا أن أعترض على مشيئة إلهتي . حاشى !

إنما تحزنتي حال المرأة ، وأرى الرجل سيّدا في البيت وفي الميدان ،
وهو في الغربة لا تعييه الحيلة ، ولا يعدم العون .
الملك يسره ، والنصر يكلله ، فإذا جاء أجله مات موت الكرام

والمرأة يا سوء حظها ! الطاعة للزوج الفظ واجب وعزاء .
ويا تعس نصيبها ، إن طوّح بها القدر الساخط إلى قاصى الأرجاء .
كذا يحتسنى طواس الرجل النبيل ،
ويحكم حولى قيود الرق المقدسة القاسية .

إلهتى ! لشد ما ينجلى أن أعترف بأنى أخدمك فى تهرم الصامته ،
وأنت بعد منقذتى ؛

وكان أولى أن أقف عليك حياتى باختيارى .
لقد أملت دواما فيك ، وما زلت يا ديانا ^(١) معقد رجائى ؛
أنت التى احتضنتى فى ذراعك المقدس الحنون ،
فاحتضنت الابنة المنبوذة لسيد الملوك أجمعين .

أجل يا ابنة زيوس ^(٢) ، إذا كنت قد رافقت الرجل الرفيع المقام ،
أجا ممنون صنو الآلهة ، الذى روّعته حين طلبت ابنته ،
والذى قدم على مذبحك أحب الناس إليه —
إذا كنت رافقته ، ورددته إلى وطنه مكلا بالجد ،
من فتح طروادة المدكوكة الأسوار ،
وحفظت له زوجه وإكتره وابنه ، وكنوزه الثمينة ،
فما يمنع أن تردىنى أنا أيضا إلى ذوى ،
وأن تنجىنى — أنت التى أنقذتنى من الموت —
من الحياة هنا أيضا ، من ذلك الموت الثانى .

(١) ابنة زيوس وتوأم أبوللون وهى إلهة الصيد والقمر وإلهة العفاف ، ومعينة الوالدات . وهذا اسمها عند الرومان ، أما عند اليونانيين القدماء ، فتسمى آرتميس Artemis ، وتعد ديانا فى الأساطير رمز العذرية الطاهرة والتربية الصارمة ، وقد عاقبت الصياد أكتيون فسخته وعلا لأنه تجسس عليها وهى فى الحمام مع حورها المصاحبات لها ، ثم أطلقت عليه كلابه فنهشته نهشا .

(٢) رب الأرباب عند اليونان ، ويقال له جوبيتر عند الرومان ، وهو فى أساطير اليونان ابن كرونوس Kronos وريا Rhea اغتصب ملك أبيه ، ودحر التيتان مناصريه ، وترك لأخيه روزيدون Roseidon البحر ولأخيه هادس Hades الجحيم ، واحتفظ لنفسه بملك السماء والسيادة على الدنيا ؛ أما الأرض فكانت بينهم شركة .

المنظر الثاني

إيفيجنيا . أركاس

أركاس أوفدني الملك إلى كاهنة ديانا ، أحمل إليها تحيته وأقرمها السلام ،
فاليوم محمد طُوريس لآلتهما ماجبتها إياه من نصر مؤزر جديد .
وقد سبقتُ الملك والجيش إلى هنا ، لأعلن قدوم الملك واقترب الجيش .

إيفيجنيا إننا مستعدون لاستقبالهما بما يستحقان من تكريم .
وإلهتنا ترمق بعين الرضا ما يقدم طُواس من قرايين .

أركاس ليتني أجد نظرتك أيضا أكثر حفاوة وبشرا ،
وفألا حسنا لنا أجمعين ، يا أيتها الكاهنة المبجلة ، والعذراء المقدسة .
فما يزال الهم ينتابك خفيا ، وما يزال كما كنا في سالف السنين ،
نطمع عبثا في أن نطلع على شيء من مكنون صدرك الدفين .
فهذه نظرتك التي أرتاع لها على الدوام منذ عرفتك في هذا المكان ،
وهذه نفسك المستغلقة البعيدة القرار .

إيفيجنيا كما هو بالقصيدة الميمنة خليق .

أركاس أو تعدين نفسك هنا قصيدة ميمنة ؟

إيفيجنيا أمكن أن تكون الغربة وطننا لنا ؟

أركاس لقد بات وطنك غريبا عنك .

إيفيجنيا ومن ثم لا يبرأ قلبي الدامي !

في صباى الأول ، والنفس ترتبط بأب وأم وأخوة أو تسكاد ،

والأغصان الحديثة تنبج في النمو صوب السماء ،

وتنجم من الجذوع العتيقة متزاملة حبيبة ،

في هذا الصبا حلت بي لعنة غريبة فرقت بيني وبين الأحباء ،

وفصمت رابطتنا الجميلة بقبضتها القاسية !!!

فَعَفَّتْ خَيْرَ مَسَرَاتِ الصَّبَا ، وَغَاضَتْ رِفَاهِيَةَ السَّنِينِ الْأَوَّلِ .
وَقَدْ نَجَوْتَ فَلَمْ تَلْحَ لِي نَفْسِي إِلَّا طَيْفًا ،
وَلَمْ يَعَاوِدْنِي حُبَ الْحَيَاةِ .

أَرَكَاَسَ إِيْفِيْجِنِيَا
إِذَا كَانَ هَذَا رَأْيُكَ فِي مَقْدَارِ تَعَاسَتِكَ ، فَرَأَيْ أَنُكَ جَاحِدَةٌ لَا مَرَاءَ .
لَمْ أَحْبَسْ عَنْكَ شُكْرِي قَطْ .
أَجَلْ ، لَكِنَّهُ لَيْسَ بِالشُّكْرِ الْخَالِصِ ، الَّذِي يَجِبُ صَنْعُ الْخَيْرِ ،
أَرَكَاَسَ
وَلَا بِالنُّظُرَةِ الرَّاضِيَةِ ، الَّتِي تَطَالَعُ رَبَّ الْبَيْتِ بِالْقَنَاعَةِ وَالْمِيلِ .

عِنْدَمَا جَاءَ بِكَ إِلَى هَذَا الْمَعْبَدِ مُصِيرٌ غَوِيرٌ خَفِيَ مِنْ سَنِينِ طَوَالِ ،
خَفَ طَوَاسُ الْقَائِكَ ، أَنْتَ الْمُوْهُوبَةُ لِلَّهِ ، بِالتَّجَلَّةِ وَالْأَقْبَالِ ؛
وَكَانَ هَذَا السَّاحِلُ يَرْمِي بِالرَّعْبِ كُلِّ غَرِيبٍ ،
فَبِذَلْ لَكَ مِنْ مَوْدَتِهِ وَحَفَاوَتِهِ مَا يَبْذِلُ لِلْقَرِيبِ .

إِنْ أَحَدًا قَبْلَكَ لَمْ يَطَأْ هَذِهِ الْبِلَادَ إِلَّا اسْقَطَ عَلَى دِرْجِ دِيَانَا الْمَقْدَسِ ضَخِيَّةً دَامِيَةً ،
بِحُكْمِ الْعَادَةِ مِنْ قَدِيمٍ .

إِيْفِيْجِنِيَا
التَّنَفَسُ وَحْدَهُ لَيْسَ كُلُّ مَا تَهْبِ الْحَيَاةُ ؛
وَأَيُّ حَيَاةٍ تِلْكَ الَّتِي لَا أَفْعَلُ فِي هَذَا الْمَسْكَانِ الْمَقْدَسِ غَيْرَ أَنْ أَبْذِيهَا ،
كَالطَّيْفِ الطَّائِفِ بِقَبْرِهِ .

أَحْيَاةٌ مَرَحَةٌ مُحْسُوسَةٌ تِلْكَ الَّتِي تَطْوِي الْأَحْلَامَ أَيَّامَهَا سَدًى ،
وَيُعِدُّنَا كُلَّ يَوْمٍ فِيهَا لِأَيَّامِ غَبْرَاءَ ، تَقْضِيهَا عَلَى سَاحِلِ لَيْثِهِ (*) ،
جَهْرَةً الْغَافِلِينَ مِنَ الْأَمْوَاتِ .

إِنْ حَيَاةٌ لَا نَفْعَ فِيهَا هِيَ الْمَوْتُ قَبْلَ الْأَوَانِ ،
وَهَذَا الْمَصِيرُ النَّسْوِيُّ هُوَ مَصِيرِي قَبْلَ كُلِّ إِنْسَانٍ .
أَرَكَاَسَ
هَذِهِ الْكِبْرِيَاءُ النَّبِيلَةُ الَّتِي تَبْدِينُ بِاسْتِصْغَارِكَ شَأْنَكَ ، أَعْتَفَرَهَا لَكَ ؛

(*) نَهْرٌ فِي الْجَحِيمِ تَرَوِي الْأَسَاطِيرَ الْيُونَانِيَّةَ وَالرُّومَانِيَّةَ أَنَّ أَشْجَابَ الْمَوْتِ تَشْرَبُ مِنْهُ فَتَنْسَى هُمُومَ الْحَيَاةِ وَأَلَامِهَا .

وإن كنتُ لك من جرائها شديد الرثاء ،
ذلك أنها تسلبك متعة الحياة .

أحق أنك لم تصنعى منذ مقدمك هنا شيئا ؟
فمن سألَ إذن عن الملك الكآبة ؟

ومن عهد إلى تلك العادة العتيقة القاسية —

وكانت تقتضى الغريب حياته قربانا على مذبح ديانا —

فعطلمها بالإقناع الرفيق عاما بعد عام ؟

من أكثر أن رد الأسرى عن موت محقق ، إلى أوطانها سالمين ؟

أو لم تستجب ديانا لصلاتك العذبة ، بدل أن تغضب لما قوتَ عليها ،

من قربان دموى جرت به عاداتها من قديم ؟

أليس النصر يحوِّم طروبا حول الجيش ؟ أما يتقدمه ؟

أليس الجميع يحسون مصيرا خيرا من ذى قبل ،

مذبات الملك المدبر لأمرنا بالحكمة والشجاعة من أمد طويل ،

يستمد الرحمة من جوارك ،

ويخفف عنا واجب الطاعة التى نبذلها له صامتين ؟

أترين مما لا نفع فيه أن يقطر البلسم منك على آلاف من تحتك ،

وأن تصبى للشعب الذى جاءه بك إله ، معينا لا ينضب لهناء جديد ؟

وأن تهبى الغريب على ساحل الفناء المجدب سلاما ورجعة إلى الأوطان ؟

لا تأخذ العين القليلَ اليسير ، وهى تتطلع إلى الباقي الكثير .

أتطرين الذى لا يقدر ما يفعل ؟

بل أدم الذى يستكثر ما يعمل .

كذلك الذى يستهين ترفعا بقيمة حقه ،

والذى يُعلَى عن غرور من قدر باطل .

صدقينى واستمعى إلى كلمة رجل وفى شريف :

إذا تحدث الملك إليك اليوم فيسرى له مفاحتك بما يفكر فيه .

إيفيجنيا

أركاس

إيفيجنيا

أركاس

إيفيچنيا كلامك الطيب يثير مخاوفى ، فقد طالما رُغت من طلبه جاهدة .
أركاس فكرى فيما تصنعين وفيما ينفعك .

إن الملك مذ فقد ولده لا يثق إلا بالقليلين من ذويه ؛
وثقته بهؤلاء القليلين لم تعد كما كانت من قبل .
إنه ينظر بعين السخط إلى ولد كل نبيل ،
يخشى أن يصبح خليفته على ملكه .

إنه يخاف سنا يكون فيها وحيدا بلا معين ،
بل لعله يخشى فتنة جريئة وموتا قبل الحين .
ليس من طبع السيت (*) أن يمهّدوا الكلام ،
والملك أزهدهم جميعا فى مثل هذا التقديم .
اعتاد أن يأمر وأن يفعل ،

فلا يعرف فن تصريف الحديث من بعيد إلى غرض ينتويه ،
والاحتيال لذلك ، بالكياسة والرفق .
فلا تصعبى الأمور بتحفّظ هو الرفض ، وبتأبى الفهم .
بل ترفقى به ، وقابليه فى منتصف الطريق .

إيفيچنيا أتعجل ما يتوعدنى ؟

أركاس أتعدّين تقربه تهديدا ؟

إيفيچنيا إنه أشد ما يرعبنى .

أركاس أجزه ثقة عن ميله فهى حسبك

إيفيچنيا أجزيه أن رّوح عنى خوفى .

أركاس فيم تكتمين عنه أصلاك ؟

(*) شعوب مختلفة الأصل والعادات ، اختلف المؤرخون القدامى فى تعيين موطنها فقال هيرودوت إنها كانت تسكن ما هو الآن جنوب روسيا ، وزعم بطليموس أن موطنها كان فى آسيا عن يمين جبال إيمائوس وعن شمالها ، ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه الشعوب من الرحل ، وكانت قبائلها المختارة تركب الخيل ، وتتسلح بالقوس والسهم . خضعت لها قبائل من الرحل وأخرى من الفلاحين ، وكان بعض هؤلاء من المغول والبعض الآخر آريين ، والسيت أنفسهم فيما يظهر من أصل هندى جرمانى .

- إيفيجنيا الكتمان من شيمة كاهنة مثلى .
- أركاس الملك لا يكرم عنه شيء . إنه ليحس ما تخفين وإن لم يطالبك بإبدائه ، وهو يشعر من أعماق نفسه العظيمة بأنك جاهدة فى التصون منه .
- إيفيجنيا أغير راض هو عنى ؟
- أركاس يكاد هذا أن يكون ؛ وهو أيضا لا يذكر .
- لكن كلاماً منه دلى على أن رغبته ملحة فى امتلاكك .
- فلا تهملية ، ولا تدعيه وشأنه فتخطيه ، فيوقع بك .
- إيفيجنيا كيف ! أياضمر الملك مالا يحمل نبيل يغار على اسمه ، ويلطف تبجيل الآلهة من نزوات صدره ؟
- أيعتزم أن ينتزعنى من الهيكل إلى فراشه ؟
- إذن فلا أدعون الآلهة جميعا وفى المقدمة ديانا ،
- الآلهة ذات العزم ، التى تحمى كاهنتها بلا مرأى ،
- والعذراء التى تدفع من قلبها عن العذراء .
- أركاس هددنى روعك ! فسورة الدم تدفع غير الملك إلى فعل كهذا من عمل الصبيان . إنما أخشى منه قراراً آخر قاسياً لا يصرفه عنه شيء ؛ فنفسه ثابتة ، وعزمه لا يلين .
- فها وثقت به ، وحفظت جميله ، إن كنت لغير ذلك من الكارهين .
- إيفيجنيا ليتك تحدثنى بما تعلمه عن الملك غير الذى ذكرت .
- أركاس اسميه منه .
- إنى أرى الملك آتيا وأراك تبجلينه ،
- وقلبك يدعوك إلى ملاقاته بالحفاوة والتكريم .
- والرجل النبيل تحمله المرأة بالقول الطيب إلى مدى بعيد .
- إيفيجنيا (وحدها) لا أرى وایم الحق كيف السبيل إلى الانتصاح بهذا الوفى .
- بلى إنى لأحب أن أضغى إلى صوت الواجب ،
- فأجزى الملك عن إحسانه بإحسان ،
- فعسى أن أصدق القول فيما يعجب ذا السلطان .

المنظر الثالث

إيفيجنيا . طواس

إيفيجنيا

لتباركك الإلهة بالملك والسلطان ، ولتهيبك النصر والمجد والمال ،
وتمنح ذويك الخير والبركة ، وتحقق لك كل رغبة صالحة .

لتنعم أنت المهيمن بالعناية على الكثيرين ، بالهناء العزيز قبل الكثيرين
ما كان أحراني أن ترضى نفسى بتمجيد شعبي .

طواس

لكن ما أحرزته ينعم به غيرى أكثر منى ،

وإنه لسعيد من يلقي الخير فى بيته ، ملكا كان أو صعلوكا .

وقد شاطرتنى المبرح من آلامى ،

حين اختطف السيف من جنبى آخر أبنائى وخيرهم جميعا .

لم أك أستشعر وحشة فى منزلى حين كانت شهوة الانتقام مستولية على حسى .

والآن إذ ترضى نفسى ، وقد دال ملك أعدائى وثارت لولدى ،

لا ألقى فى بيتى ما يثلج صدرى .

فاطاعة الهاتفة التى كانت تطالغنى من كل عين ،

باتت كظيمة اللهم رهينة الكمد .

كل امرئ يفكر فيما عسى أن يأتى به الغد ،

ويتبعنى لأن عليه أن يتبع محروم الولد .

اليوم آتى إلى هذا المعبد — الذى كثر أن غشيته ،

استوهب النصر — وأشكر عليه —

وفى صدرى أمنية طال عليها العهد ، لا تجهلونها ولا تتوقعونها .

إنى أرجو لخير شعبي وخيرى أن أدخلك بيتى عروسا لى .

إنك تعرض على المجهولة الأصل أكثر مما ينبغى أيها الملك .

إيفيجنيا

إن المائلة أمامك هاربة مخزية لا تطلب على هذا الساحل

سوى الكنف والراحة ، وقد نالتهما منك .

ليس عدلا ولا حسنا أن تسلكى دوما حيالى ،

طواس

ما تسلكين حيال آخر رجل فى بلادى ، فتخفى عنى سر مقدمك .
إن هذا الساحل يربع الغرباء : بذا يقضى القانون وتلزم الضرورة .
لكنه منك وحدك ، يا من أكرمنا ضيافتك ،
وبت تستمتعين بكل حق ربانى ، فتقضين يومك وفق هواك ، وطوع مشيئتك —
منك وحدك رجوت الثقة التى يرجوها رب البيت لقاء وفائه .
إن كنت كتمت نسبي وحقيقة أمرى ، فالحيرة ما دفعنى ، أيها الملك ،
لا انتفاء الثقة .

إيفيجنيا

فما يدريك ألا يستولى عليك الرعب وتتملك التشعيرة فؤادك الكبير ،
لو أثبتت التى تقف بين يديك ،
فعلمت أى رأس لعين تعول وتحمى .
عندئذ تعجل بإقصاى عن حظيرة ملكك ،
بدل أن تدنينى إلى جانب عرشك ؛
وقد تدفع بى إلى الشقاء ، الذى ينتظر كل هائمة
يشردها الرعب الغريب القاسى ،

قبل أن تفكر فى عودتى السارة إلى أهلى ، وفى إنهاء غربتى .
مهما يكن رأى الآلهة فيك ، ونياتهم حيالك وحيال بيتك ،
فإن البركة التى تحل بى من السماء لم تقلع ، مذ حلت بيننا ،
وتمتعت بحق الضيف الإلهى .

طواس

وليس يسيراً أن تقنعينى بأنى أظلل رأساً مثقلاً بالذنوب .
إنما يجلب لك البركة إحسانك لا الضيف .

إيفيجنيا

ما يصنع المرء للخاطئين لا يجلب بركة ؛ فعنك هذا التكم وهذا الأعراض .
ما أنا بالرجل الظالم ؛ فقد أودعتك الآلهة يدي ،
وكما أنك مقدسة عندها ، فكذلك أنت مقدسة عندى .
وستظل إشارتك قانوناً لى .
فإذا وسعتك العودة إلى وطنك أبرأتك من كل طلب لى .

طواس

غير أن السبيل موصدة إلى الأبد من دونك ؛
وإذا كان قومك قد شردتهم الأيام ، أو شتتهم النكر من نكبات الزمان ،
فأنت لى بحكم ما هو أكثر من قانون .

فأفصحى ، فإنك تعلمين أنى إذا وعدت أنجزت .

إيفيجنيا يا أبى اللسان فكأ كما من عقدة طال عليها الزمن

وأن ييوح أخيراً بالسر الدفين من قديم .

والسر أن ذاع مرة زایل القلب إلى غير رجعة ،

وغادر إلى الأبد حرزه الأمين ،

ثم راح يضر أو ينفع حسبما تشاء الآلهة .

فاعلم إذن أنى من ذرية طانتالوس (١) .

طواس نطقت هادئة بالكلمة الكبرى .

أفجذك من عرف الناس صفياً للآلهة فى سالف الزمان ؟

أهو طانتالوس الذى اتخذه جوييتر مشيراً ، وأدناه من مجلسه والخوان ؟

والذى كانت الآلهة ذاتها تبتهج بحديثه العامر بالخبرة الزاخر بالحكمة ،

المعجز كالآيات ؟

إيفيجنيا هو بعينه .

لكن الآلهة أحرىاء ألا تختلط بالبشر اختلاطها بالأنداد .

فالجنس الفانى أضعف من أن لا يصيبه الدور فيما لم يألف من علياء .

لم يكن جدى لئىما ولا خوؤنا ، إنما جل عن أن يكون من العبيد .

ولم يكن لرفقة المرعد الأعظم (٢) إلا بشراً ،

(١) تذكر الأسطورة اليونانية أنه ابن زيوس رب الأرباب عند اليونان من زوجه بلوتون ، وكان ملكاً على فريجيا وأبا ليلويس ، اصطفته الآلهة ، وأشركته فى ولائها فبَطِرَ وطنى ، ونسب إليه أنه كان يفسى احاديث الآلهة ، وأنه امتحن علمها بكل شىء بأن ذبح ابنه ليلويس وقدمه لهم طعاماً ، فعاقبته الآلهة بأن نفته إلى الجحيم ، وساطت عليه فيه الجوع والعطش يعذبانه إلى الأبد .

(٢) يقصد جوييتر .

فكانت خطيئته من خطايا الفانين .

كان قضاؤهم صارماً ، فقال الشعراء : إن القحّة والغدر
أسقطاه عن مائدة جويتير إلى حضيض طارطاروس^(١) العتيق ،
وباءت ذريته كلها بغضب الآلهة .

أحملت وزر الجد أم وزرها هي ؟

طواس

كان عرض الصدر وقوة نجاع التيتان^(٢)

إيفيچنيا

هما تراث أبنائه وحفدته الأ كيد .

لكن الرب طوّق جباههم بأطواق من نحاس ، فأعمى أبصارهم المظلمة الفرعة
عن النصح والقصد والحكمة والأناة .

فكل شهوة لهم باتت سورة ،

وكل سورة لهم جاحجة لا تعرف الحدود .

فبيلوّس أحب أبناء طانتالوس إليه ، الراكب في نزواته رأسه ،
استحوذ بالغدر والاعتتيال على هيوداميا —

ابنة أونوماوس — أجهل النساء ؛

فرزقته هيوداميا ، مرضية بعلمها ،

بولدين هما تبيست وأتريوس .

وكان أبوهما يؤثر بالحب وليده البكر من زيجة أخرى ،

فنشأ الأخوان يحسدان الأخ على هذا الحب النامي .

وألّف الكره بين قلبيهما فأقدما في الخفاء على أولى الشنائع ،

وقتلا الأخ غيلة وغدرا .

(١) هوة سحيقة كان زيوس رب الأرباب يلقى فيها التيتان المردة أبناء الطبيعة الحشنة التي هو

من نسلها .

(٢) التيتان في أساطير اليونان هم أبناء أورانوس Uranos وجيا Gaea الذين يمثلان الطبيعة الحشنة

في صورتها الأصلية ، وقد كان من هؤلاء الأبناء ابن يدعى كرونوس اغتصب سلطان أبيه فجاء ابنه زيوس
رب الأرباب عند اليونان يغتصب سلطانه ، ويلقى بالتيتان من عمومته إلى هوة طارطاروس ، ويصطفى من
والاه منهم وانضموا إليه .

ووهم الأب أن زوجه القاتلة ،
فطالب هيبوداميا بأن ترد الولد ، وأحفظه الجرم فشدد النكير ،
فانتحرت —

طواس

امض في قصتك ، لا تمسكى !
أترأكِ أسفتِ على ثقتك بي ؟ تكلمى !

إيفيجينيا

طوبى لمن يستعذب ذكر الآباء
فيشيد وينوه بجلائل أعمالهم
ويسره أنه في سلاتهم الجميلة عقيم .

لا يرزق البيتُ شبيه الإله ووحش الإنسان متعاقبين ،
إنما يرزق سلالة أشرار ترعب الناس ،
أو سلالة أخيار تقرر العيون .

وقد خلف أترىوس وتيبست أباهما على حكم المدينة ،
ثم آذن ونأماه بالزوال فلم يلبث طويلا .

فدنس تيبست فراش أخيه ، وانتهاك حرمة ؛
وانتقم منه أترىوس بطرده من حظيرة دولته .

وكان تيبست قد مكر بأخيه ميبتا الشر ،

فاختطف من قبل ابنا له ، مدخلا في روعه أنه ابنه .

ورباه خفية على هذا الحساب ، وأظهر نحوه المودة ،

وعمد إلى الفتى فأوغر صدره ، وأزكى فيه شهوة الانتقام ،

وابتغى إلى المدينة ليقتل أباه في شخص من يتوهم أنه عمه .

وإذ يفتضح غرم الفتى ، يقسو الملك في عقاب القاتل ، وإها أنه يقتل ابن أخيه .

ويعلم بعد الأوان أمر الذى قضى أمام ناظره المنتشى ،

فيفكر هادئا في فعلة فظيعة ليبرد النار التى تأكل صدره ؛

ويصطنع رباطة الجأش ، ولا يبدى مبالاة .

ويذهب يسالم الأخ ويستدرجه ، ويستقدمه ومعه أبناءه .
ويخطف الصغيرين ويذبحهما ، ويقدمهما إلى الأب أول ما يقدم
طعاما مغوفا مفزعا .

ويشبع تيبست من لحمه ، ويتولاه شئ من الانقباض
ويخطر الصغيران إذ ذاك بباله ، ويخيل إليه أنهما يجريان ،
وأنه يسمع صوتهما على باب القاعة .
عندئذ يقذفه أترىوس برأسى غلاميه ،
ويرميه بأرجلهما متشفيا فيه —

إنك تشيح بوجهك أيها الملك مقشعراً .
كذا أشاحت الشمس بوجهها ،
وحولت مركتها عن طريقها الأبدى .
أولئك أجداد كاهنتك أيها الملك .
إن كثيرا من شؤم طالع الناس ،
وكثيرا مما يقترف الذهن الخبول ،
يُرْخى عليه الليل سدوله الصفيقة ،
فلا تأخذ أعيننا منه سوى غش مخيف .

أسدلى على هذا أيضا ستار الصمت ، فحسبى رعبا .
تري أية أعجوبة نسلتك من هذا البيت المتوحش !
كان أبى أجامنون أكبر أولاد أترىوس ،

طواس

إيفيجنيا

غير أنى ، والحق أقول ، أراه منذ وعيت مثال الرجل الكامل .
وقد رزقته كليتمنستره بى أول ثمرة للحب ، ثم رزقته إلكتره .
وساد الهدوء حكم الملك فأصاب طانتال الراحة التى جفته من قديم .
ولم ينقص هناء الوالدين إلا الغلام .

وإن هذه الرغبة لتجانب ، وينمو أوريس الحبيب بين الأختين
إذ بهذا البيت الآمن يهيا له شر جديد .

لقد بلغتكم صيحة الحرب التي ألبت قوى أمراء اليونان
من حول أسوار طروادة ، طلباً للثأر من خطف أجمل النساء .
ولا أعلم أسقطت المدينة في أيديهم وأخذوا بثأرهم ،
فقد كان أبي يقود جند اليونان .
وقد لبثوا في أوليس (*) يترقبون الريح المؤاتية .
لكنهم عبثاً كانوا يترقبون .

كانت ديانا حانقة على قائدهم فاعتاقت العجولين ،
وطالبت على لسان كالكاس الكاهن بكبرى بنات الملك ؛
فاستدريجوني وأمى إلى المعسكر ، وانتزعوني منها إلى الهيكل ،
ووهبوا للإلهة هذا الرأس — فرضيت ديانا .
ولم تك تطلب دمي ، فدرجتني في سحابة وأنجتنى .
وفي هذا المعبد أدركت أنى نجوت من الموت أول ما أقفت .
فأنا إيفيجنيا بعينها ، حفيدة آتريوس وابنة أجاممنون ،
من تملكها الإلهة ومن تكلمك .

طواس ابنة الملك عندي والمجهولة الاسم سواء في الإيثار والثقة ،
فلن تفوز منهما تلك بأكثر من هذه .
فإليك ما طلبت بادئ الأمر أعيده على مسمعك .
تعالى اتبعينى ، وقاسمينى ما أملك .

إيفيجنيا كيف يجوز لى أن أقدم على هذا الأمر ، أيها الملك !
أليس للإلهة التي أنقذتنى الحق دون سواها في حياتى المكسرة لها ؟
لقد اختارت لى ملجأى وحمتى ،
وهى هنا تدخرنى لأب اصطنعت عقابه بما فيه الكفاية ،

(*) مكان يقع في تاريخ الأقدمين في الأرض اليونانية المسماة بيثوتيا . وله مرفأ مشهور تذكر الأساطير
أن اليونانيين الزاحفين على طروادة احتشدوا فيه ، وقدم فيه قائدهم أجاممنون ابنته قريانا للآلهة أرتميس
أو ديانا استرضاءاً لها ، واسم أوليس الآن قرة بابا .

ولعلها تعدُّ له بذلك أهناً مسرات الحياة .

ولعل الرجعة السارة قريبة منى . ومن يدرى ،

لعلى لم أفطن لطريقها فقيدت نفسى هنا على غير مشيئتها .

لقد رجوتها أمانة إن كان قد قدر لى هنا البقاء .

أمارتك أنك ما تزالين هنا مقيمة ،

فلا تطلبى مهر بأكالدى تشدين جد متهبية .

عبثاً تبدئين وتعيدين متى كان الرفض ما تبغين .

فلن يسمع الآخر من كل هذا إلا « لا »

طواس

ليس البيان هو الذى يهر وحده ،

فقد كشفت لك عن صميم القلب .

ونفسك ألا تحدثك عن لهفتى وحنينى إلى أبى وأمى وأخوتى ،

وأن الخوف يتملك فى ذاك شعورى ؛

وأنه فى تلك الأبهاء التليدة التى يهمس الحداد أحياناً فيها باسمى ،

قد يضرقر الفرح بين أعمدتها الأكاليل ابتهاجاً بى ،

كما يبتهج بمولود جديد ؟

فهيلاً رددتني فى الفلك إلى أهلى تهينى وتجدد للجميع الحياة .

عودى إذن من حيث أتيت ، واستجيبى لداعى الفؤاد .

ودعى العقل لا تصغى إلى نهييه ، ولا تستمعى لما يوحى الرشاد .

كونى امرأة لا غير ، واستسلمى للبائع الذى يتملكك ،

ويدفعك تارة هنا وتارة هناك ، لا يصدقك كابح ولا زمام .

فالهوى إذا شب فى قلوب النساء ،

لم تصرفهن عن الخؤون رابطة مقدسة ،

فهو يغوين من أحضان أب أو بعل ،

دائم الود صادق الوفاء .

إيفيجنيا

طواس

- إيفيجنيا أذكر أيها الملك كلمتك النبيلة ؛ أفهذا ردك على ثقتي بك ؟
لقد خلقتك مستعدا لسماع كل شيء .
- طواس لم أك مستعدا لما لم أرجه ،
ولو أنه كان ينبغي أن أتوقعه .
- إيفيجنيا أو لم أك أعلم أنى مقدم على مساومة امرأة !
لا تدم أيها الملك جنسنا المسكين .
- إن سلاحنا غير مجيد كسلاحكم ، لكنه ليس بالسلاح الذميم .
ثق بأنى أدرك هناك أكثر مما تدركه ،
وأنى فى هذا المقدمة عليك .
- تحسب رابطة دانية تجعل السعادة فى اتحادنا ،
والسعادة خافية عنى وعنك ؛
وتحتنى على الرضا والتسليم تحدوك الشجاعة وحسن القصد .
- طواس فالحمد للآلهة أن وهبتنى الثبات ،
فلم أرض بهذا الحلف الذى تأباه .
ليس الإله هو الذى ينطق فىك ،
بل قلبك هو الذى يحتاج .
- إيفيجنيا الآلهة تخاطبنا عن طريق قلوبنا .
- طواس ألا يحق لى أيضا أن أسمعها ؟
- إيفيجنيا العاصفة تطغى على الصوت العذب .
- طواس فلا يسمعه سوى الكاهنة ! ؟
- إيفيجنيا فليتبينه الأمير قبل الجميع !
- طواس وظيفتك المقدسة وحقك الموروث فى صحة جوبتير ،
يدنيانك من الآلهة أكثر من هذا الوحش ،
المولود على هذه الأرض ،

إيفيچنيا
طواس

هكذا كفر عن الثقة التي انتزعت قسرا .

إني بشر بخير أن نحسم الأمر .

ليكن إذن ما وعدتك به ،

كوني الكاهنة التي اختارتك الإلهة .

ولتغفر لي ديانا ما حبست من ضحاياها السابقة ظلما ،

فاستهدفت من جرائمها لتأنيب الضمير .

ما كان يقرب ساحلنا غريب إلا مسه الضر ،

فموته هنا محقق من قديم .

لكنك أسرّتي برقة أرى فيها تارة عذوبة الحب البنوى ،

وأخرى ميل العروس الدفين ،

فأرضى غاية الرضى .

أجل ، لقد كبلتني بمثل قيود السحر فلتست واجبي ،

وخدرت حواسي ، فلم أشعر بتدمير شعبي .

والآن ترتفع صيحة الشعب فوق رأسي ،

ملقية عليه تبعة موت ولدى قبل الأوان ،

فلن أقف بعد الآن شعبا يلحف في طلب القربان .

لم أرغب يوما في شيء من أجل نفسي .

ويخطئ فهم الآلهة من يتوهمها تتعطش إلى الدماء ،

أو يخالها على غرارها قاسية الرغبات ،

ألم تنتزعي الإلهة بيدها من يد الكاهن ؟

لقد كانت أحفل بخدمتي منها بموتي .

العادة المقدسة لا تفسر كما نشتهي ،

ولا يخرج فيها بما يمليه العقل غير الرصين ،

فافعل واجبك وسأؤدى واجبي .

إن في قبضتي غربيين لا يجلبان الخير لبلادي ،

إيفيچنيا

طواس

قد ضبطا متواريين في مغاور الساحل .
فليكن فيهما الضحية الحققة والقربان الأول لإلهتك ،
بعد إذ طال عليها احتباس القربان .
سأبعث بهما إليك .
وأنت تعلمين ما عليك أن تصنعى .

المنظر الرابع

إيفيجنيا (وحدها) عندك أيتها المنقذة الرحيمة سحاب ،
تطوين فيه المضطهدة البريئة ،
وتبعثينها مع الريح إلى مصيرها القاسى .
تحمليها من بين الأحضان فوق البحر والبر الفسيح ،
إلى حيث يروقك أن تحملى .
حكيمه أنت علامة الغيب ،
ليس ما فات عندك بالمنتهى .
ترعى عينك ذويك ، ويشع على الأرض نورك ،
باعث الحياة فى خوف الليل .
صونى يدي أن يلطخها الدم ،
فما جلب الدم خيراً أو راحة قط .
فقتيل الصدفة يترصد طيفه للقاتل المكروه الحزين ،
ويفرغه ساعات جد منحوسات .
الآلهة تحب للإنسان ذرية صالحة ،
وتمد لهذا الفانى فى جبل الحياة الخاطفه ،
وتهبى له التأمل فى سمائها الأبدية ،
وتمتعه لحظة بالمشهد البهيج .

الفصل الثمانى

المنظر الأول

أوريست . بيلادس

أوريست

إنها لطريق الموت تلك التى نسلكتها ،
فكل خطوة فيها تذهب بالروح .
عندما ضرعت إلى أبولون أن يصرف عني
سوء الحاشية الكريهة من زبانية الانتقام ،
خيّل إلى من كلماته الإلهية الأكيدة ، التى تحيى الرجاء ،
إنه يعدنى العون والنجاة ،
فى معبد أخته الحبيبة . فى طوريس ، حيث لها السلطان .
فالآن يصدق وعده ،
فتكون نهاية الضيق كله بانتهاء الحياة .
ما أيسر ما أحرم نور الشمس الجميل ،
أنا الذى ترهق يد الآلهة صدره وتخدر حواسه ،
وقد قدر لأحفاد أتريوس أن لا تكون خاتمهم فى المعارك ،
وأن لا تكون هذه الخاتمة مكلفة بالفخار .
فهل قدر لى ، مثل الذى قدر لأجدادى وأبى من قبلى ،
فأدمى كدابة الضحية فى ميتة أسيفة ؟
لتكن مشيئة الآلهة ، فلخير لى أن أموت هنا أمام الهيكل ،
ولا أموت فى ركن موبوء ،
يرمى فيه شباك الغدر قاتل مغتال من أهلى الأدينين .
فدعبنى فى سلام إلى أن أقضى أيتها الجن !

يا من تتأثرين خطاي كالكلاب الطليقة ،
تتشبه دمي الذي يقطر من قدمي ويخضب طريق .
دعيني ، فعما قريب أهبط إلى حضيتك .
فضوء النهار لا ينبغي أن يراكن أو يراني ؛
و بساط الأرض السندسى الجميل حاشاه أن يكون ملعبا ،
تمجن فيه الغيلان .
هناك في مقامك الأسفل أطلبك ،
وهناك يجمعنا مصير واحد في ليل أبدى بهيم .
أما أنت يا بيلادس فشدما أكره أن أصطحبك قبل الأوان ،
إلى هذه الأرض ، أرض الأحزان .
وشدما آسف أن يكون رفيقي البرئ ،
شريكي في ذنبي وفي منغاي .
إن حياتك وحدها تبعث في الرجاء .
وموتك وحده يحرك في نفسى الملح .
لست بعد مثلك يا أوريست مستعدا للهبوط إلى تلك الحظيرة ،
حظيرة الأشباح ؛
فلا زلت أفكر في الخروج إلى نعيم الحياة ،
من هذه المآزق الملتوية المفضية فيما يلوح إلى الليل الحالك ،
وما زال فكري يتجه إلى غير المنون .
إني أفكر وأصغى لعل الآلهة تلهمني الرشاد ،
وتسلك بي الطريق إلى مهرب موموق .
أما الموت فسيان خشيته أو لم أخشه ، فهو لا ريب آت .
لكنه لن يكون تفكيري إلا في نجاتك ونجاتي .
حتى حين ترفع الكاهنة يدها لجز خصلنا ، وصوتها بالترتيل ،
فلا تجعل لليأس سلطانا على نفسك ،

فالشك حرى أن يتعجل الأخطار .

وقد وعدنا أبو لولون أن نلقى في قدس الأخت عزاءً وعونا ورجعة .

وكلام الآلهة لا يحتمل التأويل ، الذى يتصوره المكروب في ساعة الضيق .

أوريست

لقد طرحت أمى على رأسى غطاء الحياة القاتم ،

فشبت مثالا من أبى ترميها نظرتى الخرساء بالوم المير ،

وتقابل إعزازها بغير الأعزاز .

كم ارتميت مكروبا على صدر أختى الكثرة ،

وهى تستدفى هادئة في البهو الرحيب .

وكم رعتها محمقا وهى تبكى بكاء مرا ،

فاذا كففت الدمع جعلت تتحدث عن أينا العظيم حديثا مسهبا .

كم توسلت أن أراه وأن أصحبه ،

ورجوت أن أقصد إلى طرواده معه أو يعود عما قريب .

ثم جاء اليوم —

بيلاوس

دع زبانية الجحيم تسمر بالليل في شأن تلك الساعة ،

ولتهبنا نحن ذكرى الأيام الهنيئة قوة جديدة لشوط جديد .

فالآلهة تطلب لخدمتها على هذه الأرض الواسعة خيارا عديدين ،

وما زلت أنت في حسابها ،

إذ لم تبعثك برفقة أيبك إلى أوركوس ،

وهو ذاهب إليها كرها .

أوريست

ليتنى تعلقت بأذياله وتبعته .

بيلاوس

لكن الذين استبقوك كانوا يعنون بأمرى ،

فما كنت عسيرا أن أكون لو لم تكن حيًّا ؟

لا أدرى . فقد عشت منذ طفولتى لك ولأجلك ،

ولا ينبغي أن أعيش لغير ذاك .

أوريست

لا تثر ذكرى الأيام السعيدة حين كان بيتك يكرم مشاوى ،

وأبوك الكريم يرعى بالحكمة والحب تلك الزهرة الصغيرة الذابلة .
حين كنت لى ذلك الرفيق الطروب تحوم كل يوم حولى ،
وتفرق فوق الزهرة القائمة كالفرش البهيج اللطيف ،
تجدد فى الحياة ؛

تنفخ فى روحى من مراحك ، فتسبى الضيق ،
وتطلق العنان للأمانى فى فورة الشباب .

بيلا دس بدأت حياتى يوم أحببتك .

أورى ست بل قل ، تصدق ، بدأ كركبك .

إن ما يزعمنى من مصيرى أنى كالطريد الموبوء ،
ييطن صدرى الموت ويكن الألم ،
وأنى حين أحل بالمكان السليم ،

لا تلبث الوجوه النضرة أن يعلوها الألم من موت بطيء .
كنت حريا أن أليك فى هذه الميتة ،

بيلا دس

لو أن أنفاسك يا أورى ست تنفث السم .

لكنتى ألت على الدوام المرح الشجاع ؟

وللمرح والحب جناحان لللائل الأعمال .

أورى ست جلائل الأعمال ! أجل ، أذكر يوم كانت نصيب أعيننا ،

حين كنا نهم معا ، نعدو فى الجبل وراء الصيد ،
ونقطع فى أثره الوديان ؛

وإذ نحن فيما ولى من الزمان لنا صدر جدنا العظيم وقبضته الباطشة ،

نحمل الهراوة والسيف فى طلب الوحش ،

ونجد فى أثر اللص نبغى اقتناصه ؛

فإذا ما أقبل الليل هداًنا على ساحل البحر العريض ،

وجلسنا متساندين والموج يبلغ بعثه الأقدام ،

تترأى أمامنا الدنيا الفسيحة ،

ويتلمس أحيانا أحدنا سيفه ،

ويطالعنا المستقبل من جوف الليل ،

بأعمال كالنجوم زاخرة حولنا .

العمل الذى تحفرنا النفس إليه لا آخر له ،

نروم أن نؤديه بالقدر الذى ينمو به ويتعظم ،

وتدرجه أفواه الشعراء على كر الأيام عبر البلدان جيلا بعد جيل .

إن ما أدى الآباء ذو وقع جميل ،

حين يستعذبه الفتى فى نغم القيثارة ،

وهو يستجم مساءً فى الظل الساجى .

وما نعمله نحن هو ما عملوه : عمل مضمن قليل الجدا .

نعدو هكذا فى أثر ما يفر ، ولا نلتفت إلى مواطئ الأقدام ،

نكاد لا نلمح إلى جانب خطانا خطى أجدادنا ،

ولا نستبين آثار حياتهم على هذه الأرض .

تتعقب أبدا ظلمهم الذى يتوج كالآلهة قنن الجبال ،

ويستوى فوق السحاب الذهبى فى الأفق البعيد .

لا وزن عندى للذى يفكر فى نفسه ،

وفى كيف يريد أن يرفعه الشعب .

فلتحمد الآلهة أيها الفتى ،

أن أدت على يدك الكثير بهذا التبكير .

إذا حبت الآلهة الإنسان بمسرة ،

كأن يدفع عن ذويه شرا أو يوسع حقا ،

أو يؤمن حدودا ، أو يهزم أعداء قدامى ،

يتعلقون بأذيال الفرار ،

فالشكر واجب عندئذ للإله ،

بيلا دس

أوريست

ذلك بأنه حباه فى الحياة بغبطتها الأولى والأخيرة .

أما أنا فقد اتخذتنى الآلهة قصابا ،

واختارتنى قاتلا للآم التى يخفض لها الجناح ،

فقضت على بإشارتها ،

وانتقمت للعمل الشائن انتقاما شائنا .

ثق بأن قضاءهم نزل بيت طانتالوس ،

وأنا آخرهم فلن أقضى بلا وزر ، ولن أذهب موفور الكرامة .

ليس من الابن تنتقم الآلهة على ما اقترف الآباء ،

فكل ، صالحا كان أو طالحا ، يلقي على ما قدمت يداه الجزاء .

فإذا كان ثمت ما يورث فبركة الوالدين ،

ولن يرث اللعنة الأبناء .

ما أحسب بركتهم تدفع بنا إلى هذا المكان .

إنها على الأقل مشيئة الآلهة الأعلى .

إذن هى مشيئتهم التى تدفع بنا إلى الدمار .

اصدع بما تأمرك به الآلهة ثم انتظر .

فإذا جئت أبوللون بأخته وأقاما معا فى دلفى * ،

موضع التبجيل من شعب نبيل ،

فسوف يغفر لك الإلهان العظيمان ما اقترفت ،

جزاء ما قدمت .

وسوف ينقذانك من أيدي الجن ، بنات الجحيم ،

اللواتى يتهيبن الدنو من هذه الغابة المقدسة .

بذا سوف ألقى على الأقل حتفاً هادئاً ،

بل الأمر فيما أرى على النقيض ،

بيلاوس

أوريست

بيلاوس

أوريست

بيلاوس

أوريست

بيلاوس

(*) مدينة عظمها اليونانيون القدماء لاحتوائها معبد أبوللون ، ولما نزل فى هذا المعبد من الوحي الإلهى . وقد كان لكهنته نفوذ كبير فى الأمور الدينية والسياسية والأدبية ، وكانت حكمتهم موضع تقدير الكبار .

وما كنت أخرق حين ربطت الماضى بالمستقبل ،
ولا حين فسرت الأمر فى سكون .

ومن يدرى فلفل العمل العظيم قد نضج فى رأى الآلهة ،
من أمد طويل .

إن ديانا ترهد فى هذا الساحل القاسى — ساحل الهمج ،
وفى ضحاياها البشرية الدامية .

وقد قدر أن يتم العمل الجميل على أيدينا ،
وبات فرضاً علينا واجب الأداء .

وها نحن من عجب أولاء على الأبواب مسوقون .

ما أقدر افتنانك حين تجمع بحكمتك ،
بين مشيئة الآلهة وأمانيتك .

وما حكمة الإنسان إذا هى لم تصغ ،
إلى مشيئة أولئك الذين فى الأعلى ؟

إن الآلهة تختار للعمل الجسيم رجلاً نبيلًا كثير الخطايا ،
وتعهد إليه فى تأديته ، وإن بدا لنا محال الأداء .

والنصر للبطل ، فهو يخدم الآلهة بتكفيره ،
ويخدم العالم حاييه بالتكريم .

أقدر لى أن أعيش وأن أعمل ؟

لتذهب الآلهة إذن بذلك الزيف عن جيبينى المثلث ،
فإنه ليجذبنى إلى الموتى ،

فى طريق لزجة بدم الأم .

لنغض برحمتها تلك العين التى تملطخنى إلى الأبد ،

بما ينبجس من جراحها فى وجهى .

ثق بأن هذا سيكون فهدى روعك ،

ولا تجعل للجن عليك سلطانا فيستفحل الشر .

أوريست

بيلاوس

أوريست

بيلاوس

دعنى أفكر وحدى ، والتزم أنت الهدوء ،
وإذا اقتضى العمل آخر الأمر توحيد الجهود ،
ناديتك ، فخطونا معا لنحقق الغايات فى جرأة وثبات .

أوريست
بيلاوس

اسمع أوديسيوس* يتكلم !
لا تسخر ! فلكل امرئ ما اختار من بطل ،
يترسم خطاه إلى أولب .
وإنى أصدقك أن المكر والحجى لا يشينان الرجل ،
وقد وهب نفسه للجري من الأمر .

أوريست
بيلاوس

إنى لأقدر الرجل الشجاع يتدرع بالاستقامة ،
ومن ثم لم أسألك رأيا .
لقد خطونا بالفعل خطوة ،
واستخلصت من حرسنا الكثير إلى الآن .
فهنا لك امرأة تشبه الآلهة ، ليست من أهل هذه الديار ؛
أنها تعطل الشريعة الدموية ،
فقربانها للآلهة فؤاد طاهر ، وبحور وصلابة ،
إنهم يمجدون هذه الطيبة ،
ويظنون أنها أمازونة ،

أوريست

فرت إلى هنا من مصاب جسيم .
يخيل إلى أن مملكتها الرائعة ،
قد فقدت همتها من جوار أثيم ،
تطارده اللعنة كالليل العريض ،
وترخى عليه سدول الخفاء .

(*) بطل يو . نلده هومر فى أوديسيته ومجده . تظاهر بالجنون تهربا من الاشتراك فى الحملة على طروادة لكنه حمل على الأعداء فيها بعد أن تبين خدعته فامتاز فى حرب طروادة بالحكمة وسعة الحيلة والمكر كما امتاز بالشجاعة والإقدام ، فلما مات أخيل كانت أسلحته من نصيبه ، وبات أكبر رأس فى معسكر اليونان ، وقد كان من بين من اختبأوا فى بطن الحصان الحشى ، ودخلوا طروادة بهذه الوسيلة .

ان تعطش الدين إلى الدم ، يُطلق السنة القديمة من عقابها ،
لتلحق بنا الدمار ؟

ووحشية الملك ستردينا ، فلن تنجينا منه امرأة إذا غضب .
ليهنا أنها امرأة ؛

بيلاوس

فالرجل يعود القسوة ولو كان من خيار الناس ؛
يشترع القانون آخر الأمر مما كان يستنكره ،
وتتزع العادة الرحمة من قلبه ،
وتكاد تبدله ذاتا غير ذاته .

أما المرأة فوحدها التي تثبت على فكرة تستسيغها
وترتقب منها الخير قبل الشر —

صه ! إنها قادمة ؛ فدعنا وحدنا !

لن أذكر لها أسماءنا في الحال ،

ولن أطلعها على أمرنا في غير ما حذر .

فأذهب أنت ، وسألحق بك قبل أن تكلمك .

المنظر التالي

إيفيجنيا . بيلاوس

من أين أنت أيها الغريب ، ومن أين مقدمك ؟ تكلم !
يلوح لي أنك إلى اليونان أقرب منك إلى السيت (تفك قيوده) ،
خطرة هذه الحرية التي أمنحها !
فلتدفع الآلهة ما يهددكم .

إيفيجنيا

أيها الصوت العذب والنعمة المشتهاة من لغتنا في البلد الغريب .
مرحبا بالجبال الزرق في مرفأ الآباء تتبدى للأسير من جديد

بيلاوس

لتكن هذه الغبطة توكيداً لك بأنى أنا أيضاً من الإغريق .

لقد نسيت لحظة شدة حاجتى إليك ،

فاتجهت روحى إلى مظهرك الرفيع .

فمن أى السلالات أصلك الإلهى ؟ قولى بربك !

أو يكون القضاء يطبق شفيتك !

الكاهنة التى اختارتها الإلهة نفسها وقدرتها هى من تكلمك ،

فليكفك هذا وقل لى من أنت ،

وأى قضاء مبهم مشئوم طوح بك وبفريقك إلى هذا المكان ؟

هين على أن أحدثك عن سوء الذى يسوقنا وننوء بصحبته ،

فهل يسير كذلك أن تحيينا آيتها المقدسة بنظرة الأمل السارة ؟

إننا من كريت من أبناء أدراست ،

وأنا الأصغر وأدعى سيفالوس .

أما الآخر فرشيد البيت ويدعى لووداماس ،

توسطنا أخ فظ غليظ القلب فمزق وحدة الصبا ،

وكدر صفاء حداثتنا الأولى .

وأطعنا نحن كلمات الأم ، إذ أبونا يحارب طروادة .

وإنه ليعود مثقلاً بالغنائم إذ به يقضى نحبه بعد العودة بقليل ،

فشجر الخلاف بين الأخوة على الملك وتنازعوا الميراث ،

فانحزرت أنا إلى جانب الأكبر ، وقتل الأكبر أخاه .

وطاردته الجان فى كل مكان ، لما يحمل من تبعة الدم المسفوك .

وبعثنا أبولون الدلفى إلى هذا الساحل الموحش ،

يعمر صدرينا بالرجاء .

وطلب إلينا أن نتظر يد العون فى معبد أخته تقعمها البركات .

وقد سيق كلانا أسرى إلى هنا ،

وقدمنا كما تعلمين إليك قرايين .

ايفيجينيا

بيلاوس

إيفيجنيا أسقطت طرودة؟ أ كد لي ذلك أيها الرجل !

بيلاوس إنها طريحة فأكدى لنا النجاة .

عجلى بالعون الذى وعد إله ، وارحمى أخى !

قولى له كلمة طيبة وترفقى به حين تكلمينه ،

فأنى لهذا شديد الرجاء .

فسهل أن يستخفه الطرب ، ويتملكه الألم ،

وتستغزه الذكرى فيتحطم .

إن خبلا ينتابه فيهره بحرانه ،

وتتهب الجن نفسه الحرة الجميلة .

إيفيجنيا إن خطبك مهما يكن عظيما فأنى أناشدك أن تنساه ،

حتى ترضينى .

بيلاوس إن المدينة الشاخنة التى قاومت عشر سنوات طوال ، كافة جيوش اليونان

مدكوكة اليوم فلن تقوم لها قائمة .

لكن قبورا للأكرمين منا تبعثنا على التفكير فى ساحل الهمج ،

فأخيل راقد هناك مع صديقه الجميل ،

إيفيجنيا وأتم يا أشباه الآلهة ما لكم أيضا إلى التراب !

بيلاوس و بلاميدس أيضا وأياس بن تيلامون ،

لم يشهدا من يومئذ نهار الوطن .

إيفيجنيا (لنفسها) إنه صامت عن أبى لا يذكره بين الأموات .

إنه ما يزال على قيد الحياة ، وسوف أراه .

ليفعمك الأمل أيها القلب العزيز .

بيلاوس مرحومون أولئك الألوف الذين استعذبوا الموت ،

مريرا من أيدي الأعداء .

فقد نكب العائدين إله ساخط ،

فأبدلهم المخاوف بدل الظفر ،

ورماهم بالفزع وسوء الختام .
أو لم يبلغكم ما قال الناس ؟
إنه يحمل أتى وصل ، صرخة ما اقترَف من منكرات .
إذن أنت تجهلين الخطب الذى نزل بقاعات ميسين ،
وأرسل فيها التهديدات تلو التهديدات ؟
احتبلت كليتمنستره زوجها فى يوم رجعته ،
وقتلته بمعونة إيجست —

أراك تجهلين هذا البيت المكي !
وأشعر بقلبك يدافع عبثا كلمتى الهائلة ،
وقد جاءت مفاجئة .

أكريمة صديق أنت ؟ أولدت قريبا من المدينة ؟
لا تكتمنى غنى خبرك ، ولا تأخذينى
بأنى كنت أول من حمل إليك نبأ هذه الفضيعة .

خبرنى كيف تمت تلك الشنيعة النكراء !
فى يوم أوبة الملك ، وهو صاعد من الحمام ،
منتعش الروح ، راضى النفس ،
طاب من زوجه أن تناوله الرداء ،
فألقت عليه هذه المهلكة ، نسيجا مشوشا كثير التثنى ،
وطرحته عمدا فوق كتفيه ، وقنصت به رأسه الكريم ،
وإذ هو عبثا يجاهد ليفلت ،

كما لو كان يتخلص من شرك ،
عاجلته ضربة الخائن إيجست ،
فانتقل مسجى إلى عالم الأموات ،
وفاضت فى الشرك روح ملك عظيم .
وأى جزاء لقي المتواطى ؟

إيفيچنيا
بيلا دس

إيفيچنيا

بيلا دس ملكا وفراشا ملكه من قبل
إيفيجنيا بذا دفعت إلى المنكر متعة منكره !
بيلا دس وأسى عميق من ثار قديم .
إيفيجنيا وكيف أساء الملك إليها ؟
بيلا دس بعمل يعذرهما جد جسيم ،
إذا كان عذر هناك من القتل .
عندما اعترض الإغريق في السفر إلهة
وسلّطت عليهم رياحا هائلة ،
استدرج الملك زوجته إلى أوليس (١)
واستقدم إيفيجنيا كبرى بناته إلى مذبح الإلهة ديانا ،
فسقطت ضحية لخير اليونان .
يقولون إن هذا أوغر صدرها ،
فأسلمت نفسها إلى خطب يحسّت ،
ورمت القرين بشباك الهلاك .
إيفيجنيا (مخفية وجهها) كفى ! وإلى اللقاء !
بيلا دس (وحده) يلوح لى أن مصير البيت المالك ،
قد أثر في نفسها أبلغ تأثير .
وكائنة من كانت فهي بلا ريب تعرف الملك كلى المعرفة .
ولعلها بيعت إلى هذه البلاد من بيت عظيم ، لسعد جدنا .
فهذه روعك أيها القلب العزيز وروح عنك ،
ولنجذب إلينا الأمل في حكمة ،
فها هو ذا نجمه يأتلق ،
وليفعمك لقاءه الشجاعة والفرح .

(١) مكان في الأرض اليونانية المسماة بيثوتيا ذات المرفأ المشهور الذى تحدثنا الأساطير باحتفاد اليونانيين غزاة طروادة عنده تحت إمرة أجاممنون الذى قدم ابنته إيفيجنيا عندئذ قرباناً . وتسمى أوليس الآن قره بابا .

الفصل الثالث

المنظر الأول

إيفيجنيا . أوريس

إيفيجنيا

أيها المنكود الحظ ! إني أحل وثاقلك لمصير أنكد من مصيرك .
فالحرية التي يمنحها قدس الإلهة ،
كاللحظة الرائعة الأخيرة في حياة المريض العديم الرجاء ،
تحمّل الموت .

لكني لا أملك أن أقول ولا ينبغي أن أقول بعد ، إنكما من الهالكين .
وكيف أستطيع أن أقربكما للموت إنما وغيلة ؟
وما ينبغي لأحد ، كائنًا من كان ، أن يمسك بسوء ،
ما دمت هنا كاهنة لديانا .

لكن الملك الحائق يقتضيني هذا الفرض ؛
وهو سيختار عذراء من بناتي لأدائه غنى ،
إن أنا أبيت عليه .

عندئذ لن تغنى في إسعافك سوى الأمانى الحارة أيها المواطن العزيز

إن أخط الخدم إذا مرَّ بمنازل آبائنا الآلهة ،
حق له علينا الترحيب في البلد الغريب .
فكيف بك يا من تحملان صورة الأبطال
الذين علمنى والداى تبجيلهم ،
فبت أبجلهم من ذلك الحين .
فيا من تشلجان صدرى بالأمل الجديد الجميل ،

كيف أفيكما من الغبطة والبركة حق الترحيب .

أوريست

أتكتمين اسمك وأصلك عن قصد حكيم ؟

أم لى أن أعرف من التى تلقانى كملائكة السماء ؟

إفيجنيا

لا بد لك من معرفتى ؛ لكن خبرنى الآن بما سمعت نصفه من أخيك .

كيف كانت خاتمة الذين عادوا من طروادة ،

فتلقاهم على عتبة الدار قضاء قاس لم يكن فى الحسبان .

حقا إنى جىء بى إلى هذا الساحل صغيرة ،

لكنى ما زلت أذكر نظرة الحياء التى أرسلتها إلى هؤلاء الأبطال ،

ترجيها الدهشة وينتابها القلق .

لقد خرجوا كما لو كان أولمب انشق ،

فتهاوت أشباح السلف العظيم ترعب من أليون (*) الجنان ،

كان أجا ممنون جليلا فى مقدمة الجميع قفل لى ،

أسقط وهو يدخل بيته من يد زوجه واجحست غيلة وغدراً ؟

لقد ذكرت الخبر اليقين .

أوريست

غفاء عليك يا ميسن المنكوب !

إفيجنيا

لقد نثر أحفاد طانتالوس اللعنة فوق اللعنة

بأيدي مليئة طائشة ،

وخلفوا لأولاد أولادهم قتلة من ذوى الأرحام

يتوارثون الغل إلى الأبد .

فهم كالنجيل يهز الرؤوس الهائجة ،

وينثر من حوله بذور البغضاء طبقات .

أفصح عما عجل الرعب بإخفائه عنى من حديث أخيك .

ماذا أصاب آخر أبناء ذلك البيت العظيم ؟

كيف نجا الطفل الظريف أوريست من دم ذلك اليوم ،

(١) أليون أو اليوس اسم لطروادة .

وقد فرض عليه أن يثأر له ؟
أرماء مصير كمصير أبيه بشباك أفرينوس ^(١) أم نجا ؟
أيعيش وتعيش ألكتره ؟

أوريست يعيشان .

إيفيجنيا أيتها الشمس الذهبية ! أعيرني أروع أشعتك !
واطرحيها شكراً أمام عرش جوفى ^(٢)
فإني عاجزة بكاء .

أوريست أضيعة كنت لهذا البيت الملكي ؟
أتربطك به أواصر وثيقة ينم عنها اغتباطك الجميل .
إذن فأر بطنى جأشك وامنعى القلب أن يثب .
فكل ردة إلى الألم بعد غبطة غامرة ،
صدمة قاهرة ، وعبء لا يطاق .
إنك لا تعلمين فيما أرى سوى أن أجا ممنون قد مات .
إيفيجنيا أليس فيه الكفاية ؟

أوريست سمعت نصف القطيعة .

إيفيجنيا وماذا أخشى بعد ؟ أوريست وألكتره يعيشان .

أوريست أولاً تخشين على كليتمنسترة شيئاً ؟

إيفيجنيا ليس ينبغيها رجاء أو خوف .

أوريست هى أيضاً قد قصت عن أرض الرجاء .

إيفيجنيا أهاجها الندم فقتلت نفسها ؟

أوريست بل لقيت من دمها حتفها .

إيفيجنيا أفصح ولا تحملنى على طول التفكير .

(١) بحيرة على مقربة من نابولي تنمو الكروم على ضفافها ، ولا يتفق مظهرها الراهن والصورة القائمة إلى صورها بها القدماء إذ تخيلوها محط الظلمة ومبعث أبخرة شيطانية تقتل ما يخلق فوقها من طير .
(٢) المشترى .

إن الغموض يضرب حول رأسى الخائف
بأجنحته المعتمة المتراكبة .

أوريست

هل اختارتني الآلهة إذن لأعلن صنيعا
ليس أحب إليّ من دفنه في مغاور الليل الأصم الصامت ؟
على الرغم مني ما يقتضيني فك الطاهر ،
فهو وحده الذي يجوز له طلب المؤلم وتلقّيه .
يوم سقط الأب أخفت ألكتره أخاها بغية إنقاذه ،
فكمله ستروفيوس هو أبيه على الرحب والسعة ،
ورباه إلى جانب ولده ييلادس .
فتوثقت بينه وبين الريب أجمل أواصر الوداد ،
وكلما نموا نمت في صدرها جذوة متقدة ،
وذكت في نفسيهما شهوة الانتقام للملك القليل .
وبلغا ميسن في زى الغرباء على حين غفلة ،
وكنّهما ينعيان أوريست ويحملان رفاقته .
فأكرمت الملكة وفادتهما ، وحلّا ضيفين .
وعرف أوريست ألكتره بنفسه .
فأذكت فيه نار الانتقام ، وكانت قد خبت ،
في حضرة أمه وقربها المقدس .
وقادته خفية إلى الموضع الذي راح أبوه فيه ضحية الغدر ،
وكانت أرضه ، وقد كثر ما غُسلت ،
ما تزال تصطبغ بخطوط باهتة ، تنطق بالآثر الخفيف القديم ،
لدم ساهمت الجرأة في سفكه .
وجعلت ألكتره بلسان من نار ،
تصف ظروف الفعلة الشنعاء ،
وتقص عليه نكدها وذللها وغطرسه الخائن الهانئ السعيد .

وأخذت تشير إلى الأخطار التي تحيق بأخوة
من أم هي زوج لغير أبيهم .

ثم دست في يده الخنجر العتيق ،
الذي طغى من قديم على بيت طانتالوس ،
وأشرب حده سموم البغضاء .

وكان ما كان ، فقضت كليتمسترة بيد الابن .

أيها الخالدون الذين تحيون نهاركم الصافي ،
فوق الجهام المتجدد تحدوكم الرحمة ،

أعز لتوفى عن الناس هذه الأعوام ،

وادخرتموفى لعمل من أعمال الأطفال ،

لأقوم على إذكاء ناركم المقدسة ؛

واجتذبتهم روى المندلعة كالشعلة ،

إلى منازلكم الرفيعة العلية ،

في صفاء التقى ونقاء الخلود ،

ليكون شعورى بشنائع بيتى ،

أعق في الأجل وأبعد غوراً ؟

حدثنى عن المنكود الحظ ، كلمنى عن أوريست !

ليت المرء يستطيع الكلام عن حتفه !

فما أشد جيشان روح الأم ،

وهى تصعد من دم الذبيحة تدعو المعمرات من بنات الظلام ،

إلى الأخذ بتلايب قاتل أمه ،

وتهيب بهن : أن طاردن المجرم إنه لكن !

إنهن ينصتن ويُجلن النظر الأجوف فيما حولهن

نهمات كالنسر .

إنهن يتحركن في مغاورهن المعتمة ،

إيفيجنيا

أوريست

ويتسلل من زواياها زميلان لهن : الشك والندم ؛
يتقدمهن بخار متصاعد من أشيرون (*) .
إن التفكير الدائم في الإثم ، يتقلب من حول رأس الأثيم
غيوماً دوّارة تخبله ؛

وبنات الليل ، وحققن التدمير ،
يطأن الآن التربة الجميلة في أرض بذرتها الآلهة ،
ونفتن عنها من قديم لعنة قديمة .
إن أقدامهن الخثيثة تتأثر الهارب ،
وترميه من بعد إمهاله ، بالرعب من جديد .

إيفيجنيا أيها المنكوب ، إنك في مثل حاله ،
تحس ما يآله ذلك الشارد المسكين .

أوريست ماذا تقولين ؟ وحال من تعنين ؟
إيفيجنيا إنك تمضك قتلة الأخ كما تمض ذاك فملته ،
بهذا خبرني أخوك الأصغر .

أوريست لا أطيق أن تخدعي بالقول الباطل أيتها النفس الكبيرة ،
فشبكة الأكاذيب ينصبها الغريب لغرض ينتويه ،
أحبولة للغريب وفخا لقدميه ، لأن المكر من شيمته ،
أما بيننا فالصدق !
إني أوريست ! وهذا الرأس الآثم المطرق نحو الحفرة ،
يطلب الموت . فأيا كان مظهره فمرحبا به .

(*) نهر في ابيروس يخترق مجراه الأعلى أرضا جبلية وعرة موحشة ثم ينساب في هوة سحيقة مظلمة ضيقة طولها خمسة كيلومترات إلى سهل إيفرا حيث يتسرب في بحيرة مستنقعة . وقد تولدت عقيدة القدماء في الجحيم من هذه الهوة المظلمة الخفية التي ينساب فيها النهر ومن أبخرة البحيرة الفاسدة — وإلا فأن أشيرون في الأسطورة اليونانية هو نهر الجحيم الذي تتجاوز أرواح الموتى من دون رجعة . وأشيرون أيضا هو ابن هليوس وجيثا الذي تروى الأسطورة عنه أنه زود التيتان مهاجمي السماء بالماء ، فعاقبه زيوس بأن حوله نهرا موحلا مآله إلى الجحيم .

أما أنت فكائنة من كنتِ ، فإني أطلب لك ولصديق النجاة ،
ولا أطلبها لنفسى .

إنه ليلوح لى أنك هنا على الرغم منك ؛
فدبرا خطة للهرب ودعانى وحدى .

وليهر من الصخرة جسمى هامداً ،

وليجر إلى البحر دعى ساخنا ،

يستنزل اللعنة على ساحل الهمج .

إذهبا إلى الوطن ، إلى أرض اليونان الجميلة ،

وابدءا صديقين حياة جديدة (يتعد)

أهبطتِ علىّ إذن أيتها الحقيقة !

يا أجمل مولودة لأعظم أب ؛

ما أجسم ما يطالعنى من صورتك .

إن ناظرى يكاد لا يبلغ يديك الحافلتين بالثمار والبركة ،

مما نزلت من كنوز أولمب .

وكما يدل على الملك سخاؤه —

إذ ما يغنى الالوف فى نظره قليل ،

كذلك أنت أيتها الآلهة ،

تُعرفين بالمدخر من هباتك التى تعدينها فى حكمة وطول أناة .

تعلمين وحدك ما ينفعنا ،

وترين المستقبل فى أفقه العريض .

بينما تحجب عنا رؤيته

غشاوة المساء من نجوم وغيوم .

إنك تسمعين ضراعتنا صامته ،

ونلج فى استجابتها كالأطفال .

إيفيچنيا

لكن أيديك لا تقطف أبداً قبل الأوان ،

ما تؤقي السماء من ثمار كالنضار ،

فالويل لمن ينفد صبره معك ،

فإنه يذوق طعم المنون في المبتسر الفج .

لا تدعى الهناء الذي طال انتظاري إياه

يفوت وقد كدت أن لا أتوقعه ،

ويضاعف الألم ، كطيف الصديق .

أوريست (يقترب منها ثانية) إذا دعوت الآلهة لك وليلادس ،

فاغفليني ، فإنك لن تنقذي بصحبتك الجرم ،

بل تشاطرينه اللعنة والضيق .

إيفيچنيا إن مصيري رهن بمصيرك .

أوريست في غير ما شئ ! فدعيني أذهب إلى الموتي وحدي .

فالآثيم لا يفوت عين الساهرات ،

ولو تخفى من خلف قناعك .

إن وجودك أيتها العلية سينحيهن جانبا ،

لكنه لن يقصيهن .

وما ينبغي لمن دخول أرض الغابة المقدسة ،

ولا أن يطأنها بأقدامهن الجريئة القاسية .

إني أسمع من بعيد قهقهتهن البغيضة ،

وأراهن كالدثاب يتر بصن بي ،

كما تتر بص بعابر مسيل ، علا شجرة طلباً للنجاة .

إنهن يرابطن في خارج الغابة ،

يرتقبن خروجي من الحرج إليهن ،

فيصعدن يهززن رؤوس الشياطين ،

ويثرن الغبار في كل الجهات ،
ويطلبن الطريدة ليفترسها .
أفيك أوريست مطمع لكلمة طيبة ؟
أوريست أدخريها لصفي من أصفياء الآلهة .
إيفيجنيا الآلهة تضي لك سبيل الرجاء .
أوريست بل ما أستبين خلال الدخان ،
هو الضوء الباهت — ضوء نهر الأموات ،
يضي لي طريق الجحيم .
إيفيجنيا أليست لك أخت سوى ألكتره ؟
أوريست هذه هي الأخت التي عرقها .
أما الكبرى فأنجأها طالعها من شقاء بيتنا ،
وكنا نحسب حظها مرعبا .
ماشدتك الآلهة أن تمسكي عن سؤالي .
وتبتعدى عن الأرينات ^(١) .
إنهن يذرّن الرماد عن روعي ؛
إذ هن لا يُطقن أن تخبو في نفسى ،
الجمرات الاخيرة من نار الفرع ،
والرعب الذى دب إلى بيتنا .
أفتردين الجدوة مشبوبة أبداً ، مذكاة عمداً ،
يستبقى ضرامها كبريت الجحيم ،
لتعذب روعي وتحرق نفسى ؟
إيفيجنيا انى أهب اللهيب بخورا عطراً .
فدع نفح الحب الطاهر يلف بمرّه أوار صدرك !

(١) معناها باليونانية الحاقات وهى فى أساطير اليونان إلهات موكلات بالاقتراس من الآلهين أو بضواية الإنسان ودفعه إلى الطيش والسفه فلا يزلن بالآثم حتى يكفر عن خطاياهُ أو يفقدنه الرشد .

أوريست يا حبيبي مالك لا تسمع !
أجد الدم في عروقك من آلهة الفزع ؟
أشيع في أعضائك سحر ييبسها ،
كالسحر الذى يبعثه رأس جورجون^(١) الكريه ؛
إذا كان صوت الدم المسفوك من الأم ،
يدعوك إلى جهنم بوقعه الأصم ،
أفلا تدعو الأخت الطاهرة آلهة أولب بكلامها المبارك ؟
أوريست أسمع النداء ، أجل أسمع ، أفتردين إذن هلاكى ؟
أتتوارى فيك إلهة من آلهة الانتقام ؟
من أنت يا من يهز صوتها صمى ويحركه من الأعماق ؟
إيفيجنيا هى أنا يا أوريست !
هى التى تعلن نفسها إليك فى صميم الفؤاد .
انظر إلى إيفيجنيا ! فما زلت قيد الحياة .
أوريست أنت !
إيفيجنيا أخى !
أوريست حسبك ! إليك عنى ! حذار أن تلمس خصلى !
إن ناراً لا تحبوا كالتى يبعثها ثوب عرس كرويزا^(٢) تنبعث منى ؛
فدعبنى !
أريد الموت كما أراد هيرقل ، مفعماً بالخزى ،
حبيساً فى نفسى ،
أنا الرجل المهين .

(١) فى أساطير اليونان ثلاث بنات يسكن حافة الأرض الغربية لا يلقين نظرتهم المربعة على أحد إلا تحول إلى حجر . وقد أطلق عليهن كلمة جورجون ، لكن هو مر ذكر هذه الكلمة دلالة مرعبة على إله الجحيم .

(٢) إبنة ملك كورنثيا كانت مخطوبة لياسون فقتلها ميديا .

إيفيجنيا إنك لن تقضى . فخذوا لو صاغت أذنى كلمة منك هادئة !
 ألا ليتك تبدد شكوكى ، وتدعنى أوقن بالهناء الذى طالما تمنيت .
 إن دولاب السرور والهلم يدرج فى نفسى .
 إن رعدة تعرونى من الرجل الغريب فتصدنى عنه ،
 لكن فؤادى يجتذبنى إلى أخى .
 أوريست أهذا معبد ليوس^(١) ؟
 إيفيجنيا أتملك الكاهنة سورة مقدسة لا سبيل إلى كبخها ؟
 ألا ليتك تستمع لى وتنظر إلى .
 انظر كيف يتفتح قلبى بعد طول العهد ،
 فيهمو إلى تقبيل رأسك يا أحب ما ادخرته الدنيا لى ،
 وإلى ضحك بين ذراعى ، وقد كانت لا تمدان لغير الرياح الجوفاء .
 دعنى أفعّل . دعنى ! فما تفجرت العين الأبدية فى بارناس^(٢) .
 وفاضت من صخر إلى صخر ، منحدره إلى الوادى الذهبى ،
 بأصفى مما تنبجس الغبطة من صدرى ،
 وتقيض كالبحر الزاخر من حولى .
 أوريست ! أوريست ! أخى !
 أوريست أيتها الحورية الحسناء ! انى لا آمن لك ولا أطمئن إلى ملقك ؛
 إن ديانا تتطلب خادمات صارمات ،

(١) ليوس لقب بانكوس إله الخمر ومعناه باليونانية مفرج الهم وبانكوس أو ديوتيس هو كما تذكره الأساطير ابن زيوس من سيملا بنت الملك كادموس . كان يجوب البلدان بصحبة الجور ورققة آلهة الغاب ذوى الأرجل الماعزة ومعهم الرعيان والعبيد وعلى رأس بانكوس أكليل مجدول من ورق الغار والبلابل وفى يده صولجان التفت عليه عيدان الكروم يلوح به ويهلل ومن معه ويضجون ويمرحون ويصخبون ويوزع أينما سار بنت الحان ويحتفل به فى كل مكان . ومن هذه الجولات المصحوبة بالاحتفالات نشأ فن التمثيل عند اليونان .

(٢) بارناس اسم فى التاريخ القديم لجبال صوماليه Sumalia اليونانية وهى جبال قدسها أبوللون وقدستها عرائس الفن وكان ديونيس إله الخمر الذى سبق ذكره يعقد فوقها طقوسه أو بالجرى عربداته . أما العين المعنية بكلام الكاهنة فهى كاستال المنفجرة من هذه الجبال وتعزى إليها الأساطير أسمى الأفكار حتى ضرب المثل بيارناس فى سمو الفكر .

وتنثر لقدسها إذا دنس .

فابعدى ذراعك من صدرى .

وإذا شئت أن تنقذى فتى تحبين ،

وأن تهبيه الهناء الجميل بهذا الحنين ؛

فاتجهى بقلبك نحو صديق ، فهو أولى بالكرامة منى .

إنه هائم فوق هذه الطريق الصخرية فابحثى عنه ،

واهديه سواء السبيل ، واعفينى !

هدى روعك يا أخى ، وتبين من وجدت !

لا تصرف فرح الأخت السماوى الطاهر إلى نشوة أثيمة طائشة .

آيتها الآلهة اصرفى الزيف عن بصره الجامد ،

فلا تنقلب اللحظة المفعمة بالغبطة شقاء مضاعفا !

انظر إلى أنا أختك التى فقدت من قديم .

اختطقتى الإلهة من المذبح ، ومنحتنى فى قدسها النجاة .

أنت هنا أسير معروض للضحية ،

والكاهنة هنا هى أختك .

يا المنكودة ! فلتشهد الشمس إذن من فظائع بيتنا الختام .

أالكتره هنا أيضا لتشاطرنا مايحل بنا من وبال ؛

فلا تنظر إلى مصير أشأم وآلام جسام !

حسنا آيتها الكاهنة ! انى أتبعك إلى المذبح .

فقتل الأخ فى بيتنا القديم تقليد ،

شكراً للآلهة ان شاءت اجتثائى ولم أعقب ولدا .

أما أنت فنصيحتنى لك ألا يكون ميلك إلى الشمس شديداً ،

وآلا تتعلق كثيراً بالنجوم .

فهياً اتبعينى ، ولنهبط معا إلى عالم الظلام .

فالجنس المحنق يبطش بنفسه ،

إيفيچنيا

أوريست

كما تبطش التنانين بعضها ببعض ،
وهي منبعثة من عين الكبريت ،
وكما يقتل وحشها أخاه الوحش .
تعالى نهبط معا ، لا عقب تخلفين ولا وزر تحملين .
انك ترعينني بعين الإشفاق فخلي عنك !
فمثل هذه النظرات كانت رسول كليمتنسترة إلى قلب الإبن ،
لكن ذراعه المنقضة لم تخطيء صدرها فصرعت الأم .
أظهرى أيتها الروح المتأبية !
تقدمي أيتها الجن في حلقة موصدة ،
واشهدى الرواية المشتهاة !
فهي آخر ما أعدت أيديكن وأشدّه نكرا .
ليس البغض وشهوة الانتقام ما يرهف خنجرها ،
فالأخت الحبيبة مسوقة إلى الفعلة جد مرغمة .
كفكفى الدمع فلا جناح عليك ،
فما أحببت منذ سني الأولى شيئا ،
مثلما كنت حريا أن أحبك أختي .
طوحى 'فولاذك' ولا تبقى على !
مزق هذا الصدر وشقى الطريق لفيوضه الجياشة فيه (يسقط إعياء) .
لا قبل لي وحدي بحمل هذا الهناء والشقاء —
إيفيجنيا
فأين أنت يا بيلادس .
أين ألقى معونتك أيها الرجل العزيز (تبعد تبحث عنه) .

المنظر الثاني

أوريست وحده

أوريست (يتنبه من غيبوبته وينهض واقفاً) قدحاً آخر !
ناوليني من فيوض ليته^(١) قدح الانتعاش الأخير ،
فقريباً تهدياً في صدري معركة الحياة ،
وتنحدر روحي في سكون إلى عين النسيان ،
إلى ضبابك الأبدي أيتها الأرواح .
أنزلي على طريد الأرض وابنها الشريد شيئاً من سكينتك
وروحى عنه .

ما هذا التهامس الذي أسمع بين الأغصان ؟
ما هذا الخفيف الذي يتناهى إلى من تلك الظلمة ؟
إنهم آتون لاستقبال الضيف الجديد .
ما هذه الجماعة التي تقعم أنفسها الغبطة كأنها بيت إمارة مجتمع ؟
إنهم يسرون أحمياء بعضهم ببعض ،
كبيرهم والصغير ، رجالهم والنساء ،
أشباه الآلهة المتشابهون .
أجل هم بعينهم ، أجداد بيتي .
ها هو ذا تبيست يسير مع أتريوس منهمكين في حديث خاص .
وها هم أولاء أولادهما يرتعون من حولهما متباسطين .
أزالت من بينكم العداوة ؟
هل انطفأت نار الانتقام من صدوركم كما ينطفىء نور الشمس ؟
إذن فأنا أيضاً على الرحب بينكم ،
ولى أن ألتحق بموكبكم المهيب .

(١) نهر في أساطير الأولين تشرب منه أرواح الموتى في الآخرة فتنسى هموم الحياة وآلامها .

مرحباً بكم آبائي ! أوريست آخر عقب لكم يحكم .
لقد حصد ما زرعتم ، وهبط توقره اللعة .

لكن الأعباء هنا تهون ، فخذوه بربكم بين ظهرانيكم .
لك إجلالى يا أتريوس ! وأنت أيضاً يا تيبست !
فنحن هنا من العداء براء —

أريانى أبى الذى لم أره فى الحياة إلا مرة !
أهذا أنت يا أبى ؟ وتسير إلى جانبك أمى من دون كلفة ؟
فإذا جاز لكليمتنسترة أن تمد يدها إليك ،
فجائز أيضاً لأوريست أن يتقدم إليها ويقول :
انظرى ولدك !

انظرا ولدكما ورحبا به !

كانت كلمتنا على الأرض إشارة تعطى ليغتيال بعضنا بعضاً .
وكانت ذرية طانتالوس الشيخ تطلب المسرات فى الناحية الأخرى من الليل .
أترحبون بى وتتلقونى ؟

إذن إلى الشيخ ، إلى جدى الأكبر !
أين الشيخ لأراه ؟ أين الرئيس العزيز ؟
أين المحترم المبجل ؟ أين جليس الآلهة والمستشار ؟
أراكم تترددون ، ألا تبغون حولا ؟ فما خطبكم ؟
أيألم شبيه الآلهة ! تعساً لى !

لقد ضرب القادرون على صدر الشجاع آلاماً جساماً ،
ومكنوا لها بقيود من نحاس .

المنظر الثالث

أوريست . إيفيجنيا . بيلادس

أوريست أهبطتما أنتما أيضا؟ هنيئاً لك أختي ! لكنه أين إلكتره؟

ليبعثها إلينا إله كريم ، وينزلها أيضا على عجل .

وأنت يا صديقي لشد ما أرثى لك ، فتعال معنا .

تعال إلى عرش بلوتون(*) ليحيي المضيف ضيوف جُدُد .

إيفيجنيا أيتها الأخوات اللواتي ترفعن لبنى الإنسان الضوء الجميل ،

في السماء الفسيحة ، بالنهار وبالليل ،

ولا يجوز لكن أن تمنحنه الراحلين ، انقذينا !

ياديانا ! تؤثرين بحبك أخاك الكريم

على كل ما تؤتيك الأرض والسماء ؛

وتتجهين بوجهك العذرى إلى نوره الأبدى مشوقة في سكون ،

فهلأ صنت الوحيد الذى وجدته بعد طول السنين ،

فوقيته من أن يتخبط في ظلماء الجنون .

فإن تكن مشيئتك حين أخفيتنى هنا قد تمت ،

وكان رأيك أن تهيننى ؛ وتهيبه بى عونك المبارك ،

ففكى وثاقه من تلك اللعنة ،

فلا يفت وقت النجاة الثمين .

بيلادس أتعرفنا؟ وتعرف هذه الغابة المقدسة؟

وتدرك هذا الضياء الذى لا يضىء الأموات؟

أتحس ذراع الصديق وذراع الأخت ،

(*) إله المحيم في أساطير اليونان والرومان . يحاسب أرواح الموتى مع ثلاثة من قضاة المحيم هم ميتوس وأياكوس ورادامنتس .

وهما ما تزالان تحرصان عليك وتستبقيانك حيا
أمسك بنا بقوة فلسنا أشباحا جوفاء .
ألقِ بالكِ إلى قولى ، وألقِ إليه السمع ،
واستجمع نفسك فالوقت ثمين ،
والعودة معلقة بخيوط واهية ،
يغزلها كما يبدو عنكبوت رحيم .

أوريست (يخاطب إفيجنيا) دعيني أنم لأول مرة بالغبطة الطاهرة ،
بين ذراعيك بقلب طليق .

أيتها الآلهة التى تسلطين جبروتك الملتهب ،
على السحاب الصفيق فيتشربه ،
والتي ترسلين من فضلك الغيث المرجو من أمد طويل ،
تمطرينه مع الرعد ، وتصبينه مع الريح ، فى الهزيم والصفير ،
فوق هذه الأرض ،

فلا يلبث القلق والوجل أن يحولا بركة ،
وأن تنقلب الدهشة الهائلة رضى وحمداً عالياً ؛
إذا كانت الشمس الطالعة تنعكس فى قطرات الأوراق ،
ألفاً من الشمس ،
وكانت إيزيس تمسح بيدها الرفيقة غشاوة الغيوم الأخيرة ،
فى رقة بهيه ،

فدعيني أنم أيضاً بين ذراعى أختى وعلى صدر صديق ،
بما منحتنى إياه ، وخلينى أستبقيه شاكراً أجزل الشكر .
إن اللعنة تحل عني ، هذا حديث قلبي ؛

وإن بنات الجن ليرتجلن إلى طرطاروس(*) ، هذا ما يطرق سمعى ؛

(*) وهذه مظالمه تنق إليها زيوس التينان . وقد صورت فيما بعد مكانا تلقى فيه أرواح الموتى العذاب
وقد سبق ذكرها .

إنهن يغلقن وراءهن الأبواب النحاسية ،
فتقصف كالرعد من بعيد .

إن الأرض تعبق بعبير منعش ، وتدعوني إلى السطح ،
لأنشد فوقه مسرات الحياة ، وجلائل الأعمال .
لا تضيعا الوقت المقسوم . ولتحمل الريح التي تغم أشرعتنا ،
غبطتنا كاملة إلى أولب أولا .

نيلادس

تعاليا ! فالموقف هنا يقتضينا سرعة الرأي والتصميم .

الفصل الرابع

المنظر الأول

إيفيجنيا (وحدها)

إذا قدرت الآلهة لأحد من الناس خبالاً شديداً ،
وأعدت له من الغبطة إلى الألم ، ومن الألم إلى الغبطة انتقالاً مزعجاً ،
هيات له في المكان القريب أو الساحل الغريب ،
الصديق الرشيد ، ليكون في عونهِ ساعة الضيق .
فيا أيتها الآلهة باركي ييلادس ، وكل ما يمكن أن ينهض به .
إنه في الهيجاء ساعد الفتى ،
وفي المجتمع عين الشيخ البصيرة .
إن نفسه مطمئنة متمسكة بأهداب السكينة ،
وإنه لحفيظ على زخر الهدوء المقدس ،
الذي لا يعرف معينه النضوب .
وهو يمد الهائمين بالنصيحة والعون خالصين من الأعماق .
لقد انتزعني من أخي وأنا تأهية مشدوهة ،
أحلق فيه من دون انقطاع ،
ولا أستطيع تناول الهناء .
أحرص عليه بين ذراعي ،
ولا أفطن إلى الخطر المحدق القريب .
الآن يميضان ليتما مهمتهما ، قصدما البحر ،
حيث تختبئ السفينة بالرفاق في جون تترقب الإشارة .
لقد لقناني كلمة رشيدة ،
وعلماني ما أجيب به الملك حين ينفذ إليّ من يستحث القربان .

أواه ! إني أراي كالطفل بحاجة إلى من يريني الطريق ،
لم أتعلم المداجاة ولا خديعة أحد عن شيء في يده .
ألا بعداً للكذب !
إنه لا يفرج الكرب ، كما تفرجه الكلمة الصادقة .
إنه لا يدخل العزاء على النفس ،
وهو يزعج حائكه في الخفاء .
إنه يرتد إلى راميهِ من يد إله ،
يحول سهمه عن مرماه .
إن صدرى يضطرب بالهم يلاحق الهم .
فقد تنتاب الجنة أخى من جديد ،
وتبهظه على الساحل غير المبارك .
أيمكن أن يكونوا عثروا عليهما ؟
يخيل إلى أنى أسمع قعقة سلاح تقترب — انظر !
ها هو ذا الرسول من عند الملك ،
أت إلى سريع الخطى .
إن قلبى يخفق ، ونفسى تنم ، إذ أطلع وجه الرجل ،
الذى يراد أن ألقاه بباطل القول .

المنظر الثامن

إيفيچنيا . أركاس

أركاس عجلي بالتقربان أيتها الكاهنة !
فالملك ينتظر ، والشعب يترب .
إيفيچنيا كنت حرة أن أقوم بواجبي وأتبع إشارتك ،

لولا عقبة لم تكن فى حسابى ، حالت بينى وبين الأداء

وما الذى يعترض مشيئة الملك ؟

الصدفة التى لا يملك دفعها أحد .

ماهى لأعجل بإعلانها إليه ،

فقد قضى على الإثنين بالموت .

قضاء لم تبرمه الآلهة بعد .

فأكبر الرجلين يحمل وزر دم سفكه لقريب ،

فالجن تطارده وتتأثر خطاه ،

وترميه بشرها فى قلب المعبد نفسه .

وقد دنس قدسية المكان وجوده فيه .

فالآن أبادر وعذارى إلى البحر

لأنفس تمثل الإلهة فى موجة جارية ،

وأقضى بذلك طقسا سرىا .

فلا يزعج أحد موكبنا الصامت !

سأسارع إلى الملك نبأ العائق الجديد .

فلا تشرعى فى الطقس المقدس قبل أن يأذن به .

هذا شأن الكاهنة وحدها .

مثل هذه الحالة النادرة ينبغى للملك أيضاً أن يعلمها .

إن مشورته كإشارته لن تغير من الواقع شيئاً .

كثيراً ما يستشار ذو السلطان ولو صورياً .

لا تلحف فى طلب ما يجب أن آياه .

لا تأبى ما هو صالح نافع .

أتساهل إذا لم ترد إبطاء .

سأعجل بالنبأ إلى المعسكر ،

وأهرع إليك بما يقول .

أركاس

إيفيجنيا

أركاس

إيفيجنيا

أركاس

إيفيجنيا

أركاس

إيفيجنيا

أركاس

إيفيجنيا

أركاس

إيفيجنيا

أركاس

- فهلأ حملتنى إليه رسالة فوق هذه ،
تخرج كل مايكر بنا الآن !
إنك لم تأبهي لنصح الوفي .
لقد قمت راضية بما وسعنى .
إيفيجنيا
أركاس
قد تغيرين رأيك فى الوقت المناسب .
إيفيجنيا
هذا أمر لا نملكه بحال من الأحوال .
أركاس
أحبال عندك ما يكلفك جهداً ؟
إيفيجنيا
إنما يلوح لك ممكناً ، لأن الرغبة تخدعك .
أركاس
إذن ترومين مجازفة غير عابئة بشيء ،
إيفيجنيا
فوضت الأمر جميعه للآلهة .
أركاس
الآلهة تنقذ البشر على أسلوب البشر .
إيفيجنيا
كل شيء فى الدنيا رهن إرادتها .
أركاس
أقول لك إن الأمر بيدك .
وغضب الملك لارضاه هو الذى يعد للغريبيين موتاً زوأمًا .
فقد سلا الجيش من أمد ذلك القربان القاسى ،
واستراح من ذلك الطقس الدموى .
بل غير واحد ممن رماهم شؤم الطالع إلى ساحل غريب ،
قد شعر فى نفسه كيف يلقى الضال الشريد المسكين ،
على حدود الغربه وجها إنسيا باشا ،
ويرحب به كما لو كان إلهاً .
أفتصرفين عنا ما تستطيعين ؟
إن الرحمة التى تهبط من السماء على صورة إنسان ،
لايستقر سلطانها فى مكان ، بأسرع مما يستقر
فى البلد الذى يرزح فيه ، تحت أعباء الحياة الجسام ،
شعب جديد يحيش بالحياة والقوة والإقدام ؛

- كئيب مستوحش ، فريسة لنفسه ولما يستريب .
 لا تزعزع النفس التي تعجز عن حملها على إرادتك .
 ما دام الوقت منفسحاً فالمرء لا يألون جهداً ،
 ولا يكفن عن ترداد الكلمة الطيبة .
 عبثاً تجهد نفسك ، وتثير في نفسى الآلام .
 فخلّ عنك !
 الآلام هي التي أستصرخها فيك ؛
 فهي الصديقة الناحقة بالخير .
 إنك تأخذ نفسى قسراً ، ولا تستأصل نفورها .
 أتأبى النفس الطيبة إحساناً يسديه نبيل ؟
 أجل متى أرادنى النبيل لنفسه ولم يرد شكرى ؛
 وهذا غير جميل .
 من لا يحس ميلاً لا يعدم كلمة اعتذار .
 سأنبئ الملك بما جرى هنا ،
 فليتك تستذكرين مسلكه النبيل نحوك ،
 من يوم قدمت إلى يومنا هذا .

المنظر الثالث

إيفيچنيا (وحدها)

أشعر بقلبي يثب من كلام هذا الرجل ،
 ويشب دفعة واحدة في غير الوقت الملائم .
 إني مرعبة ! فقد كان تيار من الغبطة يغمر نفسى ،
 كما يغمر المد الصخر القائم في الرمل على ساحل البحر

بتياراته الزاخرة الفياضة المتعاقبة .
كنت أتعلق بالحال ، إذ لاح لي أن سحابة تعود ،
فتكتفنى فى رفق ، وترتفع بى عن الأرض ،
وتهزنى لتبعث إلى جفونى بذلك النعاس ،
الذى سلطته الإلهة الطيبة على سالفى ،
وقد احتضنتنى تبتغى إتقاذى .
لقد تعلق القلب أخى فى قوة خارقة ،
وأصغيت إلى نصح صديقه ، ولا مطمع لى سوى إتقاذهما .
وكما يولى الملاح ظهره صخور الجزيرة المقفرة راضياً ،
وليت ظهري طوريس .
فالآن يوقظنى صوت الرجل الوفى يذكرنى ،
بأنى أترك هنا أيضاً بشراً .
ألا بعداً للخداع ! فإنى أبغضه الآن بغضاً مزدوجاً .
هدوءاً أيتها النفس ! أبدأت تترددى وتشتكين ؟
لابد من مبارحة الأرض اليابسة التى شهدت وحدتك ،
فإذا ركبت البحر تولتك الأمواج ، ومالت بك كل مميل ،
وأنكرت الدنيا فى كدر وخوف ، وأنكرت بينهما نفسك !

المنظر الرابع

إيفيجنيا . بيلادس

أين هى لأعجل إليها نبأ نجاتنا السار .	بيلادس
ها أنذا مهمومة النفس أتقرب ما وعدتني من عزاء أكيد .	إيفيجنيا
لقد شفى أخوك ! وقد جسنا الأرض الصخرية ،	بيلادس

أرض الساحل المشئوم ،
وسرنا على رمله تتجاذب أطراف الحديث الشهي ،
واستدبرنا الغابة غير شاعرين .
وكانت شعلة الشباب الجميل يزداد اندلاعها روعة ،
من حول رأسه المخلص ، فتزيده تهللاً على تهله .
وكانت عينه اليقظة تتقد شجاعة وتشع رجاء ،
وقلبه الطليق يفيض بالفرح ،
وتستغره الرغبة في إنقاذك — أنت منقذته — وفي إنقاذي .

إيفيچنيا

فلتباركك الآلهة ، ولتصن شفتك التي تلفظ هذا الخير ،
فلا تعرف الأنين ولا مرارة الشكوى .

بيلا دس

إني أحمل إليك ما هو أكثر من هذا .
فالهناء اعتاد أن يحل في حاشية كما يفعل الأمير .
لقد وجدنا الرفاق أيضاً في السفينة المختبئة في جون صخرى
قابعين ، محزونين ، مترقبين .

وقد رأوا أخاك فهبوا مهللين ،
وتوسلوا إلينا أن نعجل بساعة الرحيل .
فكل قبضة من قبضاتهم تحن إلى المجذاف ،
والرياح تهب من البر هامية ،

وتؤرجح السفينة لناظرهم أجمعين .
فالبدار البدار إلى المعبد !

ودعيني أدخل قدسه ، وأحقق الغرض الذي نصبو إليه مكبراً .
وأنا وحدي كفء لنقل تمثال الإلهة فوق كتفين متدبرتين ،
فإن حنيني إلى العبء المرجو لشديد .

(يسير صوب المعبد وهو يلفظ الكلمات الأخيرة دون أن يظن إلى أن إيفيچنيا لا تتبعه ثم
يلفت أخيراً وراءه) :

ما بالك واقفة تترددين؟ ما خطبك؟ — لم لا تتكلمين؟
أمبلبللة الأفكار أنت؟ أيعتاق هناءنا شر جديد؟ خبريني؟
أبعثت إلى الملك بالكلمة الأريية التي اتفقنا عليها؟
لقد فعلت أيها الرجل العزيز — لكنك ستلوم .
وإن مرأك لينطق باللام .

إيفيچنيا

لقد حضر رسول الملك فألقيت إليه الكلمة كما لقتنيها .
فبدا عليه العجب ، وأصر لينبئن الملك أولاً بهذا الطقس النادر
ليعرف فيه مشيئته
وها أنذا أترقب عودته .

الويل لنا ! قد عاد الخطر يحوم حولنا .

بيلادس

لم لم تستترى في حكمة وراء حق الكاهنة؟
لم أتذرع يوماً بهذا الحق .

إيفيچنيا

إذن ستلحقين بنفسك وبنا الدمار أيتها الطاهرة ،
فكيف لم أفطن إلى هذا الأمر من قبل ،
فكنت أرشدك إلى الروغان من ذلك الطلب .

بيلادس

أنا الملوثة وحدي ، والذنب ذنبي ، وأنا به جد شاعرة ،
لكني لم أك حقيقة بأن ألقى الرجل بغير ما لقيت ،
وقد طلب ما طلب عن حق ورشد .

إيفيچنيا

فسلم له قلبي بحق ما طلب .

أرى الأمر يتفاقم فلا تكلينا إلى اليأس ولو على هذه الحال ،
فيفضحنا التسرع والطيش .

بيلادس

انتظري عودة الرسول هادئة .

فإذا حضر فالثبات مهما يكن من أمر .
فالقيام بالطقس من شأن الكاهنة ،
وليس للملك به من شأن .

فإذا طالب بالغريب الذى ينتابه الجنون فأرفض أن يراه .
وحجتك أننا فى المبد رهينا حفظك ،
فتتجى لنا الفرصة للهرب بأسرع ما استطاع .
ونذهب بالكنز المقدس عن هذا الشعب الخشن الزرى .
لقد أمدنا أبوللون بخير الأمارات ،
فقبل أن نحقق شرطه فى ورع وخشوع ،
أنجز هو وعده بمنه الإلهى .
إن أوريست حر معافى .

فاحملينا أيتها الرياح الطيبة إلى الجانب الآخر ،
ومعنا الطليق ؛ إلى الجزيرة الصخرية التى يسكنها الإله ،
ثم إلى ميسن لتشيع فيها الحياة .
ولينبعث من رماد موقدها المنطفى أبأونا الآلهة جذلين ،
وتضى النار الجميلة منازلهم أجمعين .
إن يدك ينبغى أن تكون أول ما يحرق لهم البخور فى صحاف من ذهب .
فأنت تردى البركة إلى تلك العتبة ، وتبثين فيها الحياة .
وأنت تبعدى عنها اللعنة ،

وتجميلين ذويك من جديد بحلية فاخرة ، من أزاهير الحياة اليانعة .
حين أسمع كلماتك أيها العزيز تستروح روحى من أشعتها الدفء
وتتجه إليها كما تتجه الزهرة إلى أشعة الشمس ،
ففيها العزاء الجميل .

ألا ما أعذب اليقين يجرى على لسان الصديق الحاضر ،
أما الوحيد فإنه تعوزه قوة اليقين السماوية ،
فيخور ويهن فى طى السكون .

ذلك بأن ما احتبس فى صدره من رأى وغرم ، ينضج فى بطنه ،
لكن حضرة الحب تستعجل فى صدره هذا النضوج .

إيفيچنيا

بيلا دس أستودعك الآلهة !

فإني ذاهب لأهدى روع الرفاق ؛

فإنهم هنالك يتقبلون على جمر الانتظار .

سأعجل بالعودة كما أعجل بالذهاب ،

وأترقب إشارتك هنا من محبتي بين الصخور —

ماذا دهاك ! إن جبينك الطلق يُظللُه بغتة شجن هادئ !

معدرة ! إن هماً رفيقاً واضطراباً خفيفاً يعبران بنفسى ،

كما يعبر بالشمس رقيق الغمام .

بيلا دس إياك أن تُراعى ، فالخوف والخطر حليفان على الخديعة ،

وإنهما ملتزمان .

إيفيجنيا إن الهم الذى يحذرني من خديعة الملك وينهاني عن سرقة ،

لكريم عندي ، وقد بات لى أبا بعد قمت أنى .

بيلا دس إن الذى يريد ذبح أخيك هو الذى تفرين منه .

إيفيجنيا هو نفسه الذى أولانى المعروف .

بيلا دس ما تقضى به الضرورة لا يسمى ججوداً .

إيفيجنيا إنه للججود ؛ لكن الضرورة تعذر منه .

بيلا دس تعذرك أمام الآلهة والناس بلا مراء .

إيفيجنيا لكن قلبى وحده لا يستشعر الرضى .

بيلا دس إن القسوة على النفس كبرياء مستترة .

إيفيجنيا إنى لا أحقق بل أشعر فحسب .

بيلا دس شعورك بأنك محقة تمجيد للنفس .

إيفيجنيا إلا شعور القلب ، فهو خلو من الشوائب .

بيلا دس بذنا صنت نفسك فى جو المعبد ؛

أما الحياة فتعلمنا التسامح مع أنفسنا ومع الغير .

وسوف تروضين النفس على ذلك أيضاً .

إن هذا الجنس عجيب التكوين ،
كثير التوشج ، كثير التعقيد .
فالفردي ليعجز أن يحتفظ في نفسه أو مع غيره بنقاوته ،
فلا يكدر صفاءه أى اضطراب .
وليس علينا أن نقيم أنفسنا على أنفسنا قضاءً .
والسير والالتفات إلى موطئ القدم ،
واجبنا الأول والذي يليه .

ذلك أن المرء يندر أن يقدر ما فعل حق قدره ،
أما ما يفعل فيكاد ألا يعرف أن يقدره .
كدت تحولني عن رأيي إلى رأيك .

إيفيجنيا

أبنا حاجة إلى الإقناع ؟ إنه ليس لنا خيار .
إن إنقاذك أخاك ونفسك وصديقاً ،
هو الطريق الوحيد الذي ليس طريق سواه .
أفتساءل هل نسلكه ؟

بيلا دس

لو تركتني أتردد ! فما أحسبك تسيء إلى رجل هادئاً ،
وقد تعهدت له بالإحسان .

إيفيجنيا

إذا هلكنا انتظر أكسى من هذا الملام .
إني أرى أنك لم تعتدى خسارة ،
لأنك لا ترومين التضحية بكلمة باطلة ،

بيلا دس

لنتفادى بها من شر عظيم .
ليت قلبي كقلوب الرجال ،

إيفيجنيا

فإذا حزمت أمراً ، لم يصنع لصوت غير صوت هذا الأمر .
إنك تتأين من دون مبرر .

بيلا دس

وللضرورة يد قاسية تأمرك ، وإشارتها الجدية فوق كل قانون ،
ولها تخضع الآلهة أنفسها .

إن أخت القدر الأبدى ، التى لا تستشير ،
تسود فى صمت ، فأحلى ما تفرضه ،
وافعلى ما تأمرك .

وما عدا ذلك فعلمه عندك ، وسأعود وشيكاً ،
لألتقى من يدك المقدسة خاتم النجاة الجميل .

المنظر الخامس

إيفيچنيا (وحدها)

لابد لى أن أتبعه فإنى أرى ذوىّ فى خطر داهم .
ولكن آه ! فمصيبرى يقلقنى ويضاعف قلقى .
وقد كان الرجاء الهادئ عالاتى فى وحدتى ،
فهل أدعه فلا أحققه ؟

أقدر للجنة البقاء إلى الأبد ؟
وألا ينهض جنسى ببركة جديدة ؟
إن كل شىء يتضاءل حقاً ،
والهناء الأعظم ، أجمل قوة فى الحياة ، ينهار أخيراً .
فما بال اللعنة لا تنهار ؟
أكان رجائى إذن عبثاً ،

حين استبقيت هنا ، وجئبت مصير ذوىّ ؟
وحين أملت أن أطهر يدي النقية وقلبى الطاهر منزلاً دنساً .
ما كاد أخ لى يسترد العافية بين ذراعى من شر مستطير ،
ويثوب إلى نفسه مثاباً سريعاً عجيباً ؛
ما كادت السفينة التى طال إليها اشتياقى تقترب ،

لتقلنى إلى مرفأ أبائى ،

حتى فرضت على الضرورة الصماء بيدها القاسية رذيلة مزدوجة :
سرقة الصورة التى أوتمنت عليها وكانت موضع تبجيل كثير ،
وخديعة الرجل الذى أدين له بالحياة والمصير .

ليت صدرى لاينجم فيه آخر الأمر حقد ،
ولاينشب من كراهية التيتان — الآلهة القدام —
لكم أيها الأولمبيون أظفار العقبان فى الصدر الحنون .
أقذنى أيتها الإلهة وأقذى ، بإتقذى ، صورتك .
إن الأغنية القديمة ترن فى أذنى —

وقد كنت نسيتهما ، ونسيتهما من قلبى —
أغنية الأقدار التى تغنت بها مرعبة ،
يوم هوى طانتالوس عن كرسية الذهبى .
لقد تأملت لألم الصديق النبيل ،
وكان صدرها محنقاً ، وغناؤها مفزعاً ،
وقد غنتنى إياها فى الصبا مرضعى ،
وغنتها إخوتى معى فوعيتها جيداً :

يخشى الآلهة	نوع الإنسان
تمسك فى يدها	بعضا السلطان
إن شاءت سادت	سود الديان

تُخشى أضعافاً	إن رفعت قدراً
يعلو مجلسها	سجياً أو صخراً
حول الأخونة	زاهية صفراً

إن دب خلاف	سقط الزوار
يتبعهم خزى	يلحقهم عار

في بهمة ليل حيث الأغوار
عشاً تنتظر أن يقضى قرار
قيد الظلمات تهفو الأنظار

أما الآلهة في عيد أبدى
من حول الخون ذى اللون الذهبى
ترحل عن جبل وتحل بجبل

ترتفع إليها من جوف الوهد
أنفاس تبتان خنقت من جهد
كغيوم ضحايا فاحت من جسد

قد حرم السادة كل الأجيال
من فيض رضاها وسعيد مآل
تتحاشى حفيداً لمشابه فيه
ناطقة أبداً بلامح جده
كانت تؤثره فغدت تنفيه

ذا شدو القدر يسمعه المنى في
يصغى الشيخ له في حلك الليل
يتذكر ولداً ويحن لحفده
ويهز الرأس من فرط الشجو

الفصل الخامس

المنظر الأول

طواس . أركاس

أشهد أنى حائر لا أدري أية وجهة أولى ارتياحى .
إلى الأسيرين الذين يدبران الهرب خفية ،
أم إلى الكاهنة التى تبذل لهما العون .
إن الأشاعة تستفيض بأن السفينة التى أتت بهما ،
ما تزال محتبئة فى جون .

أركاس

وهذا الخبال الذى أصاب الرجل ،
وهذا الطقس والإجراء المقدس الذى يقتضى الإبطاء ،
كلاهما يثير الشبهة عالية ويدعو إلى الحذر .

طواس

على بالكاهنة على عجل !
ثم اذهب وقش الساحل تفتيشاً دقيقاً سريعاً ،
من الآكام إلى حرج الإلهة ،
وصونوا قلبه المقدس ؛

أكنوا للمرييين وهاجموم ،
وأينما وجدتموم فاقتنصوم كعادتكم .

المنظر الثانى

طواس وحده

إن الخنق يتحول فى صدرى تحولا مرعبا ،
ختارة إلى التى حسبتها مقدسة إلى هذا الحد ،

وتارة على نفسى التى حملتها على الخيانة بالأعضاء والطيبة .

إن المرء ليألف العبودية جيدا ، ويتعلم الطاعة سريعا ،

إذا استلبت حريته تماما .

أجل لو أنها وقعت فى قبضة أجدادى الخشنة ،

وأبقت عليها الآلهة الخائفة ،

لا غتبطت بأن تنجو بجلدها ،

ولا تستسلمت للأقدار شاكره ،

ولسفكت على المذبح دم الغريب ،

وعدت واجبا ما يكون ضرورة .

أما الآن فتشجع طبيتى رغبة جريئة لها على الظهور ،

ويذهب رجائى فى ارتباطها بى سدى .

فهى تفكر فى مصيرها وحده .

لقد كسبت قلبى بالملق ،

وإذا أقامم الآن ملقها تلمس طريق المسكر والخداع .

أما طبيتى فتبدو لها شيئا هو ملكها من عهد بعيد .

المظهر الثالث

إيفيجنيا . طواس

أتطلبنى ؟ فما جاء بك إلينا ؟

إيفيجنيا

إنك تسوفين فى القربان فاذا كرى لماذا ؟

طواس

بسطة لأركاس كل شىء جليا .

إيفيجنيا

أحب أن أسمع منك كرة أخرى .

طواس

الآلهة تمهلك ففكر !

إيفيجنيا

طواس

مهلة تلوح مؤاتية لك .

إيفيجنيا

ما كان أغناك عن الحضور ،

إن كنت مصمما على القسوة .

فالملك الذى يطلب النكر يجد الغناء فى الخدم ،

يتهافتون منه على الجريمة ،

ويبوءون عنه بنصف اللعنة ،

لقاء شئ من الرضى والأجر ؛

ويبقى الملك طاهر الذيل .

إنه يستتر بالسحاب الضفيق ،

يدبر فى مطوية الموت ،

وينفذ رسله إلى المسكين ،

يصبون على رأسه جام الهلاك .

ويُخلَّق هو فى عليائه ناعما ،

يتخطى العاصفة بعيد المنال .

طواس

أغنية نائرة تتفصد بها شفة مقدسة .

إيفيجنيا

لست بالكاهنة بل ابنة أجا ممنون ؛

لقد كنت تبجل كلمة المجهولة ،

أسرعان ما تريد أن تأمر الأميرة ؟ كلا !

لقد شببت من الصغر على الأخذ بالطاعة ،

طاعة والدين ، ثم طاعة إلهة .

وكنت فى طاعتي أستشعر الحرية أجمل ما تكون ؛

أما الرضوخ لقالة جافة يلفظها رجل ،

فما لم أتعلمه هنا أو هناك .

طواس

لست أنا الأمر بل قانون قديم .

إيفيجنيا

نحرص الحرص كله على القانون ،

لما كان يسلح أهواءنا .

وآخر أقدم منه يهيب بي أن أقاومك ،

ذاك هو الوصية التي ترعى الغريب .

طواس

يلوح الأسيران عزيزين عليك .

فقد أنساك العطف والمرثية أول وصايا الحكمة :

ألا تتيرى صاحب السلطان .

إيفيجنيا

سواء تكلمت أو لذت بالصمت ،

فأنت في الحالين تعرف مكنونى ،

وما سوف يكنه قلبي على الدوام .

ألا يفتح القلب المستغلق ويستدر العطف ،

تذكر المصير المائل ؟ فكيف بقلبي !

فيهما أرى نفسى .

فقدتماً أجملت أمام المذبح ،

وأحدثت بي المنون قبل الأوان ،

وأحاط بالجائية الموت الرهيب .

لقد اختلجت السكين تبغى صدرى ،

وكان إذ ذاك عامراً بالحياة .

فروّع قلبي ، وانتفضت من أعماقى ،

وزاغ بصرى — ثم إذا بي فى أمان .

أفليس فى أعناقنا نحن التعساء ،

دين للآلهة يقتضينا الأداء ؟

وأنت تعلمه ، وتعرفنى ، وتريد أن ترغبنى .

طواس

إذغنى لوظيفتك لا للسيد .

إيفيجنيا

دعك من هذا ! ولا تحلن القوة التى تتشقى بضعف امرأة !

لقد ولدت حرة كما يولد الرجل .
ولو قد وقف ابن أجامنون حيالك وجهاً لوجه ،
وطلبت منه ما لا ينبغي ،
لأراك حساما ، وأبدى ذراعاً ،
يمنعان حقوقه أن تستباح .
أما أنا فلا أملك غير اللسان .

طواس
إيفيجنيا
وجميل بالكريم أن يصنعى للنساء .
إني أكثر لكلامهن أكثر من أكثرائي لحسام الأخ .
إن حظ السلاح دوماً سجل ،
والمحارب العاقل لا يستهين بعدو .

والطبيعة لم تحرم الضعيف ما يدفع به القسر ويرد القسوة ،
حببت إليه المكر وعلمته الفنون ،
فتاوة يروغ ، وأخرى يدرء ، وأنا يداور ؛
والقوى يستحق أن تجرب معه كل هاته الأمور .

طواس
إيفيجنيا
طواس
إيفيجنيا
في الحذر كفاية للملاقة الخداع .
والنفس الطاهرة ليست بحاجة إليه .
لا تلزمى نفسك الحجة من غير انتباه .
لو أنك ترى كيف تجاهد النفس مصيراً سيئاً يحاول انتيابها ،

وكيف تقدم على دفعه وهو مداهم !
فهل أقف هنا حيالك عزلاء ؟
الرجاء الجميل في يد المرأة غصن جذّاب ،
أقطع من سيف وأمضى من سلاح ،
أتراك ترده ؟

فماذا يبقى إذن لى لأحمى به ما يكن الفؤاد ؟
أأناشد الإلهة أن تبدي معجزة ؟

أنضب معين النفس من كل قدرة ؟

طواس

إن مصير الغريبين فيما يلوح

يهمك هما شديداً . فمن يكونان ؟

إيفيجنيا

هما — إنهما يلوحان — أظنهما من اليونان .

طواس

أمواطنان هما ، فتجددت في نفسك صورة الرجعة الجميلة ؟

إيفيجنيا

(بعد صمت قليل) أليس لغير الرجل الحق في العمل الجليل ،

أليس يحبس المحال إلا بصدر البطل المغوار ؟

ما هو العظيم في عرف الناس ؟

ماذا يهز النفس ويجذبها إلى الراوى المبدئ المعيد ؟

أليس ما بدأه الشجاع المقدام من غير ما أمل في التوفيق ؟

ومن يغير وحده بالليل على جيش العدو ،

فيفجأ النّوم والأيقاظ ، ويدهمهم كالنار المحتدمة الأوار ،

ثم يعود وقد تنبه عدوه آخر الأمر ،

ممتطياً ظهر ما اختطف من جياذ ،

مقتلاً مع ذلك بالأسلاب ، ألا يحمد سواه ؟

ألا يستحق الإطراء إلا الذي يزدرى الطريق الأمين ،

فيذهب بجوس الجبل والغاب غير هيب ؛

ليظهر بقعة من قطاع الطريق ؟

ألم يبق لنا شيء ؟

أقدر المرأة الرقيقة أن تنكر حقها الطبيعي ،

فتستوحش مع المستوحشين ؛

وتسلبكم كالأمازونة^(١) حق السيف ؛

(١) الأمازون جيل خرافي من النساء عند اليونانيين القدماء عشن بلا رجال وألفن دولة حربية في منطقة طرابزون كن يغزن بها آسيا الصغرى . وكل عام يختلن مرة بجيوشهم من الرجال حفظاً للنوع فمن ولد لهن أرسلته إلى أبيه أو قتله . أما البنات فكان يرينهن على غرارهن . والكلمة تطلق الآن على المسترجلات المستبسلات من النساء .

وتنتقم بالدم للاضطهاد ؟
إن أمراً جريئاً يحيش بصدري ،
فإذا أخفقت فلن أنجو من لوم عظيم أو شر جسيم .
فإليك الخبر !

فإن كنت من يؤثرون الحق كما يؤثر عنك ،
فأقم الدليل بتقديم المعونة ،
ومجد في جلال الحقيقة —

أعلم إذن أيها الملك أن خداعاً يحاك بليل ؛
عشناً تسأل عن الأسيرين .
لقد رحلنا للحاق بالرفاق ،

في سفينة راسية على الساحل .

وأكبرهما الذي اتباه هنا الشر ،

ثم حل عنه الساعة هو أخى أوريست .

أما الآخر فوضع ثقته ، ورفيق صباه ، ويدعى بيلادس .

لقد أنفذهما أبوللون الدلفي بمهمة ربانية إلى هذا الساحل ،

وأمرهما باختطاف تمثال ديانا ، وأن يحملها إليه الأخت .

ووعدهم طريد الجن وقاتل الأم ،

أن يحبوه لقاء ذلك بنعمة الخلاص .

فكلانا في يدك بقية باقية من بيت طانتال ،

فأنزل بنا ، إن جاز ، الدمار .

أتحسبن السيتي الخشن المتوحش ،

يصغى إلى صوت الحق والإنسانية ،

ولما يستمع له اليوناني أ تريوس ؟

يستمع له كل مولود تحت قبة السماء ،

يتفجر في صدره ينبوع الحياة ،

طواس

إيفيجنيا

صامتاً متدقفاً —

أيها الملك ! ماذا يضمرك في صمتك في نفسك الغوييرة ؟
أهو الدمار ؟ إذن فاقتلني أولاً وقد عزت النجاة ،
فأخبر الخطر البغيض الذي عرضت له أحبائي عامدة متسرعة .
الويل لي ، أن أراها موثقين أمامي ،
فبأية نظرة أودع أخي وأنا أقتله بيدي ؟
ما أحسبني قادرة على أن تلتقي عيناى ،
بعينه الحبيبتين بعد الآن .

طواس

هكذا نصب الخاتلان هذا الشرك ،
للتى طال عليها الاحتباس ،
فسرعان ما صدقت وطابت نفساً بأمانيهما .

إيفيجنيا

لا ! لا ! أيها الملك !
قد أخدع فهذا أمر يجوز ،
أما هذان الرجلان فمخلصان صادقان .
فاذا وجدتهما على خلاف ما ذكرت ، فاقتلهما .
واطردنى وأقصنى جزاء خرقى ،
إلى صخرة على ساحل رهيب .
أما إن كان الرجل أخى ،
وكان على العكس من طالما نشدته وأشربت حبه ،
فأطلق سراحنا ، وكن بالأخوة كما كنت بالأخت كريماً حفياً .
لقد قضى أبى بيد امرأته ،
وقضت هى بيد ابنها .
وآخر رجاء لبيت أتريوس ،
معقود بهذا الابن وحده .
فدعنى أتهج إلى هذا البيت أمحو خطاياى ،

بقلب طاهر ويد نقيه .
 أنجز وعدك فقد أقسمت أن تخلى سبيلي ،
 إذا قدر لي الرجعة إلى ذوى .
 وها هي ذى باوية أيها الملك .
 والمالك حاشاه أن يشبه السوقه ،
 فيخرج عن الخيرة بالمواقفة ،
 ليتخلص لحظة من صاحب الرجاء ؛
 أو يعد بأمر يستبعد وقوعه .
 إنه ليستشعر هيئته السامية ،
 إذا ما استطاع إسعاد المؤمل .

طواس إن الغضب في صدري يغالب كلامك ،

كما تدافع النار الماء ؛

تحاول أن تقضى بفشيئها عليه .

دع الرضى يغمرني كالضوء المقدس ،

يرسله في رفق لهيب القربان .

وليكن رضاك مكللاً بالحمد والشكر مقترناً بالهناء .

طواس كم هدا هذا الصوت من ثأرى !

لوتناولني يدك اماره السلام !

طواس تطلبين الكثير في الوقت اليسير .

إيفيجنيا من يفعل الخير لا يحتج إلى تفكير .

طواس هذا جد كثير . فالخير يتبعه الشر أيضاً .

إيفيجنيا إنه الشك الذى يقلب الخير شراً ، فلا تسترب !

وامنح حيثما أحسست الدافع إلى المنح .

المنظر الرابع

السابقان . أوريست مسلحا

أوريست (يعود إلى النظر) شددوا عزائمكم ، وصدوهم فما هي إلا لحظات .
لا ترتدوا أمام الدهاء ،
واحمو الطريق لى ولأختى إلى السفينة .

(مخاطب إيفيجنيا من دون أن يلحظ الملك) تعالى !
لقد انكشف أمرنا ، والمهرب عزيز . عجلى !
(يرى الملك)

طواس (يسل سيفه) لا يشهر فى حضرتى سيف بلا عقاب .
إيفيجنيا لا تدنسا حرم الإلهة بالغضب وسفك الدماء .

أزما رجالكم السكينة ، واستمعا للكهنة الأخت .
أوريست من ذا الذى يهددنا ، خبرينى !

إيفيجنيا احترم فى شخصه الملك الذى بات لى أبا من بعد أبى ،
وسامحنى أخى .

إن قلبى الساذج قد علق مصيرنا كله بيده ،
فاعترفت له بأمر كما ، وخلصت من الخيانة نفسى .

أوريست أريد لنا عودة فى أمان ؟

إيفيجنيا حسامك الملتصع يحول دون الجواب ،

أوريست (يغمد سيفه) تكلمى إذن ! فإنى كما ترين مستمع إليك !

المنظر الخامس

السابقون . بيلادس وبعده بقليل أركاس ، كلاهما مجرد سيفه

بيلادس لا تتوانيا ! فإن رجالنا يستجمعون الجهد الأخير ،

ويرتدون متفادين إلى البحر رويدا .

أى حديث بين الأمراء ألفى هنا ؟

هذا هو رأس الملك المبجل .

أركاس
تقف حيال أعدائك هادئاً أيها الملك ،
كما هو خليك بك .

لقد عوقبت المرأة في الحال ،

فارتد أصحابها ووقعوا ، ووقعت سفينتهم في قبضة يدنا .

كلمة منك تصبح السفينة طعمة للنيران .

طواس
إذهب فمر شعبي أن يلتزم الهدوء !

ولا تمسوا العدو بشر ما دمنا نتحدث (يذهب أركاس)

أوريست
إني أقبل . إذهب أيها الصديق الصدوق فاجمع بقية الرجال .

وانظروا هادئين ما تعد الآلهة لفعالنا من ختام .

(يخرج ييلادس)

المنظر السادس

إيفيجنيا . طواس . أوريست

إيفيجنيا
روحا عنى قبل الشروع في الحديث ،

فإني لأخشى النزاع الوخيم ،

إذا أنت أيها الملك لم تصغ إلى صوت الإنصاف الرحيم ،

ولم تكفكف أيها الأخ من غرب الشباب .

طواس
إني كظيم ، كما هو بالأ كبر خليك ، فأجبنى !

ما برهانك على أنك ابن أجا ممنون وأخو هذه ؟

أوريست
هو ذا السيف الذى جالده رجال طروادة المغاوير ،

قد انزعته من قاتله ،

ورجوت الآلهة أن تهبني شجاعة الملك العظيم وساعده ؛

وأن تؤتيني حظه ؛

وأن تتيح له ميتة أروع من ميته .

فاختر من بين نبلاء جيشك أنبلهم وأدعه إلى منازلتي ،

وما دام على الأرض متسع لأبناء الأبطال ،

فلا يُمنع الغريب هذا الرجاء .

طواس تأبى العادة القديمة هذا الإكرام على الغريب .

أوريست فلتبدأ الجديدة إذن على يديك ويدي ؛

فالشعب بأسره يقتدى بسيده ؛

ويتخذ القانون من صنعه النثيل .

لا تدعني أنافح غن حريتنا وحدها ،

بل دعني أدفع أنا الغريب عن الغرباء أجمعين .

فإما سقطت فصدر عليهم وعلى الحكم ،

وإما أسعفني الحظ وغلبت ،

فبييت هذا الساحل محبا لمن يطأه مسعفا ،

يشيع كل راحل مجبور القلب .

طواس إنك أيها الشاب فيما يلوح ، خليك بأجدادك الذين تفاخر بهم .

إن في حاشيتي رهطا من النبلاء الشجعان ،

لكنى فى سنى ما زلت أحسن منازلة الأعداء .

فها أنذا مستعد للنزال .

إيفيجنيا محال ! فالأمر أيها الملك لا يتطلب هذا البرهان الدموى .

دعا السيف وارفعاه عنه اليدين !

فكرّا فيّ وفيما يصيبني .

فالتقتال السريع يسند رجلا واحدا ،
فإن سقط على الفور أشادت به الأغاني .
أما الدموع التي تذرفها المرأة من دون انقطاع ،
وقد خلفها الراحل وحيدة ،
فقل أن تدخل في حساب الأجيال القابلة ؛
وقل أن يمجّد الشاعر أياما وليالي تخللتها الدموع ،
وقضتها النفس الحزينة ،
تتلهم سدى على رجعة الحبيب الفقيّد ،
وتضنى من لوعة المفارق العجول .
لقد هجم بي الساعة هاجس بأن خداع اللص ،
لا ينتزعني من ملاذّي الأمين ولا يسلمني إلى الرق .
فلم أتوان عن تبينه ، وتحري الظروف ، وطلب الأمانة .
والآن يطمئن قلبي .
أنظر إلى يده اليمنى تجد علامة مثل نجوم ثلاثة ،
قد ظهرت عليها من يوم ميلاده .
وقد تنبأ له الكاهن بأن رهن هذه اليد فعلا جسيما .
وهذه الندبة التي تشق حاجبه تعزز اقتناعي ؛
فقد أفلتته إلكتره وهو بعد طفل ، بطيشها وخفتها ،
فهوى من بين ذراعيها واصطدم بكرسى .
إنه أوريست . أفأذكر لك شبهه بأبيه ؟
أم استشهد بهتاف القلب لأؤكد البرهان ؟
لا يزال على السيف أن يحكم بيننا ،
ولو بدد قولك الشكوك جميعا وهذا نأثرى .
لا أمل في سلام ؛ فقد جاء باعترافك
ليسلباني تمثال الإلهة المقدس .

طواس

فهل تحسبوننى لا أكثرث لهذا ؟

لقد طالما رنا اليونانى إلى كنوز الهمج البعيدة ،
واشتهى الفراء الذهبية والخيول والبنات الحسان .

لكن العنف والمكر يخذلانه أحيانا ،
فى العودة إلى الأوطان بالغنيمة سالما .

ما كان للتمثال أن يكون بيننا مثار خلاف أيها الملك .
فالآن ندرك الخطأ الذى أعمانا عنه إلهه ،
حين ساقنا إلى هنا .

أور يست

لقد سألت الرب الخلاص من نوبة الجن فقال :
إئت إلى اليونان بالأخت المقيمة على ساحل طوريس ،
بالمعبد المقدس على غير مشيئتها ، تحل عنك اللعنة .

فخيل إلينا أن أخت أبوللون هى المعنية ،
والرب إنما كان يفكر فيك .

وقد فصمت الآن الروابط المحكمة ،
وعدت إلى ذويك أيتها المقدسة .

مستنى فشفيت ، وفى ذراعيك
أنشب الشر مخالبه للمرة الأخيرة ،

وهزنى برعبه هزا ، وانساب إلى جحره يسعى كالأنفى .
الآن أعود فأنعم بضوء النهار الفياض ،

الآن أتبين مشورة الآلهة جميلة جليلة .
لقد اختطفتك حامية البيت ،

كما يختطف التمثال المقدس ، قد علق به مصير مدينة
برباط من كلمة إلهية

تخفى على الأذهان .

لقد حفظتك الإلهة فى هدوءها القدسى لخير أخيك وذويك .

وإذ يبدو الأمل في النجاة ضائعا فوق هذه الأرض الواسعة ،
إذا بك تردين إلينا كل شيء .

فلتجنح إلى السلم أيها الملك ،
ولا تمنع الأخت أن تبارك بيت الآباء ،
وأن تردني إلى البهو الذي كفر عني السيئات ،
وأن تضع على رأسي التاج التليد .
إجزها عن البركة التي جلبت إليك ،
ودعني أستمتع بأقرب الحقوق .

إن العنف والمكر وهما أعظم مفاخر الرجال ،
ليستشعران الخجل من حقيقة هذه النفس الرفيعة ؛
وقد جوزيت الثقة الخالصة البريئة بالرجل النبيل خير الجزاء .
فكر في وعدك ، وثمين قلبك هذا الكلام

إيفيجنيا

من فم مخلص لا يعرف المواربة ،
أنظر إلينا ، فالفرصة لمثل هذا العمل النبيل لا تعرض كثيرا ،
ولن يسعك فواتها فبادر إلى انتهازها .

إذن فانصرفا !

طواس

ليس هكذا يا مليكي !

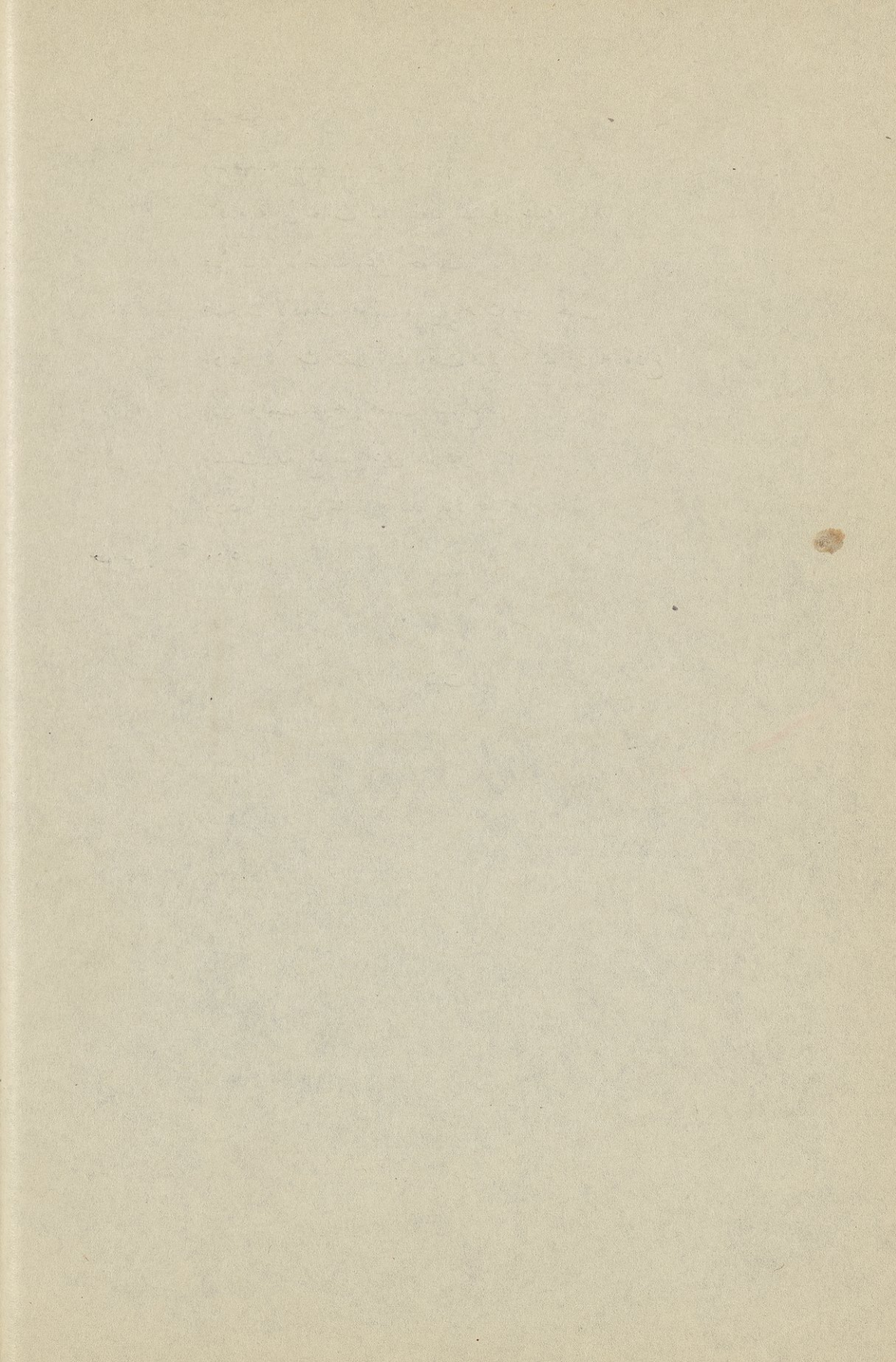
إيفيجنيا

لن أفارقك دون مباركة وعلى مضض .
لا تنفنا من حضرتك ، فلنا حق في كرم الضيافة .
وما افتراقنا إلى أبد ، ولا ارتحالنا إلى غير رجعه .
وأنت عندي كما كان أبي عزيز حبيب ؛
ولن يزال هذا أثرك في نفسي أبدا .
فإذا طرق سمعي من أحقر الناس في شعبكم ،
لهجة الصوت الذي ألفت سماعه منكم ؛
وإذا رأيت أرق الناس حالا ، يرتدى لباسا من ألبستكم ؛

فسأحتفى به وكأنه إله .
وسأهد له بنفسى فراشا يؤويه ،
وأقدم له إلى جانب النار مقعدا يستدفئ عليه .
ولا أسأله إلا عنك وعن أحوالك .
فلتجرك الآلهة عن فعالك وعن رحمتك خير الجزاء .
وداعا ! لو أنك التفت إلينا وقلت قولاً كريماً ترد به الوداع !
إذن لترقت الريح وأفعمت الشراع ،
وتمهلت الدموع من أعين المفاقرين .
وداعا ! وناولنى يمينك توكيداً للود القديم .
وداعا !

طواس

اتتهت



اجمیت
مریم

أشخاص الرواية

مرغريت دى بارما	: ابنة شارل الخامس والوصية على الأراضى الواطئة .
الكونت إيجنت	: برنس دى جور .
غليوم دى أورانيان	
الدوق ألبا	
فردينان	: ابنه غير الشرعى .
مكيافيل	: فى خدمة الوصية .
ريشار	: كاتب سر إيجنت .
سلفا وكومتس	: فى خدمة ألبا .
كلارا	: عشيقه إيجنت .
أمها	
برا كنبورغ	: من أبناء المواطنين .
سوست	: بدال
يتر	: خياط
تسمرمان	من أهالى بروكسل
سيفنسيدير	
بويك	: من جنود إيجنت .
رويزم	: عاجز وأصم .
قانسن	: كاتب .
شعب ، حاشية ، حرس . الخ .	

الفصل الاول

رابعة عن القوس

جنود وأهال يحملون الأقواس والنبال

يتر: خياط من أهالي بروكسل ، يتقدم ويشد القوس
سوست: تاجر من أهالي بروكسل

سوست: ارم إذن ، لتكونوا جميعاً قد رميتم . إنك لن تنزع مني الظفر . ثلاث
حلقات سوداء لم تصبها في حياتك قط أصبتها أنا . فأنا الفائز هذا العام .
يتر: فائز وملك أيضاً . فمن يَنْفَسُهُما عليك ؟ لا بد لك عندئذ من أن تدفع ضعفي
من شرابك ، فهو ثمن مهارتك ، وهذا عدل .

بويك: هولندي وجندي من جنود إجمت*

بويك: يتر! إني أبتاع منك رميتك ، وأقاسمك الفوز . ثم على بعد ذلك أن أقرى
الضيف . فقد طال على الزمن هنا ، وبت مديناً بالفضل للكثيرين . فإذا أخطأت الهدف
ضاعت عليك الرمية ، وكأنك قد رميت .

سوست: إني حري بأن أعترض . فهذا في الحق خسران على . أجل يا بويك . ومع ذلك .
بويك: (يرى) . والآن أيها التلاعب ، احتراما ! حلقة . اثنتان . ثلاث . أربع .
سوست: أربع حلقات ؟ اتفقنا .

الجميع: يعيش الملك . يعيش . يعيش .

(*) بطل هذه الرواية . هو الكونت لامورال إجمت . برنس دى جور ، سليل أسرة إجمت الهولندية الشهيرة . أحرز تحت حكم فيليب الثاني ملك أسبانيا الذى سيحى ذكره ، مجداً حرياً عظيماً بالتصاريه على الفرنسيين فى سان كنتان وجرافيلجن فى سنتى ١٥٥٧ و ١٥٥٨ ، وعين حاكماً على الفلاندر وأرتوا . وقد كان أباً لأحد عشر طفلاً من زوجته الكونتس ساين البقارية . وتاريخه بعد ذلك وارد فى مؤسسه .

بويك : شكراً أيها السادة . كثير أن أكون الفائز . فلكم الشكر على هذا الشرف .
يتر : أنت الذى تشكر عليه .

رُويُزُم : فريزلى عجز وأصم

رويُزُم : أأقول لكم ؟

سُوست : ماذا ؟ أيها الهرم ؟

رويُزُم : أأقول لكم ؟ — إنه يرمى كسيده . يرمى كإجمت .

بويك : لست بالقياس إليه سوى رجل مُغَلَّب . إنه يصيب بالبندقية كما لا يصيب
أحد فى هذا العالم . وليس هذا إذ يكون محظوظاً مبتهجاً . كلا ! فحسبه أن يُسدّد ليصيب
دائماً فى الصميم . لقد تعلمت منه . ومن يخدمه ولا يتعلم منه فهو حمار . — لا تنسوا أيها
السادة أن الملك يطعم رجاله . فعلى حساب الملك : نبيذاً !

يتر : لقد اتفقنا على أن كُلاً منا —

بويك : أنا غريب وملك . فلا تلزمنى قوانينكم وعاداتكم .

يتر : أنت أردأ من الأسباب . فالأسبان لم يروا بداً إلى الآن من ترك هذه العادة لنا .

رويُزُم : ماذا ؟

سُوست : (بصوت مرتفع) إنه يريد أن يُضَيِّفَنا . ويرى أن لا نساخه وأن لا يكتفى
الملك بضعفى ثمن شرابه فقط .

رويُزُم : دعوه . فهى منه دون تحامل . وهو أيضاً أسلوب سيده فى الفخفة ، وترك
الأمر تجري مجراها .

(يأتون بالنبيذ)

الجميع : فى حمة جلالتك . يعيش

يتر : (لبويك) فليكن يا صاحب الجلالة .

بويك : أشكركم من كل قلبى ما دمتم تريدون هذا .

سُوست : فى صحتكم أتم . إذ ليس من هولندى يشرب من قلبه نخب ملكنا صاحب
الجلالة الأسبانية .

رويزم : من ؟

سوست : (بصوت مرتفع) . فيليب الثانى * ملك أسبانيا .

رويزم : ملكنا وسيدنا المعظم . أمد الله فى عمره .

سوست : ألم يكن والده شارل الخامس أحب إليكم منه ؟

رويزم : عليه رحمة الله . هذا هو السيد ، فقد بسط سلطانه على المعمورة كلها . وكان

لكم الكل فى الكل . فإذا لقيكم حيا كم كما يحى الجار الجار . وإذا تملكتم أحدكم هيئته عرف بلطفه — لا حاجة إلى المزيد فأنتم تعلمون . كان يخرج ، ويركب كلما عن له ، فى حاشية قليلة . وقد بكينا جميعاً ، حين نزل لابنه عن الولاية هنا — فأنتم تعلمون كما قلت . أن هذا غير أبيه . فهو أحرص على الأبهة منه .

يتر : إنه لم ير حين كان هنا ، إلا محفوفاً بمظاهر العظمة والمُلْك . إنه يتكلم قليلاً كما يقول الناس .

سوست : ليس هو بالسيد الذى يصلح لنا نحن أهالى الأراضى الواطئة . أمراؤنا يجب

أن يكونوا على شا كلتنا ، مريحين طلقاء النفس . يعيشون ويدعون غيرهم يعيش . ولسنا نحب أن نُزدرى أو نُضطهد ، مهما نكن مغفلين طبيى القلب .

يتر : أحسب الملك يكون رحيماً لو أن له خيراً من مستشاريه .

سوست : لا . لا . إنه لا يَكُنْ لنا حباً نحن أهالى الأراضى الواطئة . فليس قلبه بالذى

يميل إلى الشعب . إنه لا يحبنا ؟ فكيف نقابله بالحب ؟ لماذا يتعلق الجميع الكونت إجنث هذا التعلق ؟ ولماذا حملناه جميعاً على الأعناق ؟ لأننا نرى فيه أنه يُضمر لنا الخير . لأن المرح ،

(*) هو ابن الأمبراطور شارل كان حكم من سنة ١٥٥٥ — ١٥٩٨ ، وكان متعصباً عنيداً

طموحاً . اعتلى العرش وهو أقوى حاكم فى أوربا يخشى جانبه فطمع فى جيرانه ، واشتغى غروشمهم . وكانت الأراضى الواطئة مع غيرها من نصيبه بعد تنازل أبيه ، فسار فيها سيرة غاشمة ، واعتدى على حقوق الأقاليم وحراباتها ، واضطهد البروتستانتية ، وطارده معتنقيها الكثرين ونكل بهم . تزوج فى السادسة عشرة من ماري البرتغالية ، ثم تزوج من ماري تيودور ملكة إنجلترا ، وبلغ عدد من تزوجهن أربعاً . وسعى إلى السيطرة على إنجلترا وألمانيا فأخفق ، وناهض فرنسا فلم ينل منها وطراً ، وحاول إخضاع الأراضى الواطئة فلم تنفع . ومات ، وقد أضعاع بطمعه كثيراً مما جمعه أبوه ، فهلك فى زمنه الأرمادا الشهيرة ، وهى أسطول أسبانيا الذى أغرقته العاصفة ، فكان ذلك سبباً لتحكم إنجلترا فى مستعمراته ، وتحررت أقاليم الأراضى الواطئة السبعة .

والعيش على السجّية ، والرأى الحسن ، تُطل كلها من عينيه ، لأنه لا يملك شيئاً لم يشاطر المعوز إياه ، وغير المعوز أيضاً . يعيش الكونت إجمت . وأنت يا بويك ، من له أن يشرب النخب الأول ، اشرب في صحة سيدك .

بويك : من كل قلبي إذن . يعيش الكونت إجمت !

رويزم : الظافر في سان كاتان ،

بويك : وبطل جَرَاقِيلِنَجِن .

الجميع : يعيش .

رويزم : كانت سان كاتان آخر معركة لى . كدت أعجز عن التقدم . كدت لا أستطيع جر بندقيتي الثقيلة . ومع ذلك فقد أطلقت النار على الفرنسيين ، فودعوني بطلقة عابرة في ساق اليمنى .

بويك : جَرَاقِيلِنَجِن ، أيها الأصدقاء . هنا حمى الوطيس من جديد ، وكان لنا وحدنا النصر . ألم يَعِثُ الأجنب الكلاب فساداً في فلاندر بأسرها ؟ ولكنى أغنى أنا لقيناهم . وقد صمد لنا أَشِدَّاءُهم المجرَّبون طويلاً . خملنا ، ورمينا ، وأنزلنا الضربات . فكمدت وجوههم ؛ واضطربت صفوفهم ، وصرع عندئذ جواد إجمت من تحته . ولبثنا نحن فوق الرمل المتراعى المنبسط — رمل البحر ، في كر وفر . رجلاً لرجل ، وجواداً لجواد ؛ وشِرْدَمَةٌ لشِرْدَمَةٍ . وعلى حين بغتة دَوَّتْ من مصب النهر ، وكأنها نجدة من السماء ، مدافع كانت تحصد الفرنسيين ، وكانت للإنجليز عابرين تحت إمرة الأدميرال مالين ، قادمين من قرب دنكرك . وحقاً إنهم لم يعينونا كثيراً ، ولم يستطيعوا الاقتراب إلا بصغريات السفن ، فلم يقتربوا مع ذلك الاقتراب الكافى . وكانت طلقاتهم أيضاً تنزل بين ظهرانينا — لكنه كان في هذا نفع لنا . فتمزقت صفوف الأجنب ، وتفتوت منا العزائم . فاستعرت نار الحرب ، وأقبل من أقبل ؛ وأدبر من أدبر ؛ ونزلت المنية بكل شيء ؛ ونسف في الماء كل شيء ؛ وغرق الأندال حين ذاقوا طعم الماء ، ونحن في أثرهم — نحن الهولنديين — فأحسننا نحن الذين نعيش كالضفادع في الماء وعلى اليابسة ، راحة في الماء أول ما أحسننا وتعقبنا الأعداء في النهر بالطعن والضرب ؛ وأوقعنا بهم الهزيمة فنفروا كالبط . فمن نجا منهم تولت القرويات قتله عنكم بالفؤوس وأمشاط السباد وهو مدبرٌ . واضطر صاحب الجلالة الفرنسية

أن يمد يده في الحال ويسالم . وهذه السِّلْم أتم مدينون لنا بها ، مدينون بها لإجنت العظيم .
الجميع : يعيش . يعيش إجمونت العظيم . يعيش . يعيش .

يتر : ليتهم أقاموه علينا وصياً بدلاً من مارغريت دى برما .
سوست : ليس الأمر هكذا ؛ فالحق حق . ولست أؤاخذ مارغريت بشيء . هذا رأيي
لتعش سيدتنا المبجلة .

الجميع : تعيش .
سوست : إن في البيت نُجبةً من النساء الفضليات . فلتحي الوصية .

يتر : أنها حكيمة تتوخى القصد في كل ما تفعل . فليتها لا تستمسك بالقس
ولا تحرص عليهم هذا الحرص . أنها تحمل معنا تبعة بقاء قلانس الأساقفة الأربعة عشر
الجُدُد في البلاد . فقيم بقاؤهم ؟ أليس صحيحاً أن الأجانب يمكن أن يحشروا في المراکز
الطبية ، على حين كان يختار لها الأساقفة من الحفل الكنسى ، ويراد أن نصدق أن
ما يفعلون ، يخدمون به الدين . لقد حرنا في هذا حقاً . كان حسبنا ثلاثة أساقفة . كان كل
شيء يجري بالقسطاس والعدل . أما الآن فيريد كل من هؤلاء أن يظهر أنه لا غنى عنه ،
فيكون أن ينشأ الاستياء ، وتنشب القلاقل في كل لحظة . وكلما رجتم الشيء وهزتموه
اشتد كدره (يحتسون) .

سوست : كانت هذه إرادة الملك فلا تملك معها حذفاً ولا إضافة .

يتر : يريدون أن لا نشد المزامير الجديدة . وهى في الحق منطوقة جيداً . وألحانها
مهذبة للنفس . هذه المزامير لا ينبغي لنا أن نشدها ! ولكن نشد أغاني الخيلاء كما يحولنا !
ولماذا ؟ يقولون إن فيها كفرًا ! وأشياء يعلمها الله ! ولقد أنشدتها ، وهى شيء جديد لم يلح لى
فيه ما يستحق اللوم .

بويك : كنت أريد أن أسألكم . أننا نغنى في إقليمنا ما نشاء . وهذا لأن الكونت
إجنت حاكمنا . وهو لا يسأل عن مثل هذه الأشياء . وفي غنت وايبير وجميع نواحي فلاندر
يعنى هذه المزامير من يشاء (في صوت عال) ، وليس أبرء من نشيد كنسى ؟ أليس كذلك يا أبى ؟
رويزم : بلا مرء . فهو صلاة ، وهو تهذيب .

يتر : لكنهم يقولون إنه لم يُنحَ فيها النحو القويم ، ولم يتبع فيها أسلوبهم هم .

والخطر ماثل دائماً من طرق هذا الموضوع فأولى لنا أن نتركه . فخدام التفتيش يتسللون ويترصون . وكم من رجل شريف قد شقّ الآن . وكأنه كان ينقصنا أن تضطهد الضمائر أيضاً . وإذا كنت لا يجوز لي أن أفعل ما أريد . فلا أقل من أن يتركوني أفكر وأغنى على هواي .

سوست : إنه لا دخل للتفتيش بنا ؛ فلم نخلق كالأسبان نرضى الطغيان على ضمائرنا . ويجب أن يسعى النبلاء الحين بعد الحين إلى قص جناحيه .

يتر : إن هذا هو الخراب بعينه . فإنه إذا خطر لهؤلاء الأغرار أن يقتحموا على بيتي ، وأنا جالس إلى عملي ، أنعم مزموراً فرنسياً ، لا يتجه فكري فيه إلى شيء ، لا إلى الخير ولا إلى الشر ، وإنما أنعمه لانه في حنجرتي — إذا فعلت ذلك عدوني في الحال كافراً ، وزجّوا بي في السجن . أو إذا جُبت أطراف البلاد ، فوقفت بين جماعة من الشعب تستمع إلى واعظ جديد من أولئك الوعاظ الذين يقدمون من ألمانيا ، اعتبرت على المكان متمرداً ، وتعرضت لفقد رأسي . أفلم تسمعوا واحداً يعظ ؟

سوست : أناس شجعان . سمعت أخيراً واحداً يخاطب في الحقل آلاف الناس ، فكان شيئاً آخر غير وعاظنا الذين يقرعون الأسماع من فوق المنبر ، ويخفقون الناس بتلك الكيسر اللاتينية . كان يتكلم صراحة ويقول كيف كانوا إلى الآن يتغفلوننا وييقنوننا في الجهالة ، وكف يسعنا أن نستدير . كان يدلل على هذا كله من الإنجيل .

يتر : هذا قول حق . كثيراً ما قلته نفسي ، وأطلت التأمل فيه ، ودار بخدي من أمد بعيد .

بويك : إن الشعب كله يتبعهم .

سوست : أعتقد ذلك حيث يسمع الناس شيئاً طيباً وجديداً .

يتر : والآن ماذا هنالك ؟ في الوسع أن يترك كل إنسان يعظ على أسلوبه .

بويك : انتعشوا أيها السادة ! لقد أنستكم الثروة النبيل واورانيان .

يتر : هذا لا ينسى . إنه متراس يحتمي به . وحسب المرء أن يفكر فيه ليرى أن الشيطان نفسه لن يستطيع إلى امرئ سبيلا متى احتمي وراءه . فليعيش غليوم دي أورانيان .

الجميع : يعيش . يعيش .

سوست : وأنت أيها الهرم أعلن نخبك .

رويزم : في صحة الجنود القدماء أجمعين . لتحيي الحرب .

بويك : مرحى أيها الشيخ . في صحة الجنود أجمعين . لتحيي الحرب .

يتر : حرب ! حرب ! أتدركون ماذا تصيحون ؟ طبعي حقاً أن تفلت هذه الصيحة من الأفواه . لكني لا أستطيع أن أفصح حين أسمعها عن مبلغ ما يتصوره كل منا من ويلاتها . نسمع قرع الطبول طيلة العام ولا نسمع شيئاً غير أن كتيبة آتية من هنا وأخرى من هناك ، وأن قادمين جاءوا من ربوة ، ونزلوا في طاحونه ، وأن كذا بقى منهم هنا ، وكذا بقى هناك . نسمع كيف يتزاحمون ويتدافعون ، وكيف كسب فريق وخسر فريق من دون أن نعلم يوماً من الذي كسب ومن الذي خسر . وكيف سقطت مدينة وذبح أهلوها ، وماذا أصاب النساء البائسات والأطفال الأبرياء . هذا كرب . هذا رعب . وكل لحظة يقول المرء لنفسه « إنهم آتون . وأن مصيرنا حتماً هذا المصير » .

سوست : ومن ثم يجب أن يكون المواطن دائماً متدرّباً على حمل السلاح .

يتر : أجل . إنه يتدرب من له زوج وأولاد ، ومع ذلك أوثر أن أسمع عن الجند ولا أراهم .

بويك : هذا خليك أن يسيء إلى .

يتر : ليس لك هذا الكلام أيها المواطن . إننا تنفسنا الصعداء حين تخلصنا من حاميات الأسبان .

سوست : صحيح . فقد كنت أشدنا نكبة بهم .

يتر : أمغيظ أنت ؟

سوست : لقد أقاموا عندك فلم يكونوا خفافاً .

يتر : أمسك لسانك !

سوست : لقد أقصوه عن المطبخ والقبو والخدع — والفراش (يضحكون) .

يتر : إنك رجل بليد .

بويك : سلاماً أيها السادة . أيجب أن يدعو الجندي إلى السلام ؟ — أمّا وأنتم

لا تريدون أن تسمعوا عنا شيئاً فاشربوا في صحتكم . في صحة المدنيين .

يتر : لهذا نحن مستعدون . فلنشرب نخب الأمن والهدوء .

سوست : نخب النظام والحرية .

بويك : مرحى ! هذا يرضينا نحن أيضاً .

(يقرعون الكؤوس ويرددون الأناشيد مرحين بحيث إن كلامهم يهتف بغير ما يهتف به الآخر ، وتتوالى التهافتات متبادلة متلاحقة . أما الهرم فيصغى ثم ينضم أخيراً في الهتاف إليهم) .
الجميع : الأمن والهدوء . النظام والحرية .

فصل الوصية

مرغريت دي بارما في ثياب الصيد . رجال البلاط . غلمان . خدم

الوصية : ألقوا الصيد فلن أركب اليوم . قولوا لمكياقيل أن يحضر . (يخرج الجميع)
إن التفكير في هذه الأحداث المرعبة يجرمني الراحة . ليس ما يبهجنى ، وليس ما يروح عني .
دائماً هذه الصور وهذه الهوم ماثلة لعيني . سيقول الملك الآن إن هذه عاقبة طيقتي وتسامحي .
ومع ذلك فإن ضميري يحدثني كل لحظة بأن ما فعلتُ كان الأحكم والأصوب . أفكان ينبغي أن أزيد النار لهيباً بعاصفة من الحنق أرسلها تستعر في كل مكان ؟ لقد أملت أن أحصرها ، وأن أخمدتها في مهدها . بلى . إن ما أخطب به نفسي وما أعلمه علم اليقين يعذرنى أمام نفسي ؛ ولكن كيف يتقبله أخى . ثم أينكر هذا ؟ إن غطسة المعلمين الأجانب تزداد كل يوم . وقد دنسوا قداستنا وأتلفوا حواس الشعب البليدة وأفسحوا بينه لروح الغش .
فاختلطت بالثوار أطيف دنسة . ووقعت أفعال مرعبة ، يرتعد من يفكر فيها . ويتحتم على أن أوافي البلاط بتفصيلها ، وأن أعجل إليه بدقائقها ، حتى لا تسبقني إليه الصيحة العامة ، وحتى لا يظن الملك أني أريد أن أخفي عنه أكثر مما يبلغه . لقد أعيتني الحيلة في حسم الشر ؛ ولا أهتدى إلى وسيلة قاسية كانت أولئيلة . ما نحن العظماء في خضم البشرية ؟ نعتقد أننا نسيطر عليها ، وهي ترفعنا وتخفضنا ، وتدفعنا وتجذبنا .

(يدخل مكياقيل)

الوصية : هل سطرت الكتب إلى الملك ؟

مكياقيل : بعد ساعة تستطيعين توقيعها .

الوصية : أفصّلت التقرير بما فيه الكفاية ؟

مكيافيل : فصلت وأسهبته فيه كما يحب الملك ، قصصت كيف ثارت الثائرة على الصور في سان أومير أولاً . وكيف هاجم أولاً جمهوراً هائج مزود بالعصى ، والفؤوس ، والمطارق ، والمراق ، والحبال ، مصحوباً بفئة قليلة من المسلحين — كيف هاجموا الكنائس والبيع والأديرة وطرّدوا المصلين ، واقتحموا الأبواب الموصدة ، وقلبوا كل شيء رأساً على عقب ، ودكوا الهياكل ، وحطموا تماثيل القديسين ، وأتلفوا الصور كافة ، وهشموا كل مدشن ومقدس وجدوده ، ومزقوه وداسوه . وكيف تكاثرت عديدتهم في الطريق ، وكيف فتح لهم سكان إبير الأبواب ؛ وكيف خربوا الكنيسة الكبرى في سرعة خاطفة ؛ وكيف أحرقوا مكتبة الأسقف . وكيف تفشى جمهور عظيم من الشعب ، يملكه مثل هذا السخف ، في مينين وكومين وقرقيش وليل فلم يلق مقاومة في أى مكان . وكيف سَفَر وجه المؤامرة الهائلة في فلاندر بأسرها ونفذت في لحظة واحدة .

الوصية : لشد ما يتجدد ألى من إعادتك ، ويقترن بخوفى من أن يستفحل الشر ويتفاقم . أمدنى بأفكارك يا مكيافيل !

مكيافيل : عفواً يا صاحبة السمو ، فأفكارى شبيهة بالهواجس ، وعلى أنك كنت دواما مرتاحة إلى خدماتى ، فقد ندر أن اتبع نصائعى . كثيراً ما كنت تقولين فى ألم : إنك تنظر إلى أبعد مما ينبغى يا مكيافيل ؛ كنت خليقاً أن تكون مؤرخاً ! من يعمل يجب أن يحتاط لما هوأت . ومع ذلك ألم أتكهن بهذه القصة ؟ ألم أُنَبِّأ بكل شيء ؟

الوصية : إنى أتكهن أيضاً بالكثير ، من دون أن أقدر على تغييره .

مكيافيل : كلمة تغنى عن ألف ؛ إنك لا تقمعين العقيدة الجديدة . فآتركها تعتق ، واغزلى معتقها عن المؤمنين الصادقين . اعطيهم كنائس ، وأدرجها فى النظام المذنى ، وقيدنها ، تحملى التأثيرين دفعة واحدة على الإخلاق إلى السكينة . وكل وسيلة غير هذه لا تجدى ، بل تجرين بها الخراب على البلاد .

الوصية : أنسيت كيف نفرأخى ورفض حتى أن يُسأل : أفى الإمكان الإغضاء عن العقيدة الجديدة ؟ ألا تعلم كيف أشار على فى ذلك الكتاب بأن أحرص كل الحرص على سلامة العقيدة الحقّة . وأنه لا يجب أن يسمع عن رد الهدوء والاتحاد إلى نصائهما ، على

حساب الدين ؟ ألا يتخذ لنفسه فى الأقاليم عيوناً نجهلها نحن ليعرف من يميل إلى الرأى الجديد ؟ ألم يذكر لنا للعجب الشديد ، أسماء من يتورطون خفية فى الهرطقة على مقربة منا ؟ ألم يأمر بالصرامة والشدة ؟ ثم يراد أن أكون رحيمه ؟ وأن أقترح عليه أن يتساهل ، وأن يعض الطرف ؟ ألا أفقد بهذا كل ثقة وكل يقين له بى ؟

مكيافيل : أعلم جيداً أن الملك يأمر ، وأنه يحيطك بنياته ، وأن عليك أن تعيدى الهدوء والسلام بوسيلة لن تفلح إلا فى زيادة الامتعاض ، وفى إشعال نار الحرب فى كل مكان ، فتدبرى ما تفعلين . إن كبار التجار قد سرت العدوى إليهم كما سرت إلى النبلاء والشعب والجنود ، فما يفيد الإصرار على رأيه ، وكل شئ من حولنا يتبدل ؟ ليت روحاً طيبة تحمى فيليب فيعلم أنه أكرم للملك أن يحكم رعايا بعقيدتين ، من أن يدفع بعض هؤلاء الرعايا ببعض .

الوصية : حذار من أن تعيد هذه الكلمة مرة أخرى . أعلم جيداً أنه يندر أن تعرف السياسة الوفاء والإيمان . وأعلم أنها تحرم علينا الصراحة والطيبة والتساهل . وهذا للأسف حقيقى ، وفوق الحقيقى فى أمورنا الدينوية . أفينبغى أيضاً أن نعبث بالله كما نعبث بأنفسنا ؟ أينبغى أن لا نكثر لعقيدتنا السليمة التى ضحى من أجلها الكثيرون بأنفسهم ؟ أمثل هذه العقيدة يراد أن نسلمها إلى بدع حادثة ، مزعومة ، متناقضة ؟

مكيافيل : لا يجعلك هذا تردادين سوء ظن بى .
الوصية : إنى أعرفك وأعرف إخلاصك ، وأعلم أن المرء يمكن أن يكون رجلاً شريفاً عاقلاً ، وإن فاتته راحة النفس فى أول فرصة . وهناك يا مكيافيل رجال آخرون أقدرهم وألومهم معاً .

مكيافيل : إلى من تشيرين ؟

الوصية : إنى أستطيع أن أعترف بأن إجمت قد أثار اليوم فى نفسى سخطاً عميقاً .

مكيافيل : بأى شئ فعل ؟

الوصية : بسلوكه المألوف ، بقلة اكترائه وخفته . لقد تلقيت الرسالة الخفيفة فى الوقت الذى خرجت فيه من الكنيسة بصحبة الكثيرين ورفقته ؛ فلم أكنم ألى . بل شكوت

جهاراً . وصحت وأنا ألتفت إليه : انظر ما هو حادث في إقليمك ، أعلى هذا تصبر يا كونت وأنت من توسم فيه الملك كل خير ؟

مكيافيل : وبم أجاب ؟

الوصية : أجاب كأن لم يكن في الأمر شيء ، وكأن الأمر ثانوى . أجاب : ليُفرخ أولاً روع الهولنديين من نحو دستورهم يستتب الأمر فيما خلا ذلك .

مكيافيل : لعله كان في كلامه أصدق مما كان أحكم وأكيس . وكيف تنشأ ثقة وتقوم إذا رأى الهولندى ، أن الاهتمام بأملأه ، أكثر من الاهتمام بخيره وراحة نفسه ؟ هل أنقذ المطارنة الجدد من الأنفس أكثر مما أكلوا من الأموال ؟ ثم هم إلى ذلك أليسوا غرباء ؟ لا تزال مناصب الولاة بأيدي الهولنديين ، ولكن ألم يظهر الأسباب جلياً أن أعظم ما يشتهون وما لا يستطيعون مغالبتة هو هذه المناصب ؟ ألا يؤثر شعب أن يحكمه أبناؤه على أسلوبه ، على أن يحكمه غرباء ، جل همهم في البلاد أن يقتنوا الأملاك على حساب الجميع ، وأجانب ، يقيسون الأمور بغير قياسهم ، ويحكمونهم حكماً لا لين فيه ولا هودة ؟

الوصية : إنك تناصر الخصوم .

مكيافيل : ليس بقلبي على التحقيق ، ولم وددت أن أكون برأسى لجماعتنا نعم النصير .

الوصية : إذا شئت واقتضى الأمر نزلت لهم عن الوصاية . ذلك أن إجمت وأورانيان* يتطلعان كثيراً إلى هذا المركز ، وقد كانا فيما سلف خصمين . فالآن يتحدان على ، ويصبحان صديقين ، لا ينفصلان .

مكيافيل : زوج خطر .

الوصية : أأتكلم بإخلاص ؟ إنى لأخشى أورانيان وأخاف على إجمت . فأورانيان

لا يضمّر خيراً ، وأفكاره بعيدة القرار . إنه خفيّ ويلوح قابلاً لكل شيء ، لا يعارض

(*) هو الدوق غليوم أورانيان سليل بيت أورانيان ، وأمير من أمراء الأراضي الواطئة الذين ناهضوا حكم الأسبان . كان في طبيعة المجاهدين في سبيل حرية بلاده ، فلما قدم دوق ألبا إلى الأراضي الواطئة وتوقع أنه يبيت الشر كما سيحى ذكره هرب إلى ألمانيا . ثم حاول هو وأخوه غزو بلاده ، وطرد الأسبان منها فأخفق . سكنه في سنة ١٥٧٢ وفق على رأس حلف الأمراء في الاستيلاء على بعض الأراضي الواطئة ، ومعظم المدن الهولندية ثم اتحدت الأقاليم السبعة — أقاليم الأراضي الواطئة — تحت إمرته ، وأعلنت في سنة ١٥٨١ انفصالها عن أسبانيا ، وشهرت الحرب عليها . وقد مات أورانيان بعد تحرير بلاده ، وإن جاء الاعتراف باستقلالها متأخراً .

أبداً . لكنه بكل احترام وفي حذر شديد يفعل ما يشاء .

مكيافيل : على النقيض من هذا تماماً يسير إجمت على هواه كأنما الدنيا ملك له .

الوصية : إنه متغطرس أكثر مما ينبغي ، كأنما يد صاحب الجلالة لا تعلو عليه .

مكيافيل : إن أعين الشعب متجهة كلها إليه ، والقلوب متعلقة به .

الوصية : لم يحاول أبداً أن يخفي شيئاً ، كأن ليس من يستطيع مناقشته الحساب .

ولا يزال يحمل اسم إجمت . يسره أن ينادوه بالكونت إجمت كأنما لا يجب أن ينسى

أن أجداده كانوا ذوي ثروة ومال . لماذا لا يتسمى بيرنس دى جور كما هو من حقه ؟ لماذا

يفعل هذا ؟ أيريد أن يسترد حقوقاً ضاعت ؟

مكيافيل : إنى اعتبره خادماً مخلصاً للملك .

الوصية : لو شاء لكان له فضل على الحكومة بدل أن يسخطنا سخطاً لا مزيد عليه ،

من دون نفع يجنيه . إن مجتمعاته وولائمه ومآدبه قد ألفت بين النبلاء ووثقت روابطهم ،

أكثر مما فعلت الاجتماعات السرية الخطرة . لقد تولت ضيوفه من انتخابه نشوة دائمة ،

وتملكهم دوار لن يفيقوا أبداً منه . كم حرك بكاهاته نفوس الشعب ، وكم أذهل الدهماء

بيذات خدمه الجديدة وشاراتهم السخيفة .

مكيافيل : أعتقد أنه لم يكن عامداً !

الوصية : حسبُه هذا . إنه يُضِرُّ بنا كما قلت ولا ينفع نفسه . إنه يقابل الجد بالسخر .

ونحن لكي لا نبذو متهاونين متساحمين نقابل سخره بالجد . هكذا يثير الواحد الآخر ، فإذا

الذى يُحاول المرء دفعه قد رسخ وتقرر . إنه أخطر ممن يدبر المؤامرة متعمداً . وإنى لأكون

مخدوعة جداً إذا لم يكن البلاط يظن به الظنون . ولا أستطيع أن أنكر أنه لا يفتأ يثيرنى ،

ويثيرنى جداً .

مكيافيل : إنه يبدو لى فى كل ما يعملهُ مرضياً ضميره .

الوصية : إن لضميره مرآة ترضيه ، وسلوكه مهين غالباً . إنه يلوح كما لو كان يعيش

مقتنعاً كل الاقتناع بأنه سيد . وأنه يريد تفضلاً منه أن لا يشعرنا بذلك . يريد أن لا يطردها

إلى بلادنا لأن هذا سيكون يوماً ما .

مكيافيل : أرجوك يا صاحبة السمو أن لا تغلى فى تفسير الخطر من صراحته ، ودمه

الحامى ، الذى يجعله يستخف بكل جليل . إنك إذا تلحقين به و بنفسك الأذى .
الوصية : إني لا أفسر شيئاً . بل أتكلم عن العواقب التى لا مفر منها . وأنا أعرفه .
إن نبه الهولندى وقلادة الفروة الذهبية فوق صدره يقويان ثقته ، ويزيدان من جرأته .
وكلاهما يحميه من غضب الملك إذا جاء سريعاً متعسفاً . تحرر الأمر بدقة تجد أنه وحده
المسئول عن كل الشقاء الذى يلم بفلاندر . لقد أغضى أولاً عن الوعاظ الأجانب ، ولم يدقق
فى أمرهم . ولعله سُر فى نفسه من أننا نلقى المتاعب — دعنى أتم كلامى . إن ما يمضى يجب
بهذه المناسبة أن أنفضه . ولست أحب أن تطيش سهامى ، فأنا أعلم أين حساسيته . فهو
أيضاً حساس .

مكيافيل : هل دعوت المجلس إلى الاجتماع ؟ أياقنى أورانيان أيضاً ؟
الوصية : لقد بعثت إلى أنفرس فى طلبه . إني أريد أن يحملوا أيضاً معى عبء التبعة .
يجب أن يناهضوا معى الشرّ جادين ، أو يعلنوا عصيانهما . عجل بإعداد الرسائل وأحضرها إلى
التوقيع . ثم أنفذ بأسكا الأمين إلى مدريد على عجل ، فهو جلود مخلص ، حتى يعلم أخى النبأ
منه أولاً ، وحتى لا تسبقه الصيحة . أريد أن أكلمه بنفسى قبل أن يرحل .
مكيافيل : ستنفذ أوامرك فوراً وبدقة .

بيت من بيوت الرعية

كلارا . أم كلارا . برا كنبورغ

كلارا : ألا تمسك الخيط لى يا برا كنبورغ ؟
برا كنبورغ : أرجوك يا كلارا ! أمّا أعفيتنى ؟
كلارا : ما بك من جديد ؟ لم تأبى على هذه الخدمة الحبيبة الصغيرة ؟
برا كنبورغ : إنك تستبقينى بالغزل فى مواجعتك حتى لا قبل لى بالتفادى من عينيك .
كلارا : وسأوس ! تعال وأمسك .
الأم : (على مقعد تحيك) — غنيا شيئاً . فبرا كنبورغ يحسن السند . وإلا فقد
كنّا تتمازحان ، وكان لى دوما ما أخحك منه .
برا كنبورغ : كنا .

كلارا : فلنغن !

براكنبورغ : كما تريدن .

كلارا : فلننشط إذن ولنبدأ بحمىة . فهى أغنية جندى . وأنشودتى المحبوبة

(تلف الحيط وتغنى مع براكنبورغ) :

يا لقرع الطبول	يا لعزف القرب
يا لأمر الحبيب	فى الكتية اللجب
مشرا للسنان	يحكم المرتب
يا لخلق الفؤاد	ها دعى يلتب
ليتنى أرتدى	سترة والنقب
وترين هامتى	كمه المحتر

أبرح المدينة	فى ركاب الحبيب
بخطى جريئة	وثبات عجيب
لنواح غدت	للعو لا تطيب
والعدو ممعن	فى الفرار لا يجيب
أن تكون فى الرجال	ذاك حظ إن تصب

(ينظر براكنبورغ فى أثناء الغناء إلى كلارا مراراً . وأخيراً يحتبس صوته وتخل عيناها بالدموع ويسقط الملف ، ويذهب إلى النافذة ، فتكمل كلارا الأغنية وحدها ، فسرعان ما تومى إليها الأم مستاءة ، فتنهض وتخطو فى أثره خطوات ، ثم ترتد نصف مترددة وتجلس)

الأم : ما هنالك فى الزقاق يا براكنبورغ ؟ اسمع سير الجند .

براكنبورغ : إنه حرس الوصية .

كلارا : فى هذه الساعة ؟ ما معنى هذا ؟ (تقف وتذهب إلى براكنبورغ عند النافذة)

ليس هذا بالحرس اليومى . إنه أكثر عديداً بكثير . يكاد يكون بجمعه كله . اذهب يا براكنبورغ وتسقط الطير . لا بد أن يكون هناك شىء غير مألوف . اذهب يا براكنبورغ الطيب وأولنى هذا الجميل .

برا كنبورغ : أنا ذاهب وسأعود حالا (يعد إليها يده وهو منصرف فتناوله يدها) .
الأم : تقصينه مرة أخرى .

كلارا : إني أستطلع ما هنالك . ومحضره أيضاً يؤلّنى فلا تؤاخذينى . لا أزال
فى حيرة من أمرى لا أدرى كيف أعامله . فقد أسأت إليه . ويحز فى قلبى أنه شديد
الإحساس بهذا من نحوى — ولكن ما حيلتى فى ذلك .
الأم : إنه فتى شديد الوفاء .

كلارا : ولست لهذا بمتخيلة عنه ؛ فيجب أن أتلفف معه . كثيراً ما تضغط
يدى بقتة على يده حين يمسكها فى رفق وحب ، وإنى لأخذ نفسى بأنى أخدعه ، وأنى
أُحِبُّ فى قلبه أملاً ضائعاً . وإنى لمسيئة فى هذا ، لكننى علم الله لا أخدعه . ولا أحب أن
أرخصى له فى حبل الأمل . ثم إننى لا يسعنى أن أسلمه لليأس .
الأم : ليس هذا بالحسن .

كلارا : لقد أحببته فيما سلف ، ولا أزال أحفظ له فى نفسى ودّاً . وكان يمكن
أن تنزوج . لكننى أعتقد أنى لم أعظم به قط .
الأم : كنت خليفة أن تظلى سعيدة دائماً معه .

كلارا : كنت إذن كفيت الحاجة ، وكنت عشت معه عيشة هادئة .
الأم : وهذا كله قد أفسدته بيدك .

كلارا : إننى لنى موقف عجيب . حين أفكر كيف وقع ما وقع أرانى مدركة
له ، وأرانى غير فاهمة إياه . ولأر بعد ذلك إجمت مرة أخرى . يصبح كل شىء فى نظرى
مفهوماً جداً ، بل أكثر كثيراً من مفهوم جداً . آه ! ما أعظم هذا الرجل الواحد . كل الأقاليم
تعبده . وأنا فى ذراعه ، ألسنت أسعد مخلوقة على وجه الأرض ؟
الأم : كيف يكون هذا فى المستقبل ؟

كلارا : أخ ! إنى لأسأل فقط . هل يحبنى ؟ وهل حبه لى موضع سؤال ؟
الأم : ليس للأم غير مخاوف القلب من نحو أطفالها . وكيف تكون النتيجة ؟
دائماً هما وحرنا . إن نهاية هذا لن تكون حسنة . وقد شقيت وشقيت بك .
كلارا : (هادئة) لقد أغضيت عن ذلك بادئ ذى بدء .

الأم : كنتُ للأسف أطيّب مما ينبغي ، وأنا دائماً أطيّب مما ينبغي .
كلارا : حين مرّ إجنّت راكباً ، وهُرعتُ إلى النافذة . أنهيتني ؟ ألم تأتني إلى النافذة
نفسك ؟ وحين رفع بصره وابّسم ، وأوماً برأسه ، وحياتي ، أسخطك ذلك ؟ ألم تشعرى
بأنك كُرمّت في شخص ابنتك ؟
الأم : أتوجيهن إلى ملاما أيضاً ؟

كلارا : (متأثرة) وحين كان يكثر من المرور بالشارع ، وكنا نحس أنه إنما يسلك هذا
الطريق من أجل ، ألم تلاحظي ذلك فرحة في نفسك ؟ أ كنتِ تدعيني إلى الارتداد عن
النافذة حين كنت أقف وراء زجاجها أترقب مجيئه ؟
الأم : أ كنتِ أظن الأمر يذهب إلى هذا الحد ؟

كلارا : (بصوت محتبس ودمع مكبوح) — ولما باغتتنا مساءً عند المصباح ملتفا بعباءته ،
من غنى باستقباله ، إذ أنا على مقعدى كالمسمرة أتأمله مشدوّهة ؟

الأم : أوسعني أن أتوقع وشيكاً أن يكتسح هذا الحبّ الأسيفُ كلارا الحكيمة .
الآن يجب أن أتحمّل أن تكون ابنتي —

كلارا : (في دمع متفجر) أماه ! إذن تريدن هذا ! إنك تجدين مسرة في إزعاجي .
الأم : (باكية) — إبكي أيضاً . زيدى باكتئابك شقائى ! أليس حسبي حزناً أن
تكون ابنتي الوحيدة مخلوقة مرذولة ؟

كلارا : (تنهض في برود) — مرذولة ! حبيبة إجنّت مرذولة ؟ أية أميرة لم تحسد
كلارا الفقيرة على مكانها من قلبه ؟ أماه ! — أماه ! . ما هكذا كنت تتكلمين . أحي
الحبيبة ، كوني رحيمة ! الشعب وظنونه ، والجارات وما يلعطن به ، كل هذا أجعله دبراً
أدنى مادامت هذه الحجرة وهذا البيت الصغير قد بات لي جنة النعيم مذ سكنه حب إجنّت .
الأم : يجب أن يكون المرء معه ظريفاً ؛ هذا صحيح . فهو دائماً لطيفٌ ، سمحٌ ، صريحٌ .
كلارا : إنه لا ينبغي بنا شراً . انظري أماه ! فهو مع ذلك إجنّت العظيم . وحين
يزورني كم يتودد إليّ ، وكم يتلطف معي ، كم ود أن يخفي عني مركزه ويكتم فعاله . كم يقلق
عليّ ! وهو في هذا إنسان فحسب ، وصديق فحسب ، وأحب الناس إليّ فحسب .
الأم : أهوأت اليوم ؟

كلارا : ألم ترينى أكثر التردد على النافذة ؟ ألم تلحظى كيف أنصت كلما سمعت حساً بالبواب ؟ أعلم أنه لن يأتى قبل إقبال الليل . ومع ذلك فهو فى حدسى فى كل لحظة منذ الصباح ، ومنذ أنهض . ليتنى غلام أستطيع أن أرافقه دوماً إلى البلاط وفى كل مكان . ليتنى قادرة على أن أحمل علمه ، حين يحمى الوطيس ويدور القتال .

الأم : لقد كنت دائماً فتاة رعناء . مذ كنت طفلة وأنت تشورين تارة وتارة تقرين . ألا تغيرين ملابسك هذه بخير منها ؟

كلارا : قد أفعل يا أماه ، حين أضجر — أمس ، مر بعض رجاله يغنون الأغانى فيه . كان اسمه على الأقل فى تلك الأغانى . أما ما خلاه فلم أفهمه . لقد خفق قلبى حتى طغت دقاته على عنقى . كنت حرة أن أستوقفهم لو لم يتولنى الخجل .

الأم : حذار . إن طبيعتك العنيفة تقسد عليك كل شئ . إنك تفضحين نفسك أمام الناس . كذلك فعلت أخيراً عند ابن عمك . إذ وجدت الصورة ومدلولها ، فصحت على الفور : كونت إجمت . وصعد الدم الحار إلى وجهى حينذاك .

كلارا : أكان ينبغى ألا أصبح . لقد كانت صورة معركة جرافيلنجن . وقد وجدت حرف « ج » وقرأت فى بيان هذا الحرف : الكونت إجمت وقد صرع جواده من تحتة . لقد سرت الرعدة فى جسمى — ثم لم ألبث أن ضحكت لرؤية إجمت فى الصورة المحفورة ضخماً كبرج جرافيلنجن . والسفن الإنجليزية بجانبه — إننى حين أذكر كيف كنت أتصور المعارك ، وكيف كنت وأنا فتاة ، أتخيل الكونت إجمت من حديث الناس عنه ، وأتخيل سائر النبلاء والأمراء — وكيف أنا الآن .

(يأتى براكنبورغ)

كلارا : ما وراءك .

براكنبورغ : لا يعلم أحد بالخبر اليقين . يقال إن اضطراباً وقع حديثاً فى فلاندر وإن الوصية يقلقها أن يمتد إلى هنا . والقصر قد عُزِّزَ حراسه ، والأهالى عديدون عند أبواب المدينة ، والشعب يلفظ فى الأزقة — أريد أن أبادر إلى أبى الشيخ (هم بالانصراف) .

كلارا : أأراك غداً ؟ أريد أن أعدّل ثيابى قليلاً . فابنى عى آت . ومظهرى غير

لا تقي بحال . عاونيني لحظة يا أماء . خذ الكتاب معك يا برا كنبورغ . وعد إلى ثانية بحكاية كهذه .

الأم : أستودعك الله .

برا كنبورغ : (مادأ يده) يدك .

كلارا : (مانعة يدها) حين تعود . (تصرف الأم والبنت) برا كنبورغ (وحده)
كنت أعزم أن أعود أدراجي من فوري فلما لم تمنع وتركتني أمضي ، أرى بي ميلا إلى أن
أثور — يا للتعس ! ومصير وطنك ، ألا يحرك ساكنك ؟ والفتنة المستفحلة ، لا ؟ — وسيان
عندك المواطن والأسباني ؟ ومن يحكم وصاحب الحق ؟ — أكنت في الصبية شيئاً آخر غير
التلميذ . — حينما كنا نعطي تمريناً : « خطبة بروتس في الحرية » للتمرن على فن الخطابة .
كان دائماً فريتش هو الأول ، وكان المدير يقول لي لو أن إلقاءك أحسن قليلاً ! لو لم يزحم
كل شيء في ذهنك بعضه بعضاً ! — عندئذ كانت نفسي تغلي وكل ما فيها يدفعني —
والآن أراي أجور نفسي جرأً وتجذبني عينا الفتاة ، لا أستطيع عنها حولا . ولا أستطيع أن
تجبنى . — ولكن — لا — إنها — إنها لا يمكن أن تكون نبذتي كل النبذ — ليس
كل النبذ — نصفه ، لا شيء . — لا أحتمل هذا أكثر مما احتملت . — أحيي
ما همس به صديق في أذني حديثاً ؟ قال إنها تستقبل عندها رجلاً بالليل خفية . إذ هي تقصيني
دائماً قبل المساء عن البيت شأن ذات عفاف . لا . ليس هذا صحيحاً . إنه افتراء ، إنها سعاية
خسيسة . فكلارا بريئة كما أنا شقي ، ما في ذلك شك — إنها نبذتي . وعن فؤادها نفتني .
وأعيش بعد هذا هكذا ؟ لا أحتمل . إني لا أحتمل . — إن وطني تهزه أعاصير الفتنة
الداخلية . وأفنى أنا مغموراً ؟ لا أطيق هذا ! — حين ينفخ في البوق وأسمع طلقاً ترتعد
فرائصي ! واهألى ! ما أرى الأمر يستغزني . ما أراه يدعوني إلى المشاركة في الجهاد ، والمساهمة
في الإنقاذ والإقدام — يالها من حال تعسة مريرة ! خير لي أن أنتهي دفعة واحدة . حديثاً
دفعت بنفسي إلى الماء . ففصت — لكن الطبيعة المروعة كانت أقوى مني ، فأحسست
أنني أستطيع السباحة ، وأقذت نفسي على الرغم مني — أكان يسعني أن أنسى الأيام التي

فيها أحبتي أُولاح لي أنها تحبني ؟ لماذا سرت الرجفة في أعضائي ، رجفة الهناء ؟ لماذا التهمت هذه الآمال مُتّع حياتي حين لوّحت لي بالفردوس من بعيد ؟ — وتلك القبلة الأولى ! القبلة الوحيدة ! — هنا (يضع يده على المائدة) هنا كنا وحدنا — وكانت دائماً طيبة معي ، ودودة لي — هنا لاحت تتملكها الصباغة فنظرت إلى ! فتخدرت حواسي ، وأحسست شفقتها على شفتي — و — والآن ؟ — مت أيها المسكين . فيم ترددك ؟ (يخرج زجاجة من جيبه) . لم أسرقك عبثاً من حقبة الطبيب التي يحملها أخي . أيها السم الشافي ! إليك هذا الروح ، وهذا الدوار ، وهذا العرق المتصبب من خشية الموت فابتلعه وافنيه .

الفصل الثانی

میدانہ فی بروکسل

یتر ومعلم نجار یدخلان معاً

المعلم النجار : أَلَمْ أَتَّبَأْ بهذا؟ من ثمانية أيام فقط قلت في النقابة إن قلاقل شديدة ستقع .

يتر : أَصَحِّحْ إذن أنهم نهبوا الكنائس في فلاندر ؟

المعلم النجار : لقد هدموا الكنائس والبيع — ولم يبقوا إلا الجدران الأربعة عارية .

كلهم خثالة ورعاع ! وهذا يفسد علينا قضيتنا العادلة . كان ينبغي أن نرفع الأمر إلى الوصية متمسكين بأهداب النظام وبحقنا ، ونقف عند هذا الحد . أما الآن فإذا تكلمنا ! وإذا اجتمعنا ! كان معنى ذلك أننا نؤازر الثوار .

يتر : أجل . هذا ما يراه كل منا لأول وهلة . وماذا تستطيع بأفك في المقدمة ؟ إن عنقك مرتبط به عن كُتْب .

المعلم النجار : إنه لما يقلق أن يرتفع اللفظ مرة بين الرعاع ، بين الدهماء الذين ليس لديهم ما يفقدون ، فمثلهم في حاجة إليه ، ليتخذوه ذريعة لجر الشقاء على البلاد . وهذا أمر يجب أن نلوم أنفسنا عليه .

(سوست ينضم)

سوست : عَمَّا صباحاً أيها السيدان ! هل من جديد ؟ أَصَحِّحْ أن مهاجمي الصور يقصدون إلى هنا رأساً ؟

المعلم النجار : ليس لهم ما يمسونه عندنا .

سوست : لقد دخل عندي جندي يشتري طباقاً ، فعلمت منه الكثير : عَلِمْتُ أن الوصية ، هذه السيدة الحكيمة الباسلة ، قد ثارت ثأرها هذه المرة . ولابد أن يكون الأمر جللاً ، حتى دفعها إلى أن تحتّم هذا الاحتماء وراء حرسها . إن القلعة تزخر بالجنود ؛ بل إنه يقال إنها تريد الهرب من المدينة .

المعلم النجار : ينبغي ألا تخرج ؛ فوجودها يحمينا . نريد أن نضمن لها من السلامة

أكثر مما تتيحه لها شوارب حرسها الفتولة . وإذا حفظت لنا حقوقنا وحرّياتنا حملناها على الاعناق .

(ينضم سيفنسيدير)

سيفنسيدير : قلائل شنيعة . قلائل سيئة . سيضطرب الحبل ويفسد الأمر . احرصوا على أن تظلوا هادئين حتى لا يعتبروكم من الثوار .

سوست : ها هم أولاء الحكماء السبعة آتون من اليونان .

سيفنسيدير : أعلم أن ثمة كثيرين ضالعين سرّاً مع الكالفينيين يذمون الأساقفة ولا يهابون الملك . لكن المواطن المخلص والكاثوليكي الأمين (ينضم إليهم شيئاً شيئاً) أعماط مختلفة من الشعب ويصفون إليهم) .

(يتقدم فانسن)

فانسن : حياكم الله أيها السادة . هل من جديد ؟

العلم النجار : لا شأن لكم به ، فهو امرؤ سوء .

يتر : أليس هو كاتب الدكتور فيتس ؟

العلم النجار : لقد خدم سادة كثيرين . كان كاتباً في مبدأ أمره ؛ فلما طرده سيد إثر سيد نخبث فعالة ، جعل يحشر نفسه الآن في زمرة المسجلين والمحامين . وهو إلى هذا سكير .

(يتكاثرون الناس ويقفون جماعات) .

فانسن : أتم أيضاً مجتمعون تتهامسون . هذا يغرى دائماً بالكلام .

سوست : هذا رأيي أيضاً .

فانسن : لو كان لهذا أو ذاك قلب ، ولهذا أو ذاك رأس أيضاً لاستطعنا أن نحطم

أغلال الأسباب دفعة واحدة .

سوست : يارجل ! ما هكذا يكون الكلام ! فقد أقسمنا للملك يمين الطاعة .

فانسن : وأقسم الملك لنا . لاحظوا ذلك !

يتر : هذا يستحق السماع . فما رأيك ؟

بعض آخر : اصغوا ! إنه ملم . إنه أريب .

فانسن : كنت أعمل عند هرميمك رقوقاً ورسائل من معاهد قديمة ، وعقوداً

وأحكاما . وكان يقدر أندر الكتب ، وكان في إحداها دستورنا بأمله ، وكيف كان يحكمنا نحن الهولنديين بادی ذی بدء بضعة أمراء طبقا لحقوق وامتيازات وعادات آيلة . وكيف كان أجدادنا جميعاً يبجلون أميرهم عند ما يحكمهم بما يرضى الله . وكيف كانوا يحتاطون للأمر إذا حدثته نفسه بقطع الجبل ، وكيف تكونت الولايات إثر ذلك ، فكان لكل مقاطعة ، بالغاً ما بلغ صغرها ، ولاياتها وأملاكها .

المعلم النجار : فكافك ثرثرة ! فكلنا يعلم هذا من قديم ، وكل مواطن مستقيم يعرف من الدستور ما يحتاج إليه .

يتر : دعه يتكلم ؛ فالمرء يزداد دائماً علماً .

سوست : إنه محق كل الحق .

عديدون : تكلم ! تكلم ! فمثل هذا لا يسمع كل يوم .

فانسن : أفأنتم إذن أهل البلاد ؟ إنكم تعيشون حيثما اتفق . وكما آلت إليكم حرفكم من آباءكم كذلك آل إلى الحكومة الأمر والنهي فيكم كما تستطيع وتحب . إنكم لا تسألون عن الأصول ، عن التاريخ ، عن حق الوصي . فوقعت من جراء ما فاتكم في شرك الاسهان .

سوست : من يفكر في هذا وعنده قوت يومه .

يتر : سحقا ! لم لا يظهر أحد الحين بعد الحين ، ويقول لنا مثل هذا الكلام ؟

فانسن : إني أقولها لكم الآن . إن ملك اسبانيا الذي جعله الحظ ملكا على لأقاليم ، لا يجوز له أن يحكم ويسود ، بغير ما حكم وساد الأمراء الصغار فيما كان لهم فرادى من مقاطعات في سالف الزمان . أفنهمون ؟

يتر : وضح لنا .

فانسن : هذا أوضح من الشمس في رابعة النهار . أما يجب أن يُقضى فيكم حسب قوانين البلاد ؟ فكيف كان ذلك ؟

أحد الأهالي : حقاً !

فانسن : أليس لأهالي بروكسل قانون يختلف عن قانون أهالي أنفريس ؟ وللاُنفرسي غير ما للجنتي ؟ فكيف كان ذلك ؟

آخر : صحيح !

فانسن : فإذا تركتم الأمر يجرى كما يجرى ، أمرتم وشيكا بغير ما تجيزه قوانينكم .
خسوا لكم ! إن ما يحجز عنه شارل الجري وفريدريك المحارب وشارل الخامس يفعلهُ فيليب
على يد امرأة !

سوست : عندك ! فالأمراء القدماء قد فعلوه أيضاً .

فانسن : بلا مرأ ! — كان أجدادنا يقظين . فإذا ما حَفَقُوا على سيد قبضوا على
ابنه وورثته ، وارتهنوه عندهم ، ولم يردوه إلا بخير الشروط . إن آباءنا كانوا رجالا . كانوا
يعرفون ما ينفعهم ، كانوا يعرفون كيف يقبضون على الشيء فلا يفلتونه . فهم رجال حقا .
ومن ثم كانت امتيازاتنا جلية واضحة ، وحریاتنا مؤكدة .

سيفنسيدير : ماذا تقول عن حرياتنا ؟

الشعب : عن حرياتنا ، عن امتيازاتنا ، حدثنا عن امتيازاتنا .

فانسن : نحن البرابنتيين ، وإن كانت للأقاليم جميعا مزاياها ، مَزَوْدُون خاصة بخير
ما هنالك . لقد قرأت كل شيء .

سوست : نبئنا !

يتر : أسمعنا !

مواطن : أرجوك !

فانسن : مكتوب أولا : ينبغى أن يكون الدوق دى برابانت لنا سيذا صالحا أميناً .

سوست : حسناً . أثابت هذا بهذا النص ؟

يتر : أميناً ؟ أصحيح هذا ؟

فانسن : كما أقول لكم : فهو ملزم حيالنا كما نحن حياله .

ثانياً : ينبغى أن لا يقيم فينا الدليل على سلطان أو استبداد أو يجعل أيهما ملحوظا ،
أو يسمح بالتفكير فيه بحال من الأحوال .

يتر : جميل ! جميل ! لا يقيم الدليل !

سوست : لا يجعله ملحوظا !

آخر : ولا يسمح بالتفكير فيه ! هذه هي أهم نقطة . لا يسمح لأحد بحال من الأحوال .

- فانسن : بعبارات جلية .
يتر : أحضر لنا الكتاب .
مواطن : أجل . نريد الكتاب .
آخر : نريد أن نذهب إلى الوصية بالكتاب .
آخر : ينبغي أن تكون لساننا يا حضرة الدكتور .
سيفنسيدير : يا للأغبياء !
آخرون : زدنا من الكتاب !
سيفنسيدير : إني أحطم أسنانه إذا نطق بكلمة أخرى .
الشعب : نريد أن نرى منذا يتعرض له . أسمعنا شيئاً عن الامتيازات ألا تزال
لنا امتيازات ؟
فانسن : بضعة طيبة جداً ، وشافية جداً . فهناك مكتوب أيضاً : لا يجعل أمير البلاد
طبقة الكهنوت خيراً مما هي ، ولا يزيد فيها من دون موافقة النبلاء والمقاطعات . لاحظوا
الآتي : ولا يغير نظام الحكم في البلاد .
سوست : أثابت هذا هكذا ؟
فانسن : أريد أن أريك إياه مكتوباً من مائتين وثلاثمائة سنة مضت .
أهالى : ونطبق مع ذلك الأساقفة الجدد ؟ يجب أن يحمينا النبلاء . سنبدأ
لاضطرابات .
آخرون : وندع التفتيش يرهبنا ؟
فانسن : الذنب ذنبكم .
الشعب : لا يزال لنا إجمت وأورانيان . كلاهما يعنى بخيرنا .
فانسن : إخوانكم في فلاندر قد بدأوا العمل الطيب .
سيفنسيدير : أيها الكلب (بضربه) .
آخرون : (يقاومون ويصيحون) هل أنت أيضاً أسباني ؟
آخر : ماذا ؟ الرجل الشريف ؟
آخر : العالم (يهجمون على سيفنسيدير) .

المعلم النجار : بحق السماء الزموا الهدوء (آخرون يدخلون في الشجار) أيها الأهالي .
ما خطبكم ؟

(الأولاد تصفر وتقذف بالحجارة وتحرض الكلاب . بعض الأهالي يقفون محلقين . الغوغاء تبادر . آخرون يروحون غير مكترئين ويفدون . وآخرون يسلكون سلوك الأوباش فيصيحون ويهتفون) .
آخرون : لتحميا الحرية ! لتحميا الامتيازات ! لتحميا الامتيازات ولتحميا الحرية !
(إجمت يظهر مع حاشيته)

إجمت : هدوءاً أيها الناس . ما خطبكم ؟ . الزموا السكينة ! افصلوا بعضهم
عن بعض .

المعلم النجار : أيها السيد المحترم ! إنك تنزل علينا كملكٍ من السماء . هدوءاً ! ألا ترون
شيئاً ؟ الكونت إجمت . احترموا الكونت إجمت .

إجمت : هنا أيضاً ؟ فيم تشرعون ؟ مواطنون ضد مواطنين . ألا يصدكم عن هذا
السخف قرب الوصية الملكية منكم ؟ تفرقوا واذهبوا إلى أعمالكم . إن من سوء الطالع أن
تتعطلوا في أيام العمل . فما الذي أثاركم ؟ (يهدأ الشعب شيئاً فشيئاً ويقف الجميع من حوله) .

المعلم النجار : إنهم يتضاربون من أجل امتيازاتهم .

إجمت : امتيازاتكم التي تريدون أيضاً طائعين أن تهدموها بأيديكم ! ومن أتم ؟
إنكم تلوحون لي قوماً مستقيمين .

المعلم النجار : هذا جهدنا .

إجمت : حرفتك ؟

المعلم النجار : نجار ومعلم النقابة .

إجمت : وأنت ؟

سوست : بدال .

إجمت : وأنت ؟

يتر : خياط .

إجمت : أتذكرك . لقد اشتركت في إعداد بذات رجالي . اسمك يتر .

يتر : تفضل منكم أن تتذكروني .

إجمت : لا أنسى بسهولة من رأيته مرة وتكلمت معه — إن ما عليكم أيها الناس

من واجب المحافظة على الهدوء فأدوه . إن سمعتم ساعت بما فيه الكفاية . فلا تشيروا الملك أكثر مما أثرتوه . ففي يده القوة آخر الأمر . وكل مواطن مستقيم يكسب قوت يومه بشرفه وجده ، يستمتع من الحرية بالقسط الذي يحتاج إليه .

المعلم النجار : بلا ريب . وهذا هو مصابنا . إن اللصوص والسكيرين والكسالى — ونرجو حضرتكم عدم المؤاخذه — يثيرون فينا التبرم ، وينقبون من الجوع عن الامتيازات . ويكذبون الطلبة وسهل التصديق ، ويضرمون نار الاضطرابات في سبيل قدح من الجعة ، ليشقى بها آلاف الناس ، وهم لا يكتثرون . إننا ساهرون على بيوتنا ، حافظون لمتاعنا . وودّوا لو يقصونا عنها بالحرائق .

إجنت : إنكم تستحقون كل معونة . وإن الإجراءات لتتخذ للضرب على أيدي الأشرار . فاثبتوا في وجه التعاليم الأجنبية ، ولا تظنوا أنه بالثورة تثبت الامتيازات . الزموا بيوتكم ولا تطاوعوا أنفسكم على الوقوف في الطرقات فلا يدرككم فيها العفن . فالعقلاء منكم يستطيعون أن يؤدوا الكثير .

(في تلك الأثناء يكون معظم المتجمهرين قد تفرقوا)

المعلم النجار : شكراً يا صاحب السعادة . شكراً على الرأي الصائب . كل ما في وسعنا — (ينصرف إجموت) سيد مبجل وهولندي صميم ليس فيه شيء أسباني .

يتر : ليت كان وصياً علينا . إنه يطاع عن طيب نفس .

سوست : إن الملك ليأبى هذا فهو يشغل هذا المنصب بذويه .

يتر : أرايت لباسه ؟ إنه مفصل على أحدث طراز . على الطراز الأسباني .

المعلم النجار : إنه رجل جميل .

يتر : إن له عنقاً يشبهه السياف .

سوست : أمجنون أنت ؟ ما هذا الخاطر ؟

يتر : إن من الغباوة أن يخطر شيء كهذا بالبال — لكن هذا شأنى دائماً .

فإذا رأيت عنقاً جميلاً مديداً فكرت في الحال على الرغم مني : هذا يستحق الضرب .

حوادث الإعدام اللعينة ، لا تقرب عن البال . وإذا راح الفتيان يسبحون ورأيت منهم ظهراً عارياً ، تذكرت على الاثر حظ الالوف الذين ألهبت ظهورهم بالسياط . وإذا لقيت بطناً

ضخماً تخيلته مشدوداً إلى العمود يشوى . وبالليل أرتعد في الحلم من كل جسمى . والسرور عزيز علىّ ولو لساعة واحدة حتى أوشك أن أنسى كل فكاكة ومزاج . لقد حرقت أمام ناظرى وقریباً منى أجسام مرعبة .

(مسكن الصحن)

السكرتير جالس إلى مائدة عليها أوراق . ينهض قلقاً
السكرتير : لم يأت بعد . وأنى لأنتظر ساعتين والقلم فى يدي والأوراق أمامى . واليوم على الاخص أحب أن أنصرف فى الميعاد . إني أتقلب على جمر الانتظار ، وأكاد لا أستطيع البقاء من كثرة ما عيل صبرى . لقد أمرنى قبل أن ينصرف أن أكون هنا بالدقيقة . وهو مع هذا لا يأتى . إن لدى أعمالاً كثيرة ، ولن أفرغ منها قبل منتصف الليل . حقاً إنه يغض عن أخطاء المرء أحياناً ، لكننى أؤثر أن يكون صارماً ويفرج عن المرء فى مواعده . عندئذ يستطيع المرء أن يرتب أموره ، لقد انصرف عن الوصية منذ ساعتين ، ومن يعلم من استوفقه فى الطريق .

(يدخل إجنّت)

إجنّت : كيف تجرى الأمور ؟
السكرتير : إني مستعد وقد حضرت ثلاث مذكرات .
إجنّت : لقد غبت عنك أكثر مما ينبغى ، ووجهك ينم عن السخط .
السكرتير : إني أنتظر أوامر من زمن . وهما هى ذى الأوراق .
إجنّت : ستسخط الدونا ألفيرا علىّ حين تسمع أنى أخرتك .
السكرتير : إنكم تمزحون .
إجنّت : لا . لا . لا تحجل . إنك لعل ذوق سليم ، فهى حسناء ويرضىنى كل الرضا أن تكون لك صديقة فى القصر . ماذا تفيد الرسائل .
السكرتير : بضعة أشياء ، قليلها سار .
إجنّت : حسن أن يكون السرور بيننا وأن لا تكون بنا حاجة إلى انتظاره من الخارج . هل أتى كثيرون ؟
السكرتير : عدد كاف ، وثلاثة رسل ينتظرون .

إجنت : تكلم واكتف بالأزم .

السكرتير : كل شيء لازم .

إجنت : مسألة ، مسألة . وعَجِّل .

السكرتير : النقيب يريد أيبعث بتقريره عما استجد في غنت وما حولها ، وقد خدمت الاضطرابات غالباً .

إجنت : أَيْكْتَبْ أَيْضاً عَنْ حَوَادِثَ فَرْدِيَّةٍ لَازِمِهَا سُوءُ الْأَدَبِ وَالْقَحْطَةِ ؟

السكرتير : أَجَلْ . وَفِي تَقْرِيزِهِ بَضْعُ حَوَادِثَ أُخْرَى .

إجنت : اعْفَى مِنْهَا .

السكرتير : قَبْضٌ أَيْضاً عَلَى سِتَّةِ نَزَعُوا فِي فَرِيشِ صُورَةِ مَرْيَمَ ، وَهُوَ يَسْأَلُ أَشْنَقَهُمْ

كَمَا فَعَلَ بِالْآخَرِينَ ؟

إجنت : لَقَدْ سَمَّيْتُ الشَّنْقَ فَلْيَجْلِدُوا وَيَخْلُ سَبِيلَهُمْ .

السكرتير : بَيْنَهُمْ امْرَأَتَانِ ، أَيْجَلِدُهُمَا أَيْضاً ؟

إجنت : لِيَنْذِرَهُمَا وَلِيَطْلُقَ سَرَاخَهُمَا .

السكرتير : يَرِيدُ بَرْنَكُ مِنْ رِجَالِ بَرِيدَا أَنْ يَتَزَوَّجَ ، وَيَأْمُلُ النَّقِيبُ أَنْ تَرْفُضُوا

طَلِبَهُ ، فَالْنِسَاءُ فِي الْفَرْقَةِ مِنَ الْكَثْرَةِ بَحِثُ إِنَّا — عَلَى قَوْلِهِ — إِذَا رَحَلْنَا لَمْ تَسِرْ مِنْهُ جُنُودٌ بَلْ قَافِلَةٌ مِنَ النُّورِ .

إجنت : لِيَسْمَحْ لِهَذَا أَيْضاً بِمَا طَلَبَ فَهُوَ شَابٌ جَمِيلٌ الطَّلَعَةُ . وَقَدْ تَوَسَّلَ إِلَى قَبْلِ

رَحِيلِي . وَلَكِنْ لَا يَسْمَحُ بَعْدَ الْآنَ لِأَحَدٍ . وَإِنْ عَزَّ عَلَى أَنْ أُحْرِمَ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ خَيْرٌ تَسْلِيَاتِهِمْ . فَقَدْ كَفَاهُمْ مَا يَرْهَقُهُمْ .

السكرتير : اثْنَانِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، سَيِّرُ وَهَارْتِ ، عَبْثَا بِنْتِ صَاحِبِ خَانٍ . اسْتَفْرَدَا

بِهَا ، وَلَمْ تَقْوِ الْفَتَاةَ عَلَى دَفْعِ أَذَاهَا .

إجنت : إِنْ كَانَتْ فَتَاةٌ شَرِيفَةٌ فَاسْتَعْدَمَا مَعَهَا الْقُوَّةَ فَلْيَجْلِدْهُمَا بِالْعَصَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ

مُتَتَالِيَةً ، فَإِذَا كَانَ يَمْلِكُ شَيْئاً أَخَذَ مِنْهَا مَا يَكْفِي الْفَتَاةَ جِهَازاً .

السكرتير : مَرَّ أَحَدُ الْوَعَاظِ الْأَجَانِبِ مِنْ كُومِينُوسِ خَفِيَّةٍ فَاكْتَشَفَ أَمْرَهُ ، وَقَدْ

أَقْسَمَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى وَشَكِّ الْمَضَى إِلَى فَرَنْسَا ، وَالْأَمْرُ الصَّادِرُ يَقْضَى بِضَرْبِ عُنُقِهِ .

إجنت : ليذهبوا به في سكون إلى الحدود وليؤكدوا له أنه إن عاد فلن ينطلق هكذا .
السكرتير : رسالة من جاييكم : يكتب أن الدخل ضئيل ، وأنه يصعب عليه أن يدر
المبلغ المطلوب في الأسبوع المضروب ، فقد أشاعت القلاقل الاضطراب في كل شيء .
إجنت : يجب أن يرسل المال . وعليه أن يفكر كيف يدره .

السكرتير : يقول إنه سيبدل غاية الجهد ، وإنه يريد أخيراً أن يقاضى ريمون المدين
لكم من أمد طويل ، وأن يعمل على القبض عليه .
إجنت : لقد وعد هذا بالدفع .

السكرتير : لقد استمهله آخر مرة أسبوعين .
إجنت : فليمهله أسبوعين آخرين ، وليقاضه بعد ذلك .

السكرتير : تحسنون صنعا ، فليس ما به فقراً ، بل سوء نية وسيتم للأمر بلا شك
حين يرى أنكم لا تمزحون ، ويقول الجاني غير ذلك إنه يرى أن يجلس عن الجندي المسن
والأرمل والبضعة الآخرين المرتب الذي تجرونه عليهم نصف شهر لينظر الأمر في خلال ذلك .
وعليهم أن يدرؤا أمرهم .

إجنت : أى أمر يدرؤون ؟ إن هؤلاء أحوج إلى المال منى . فليبق الشيء على حاله .
السكرتير : من أين إذن تأمرونه بتدبير المال ؟
إجنت : ليفكر هو في ذلك ، فقد أبتاه له في الرسالة السابقة .
السكرتير : ومن ثم يرتئى ما ارتأى .

إجنت : ارتبأاته هذه لا تصلح ، ليفكر في غيرها . وليقترح ما يقبل ، وليدبر المال
قبل كل شيء .

السكرتير : لقد أعدت رسالة الكونت أوليثا ثانية إلى هنا . فلتغفروا لى تذكركم
بها ، فالشيخ يستحق قبل غيره جواباً مفصلاً ، وتريدون أن تكتبوا إليه بنفسكم ، حقاً أنه
يجبكم كآب .

إجنت : إني لا يتسع وقتي لذلك ، والكتابة عندي أبغض ما أبغض . إنك تقلد
خطي تقليداً دقيقاً ، فاكتب إليه باسمى . إني أنتظر أورانيان فلا أستطيع الكتابة . وأتمنى
نفسى أن تكتب إليه ما يهدئ روعه ويبدد مخاوفه .

السكرتير : أدلوا إلى رأيكم على التقريب ، فإني أريد أن أنشىء الرد حالا وأعرضه عليكم ، وسأكتبه بخط لا تشك الحكمة في أنه خطكم .

إجنت : أعطني الرسالة (بعد أن يطلع عليها) يا لك من شيخ طيب شريف ، أكنت في شبابك كثير الوسوس إلى هذا الحد ؟ ألم تتسلق سوراً ؟ ألزمت في المعركة المكان الذي تقضى به الحكمة ؟ في المؤخرة ؟ يا لك من قلق مخلص ، إنه يريد حياتي وهنائي ، ولا يشعر بأن الذي يحيا مَعْنِيًا بسلامته ، إنما هو ميت بين الأحياء — أكتب إليه بأن يطمئن ويريح باله ، فإني أسلك ما ينبغي على سلوكه ، وسأحمي نفسي . وعليه أن يستخدم نفوذه في البلاط من أجلي ويوقن بحمدى وشكرى .

السكرتير : لا شيء غير هذا ؟ إنه ينتظر مزيداً .

إجنت : ماذا أستطيع أن أقول أكثر من هذا . أريد أن تزيد في العبارة فافعل إن شئت . فالأمر يدور حول نقطة واحدة لا ثانية لها . أن أعيش كما لا أحب . أن أعيش . أن كوني مَرَحًا ، أستخف بالأمر ، وأحيا حياة من لا يبالي ، هو ما أستشعر فيه الهناء . ولست مستبدلاً به سلامة كالتى تُطلب في لَحْدِ الأموات . ليس في عروقي قطرة دم لذلك الأسلوب الذي يعيش الأسبان عليه . ولا تحذوني رغبة في أن أغنى على كَيْلِ البلاط ، وأسير سيرته الجديدة في الحذر . أفهل أعيش لأجعل تفكيرى في الحياة ؟ أينبغى أن لا أنعم بال لحظة الراهنة لأستوثق من الآتية ، ثم أقضى هذه أيضاً في الهموم والهواجس ؟

السكرتير : عفوا ياسيدى . لا تكن قاسياً شديداً على الرجل الطيب ، فأنت في العادة كريم مع الجميع . املوا على كلمة طيبة تهدى من روع الصديق النبيل ! وانظروا كيف يترقق ، وكيف يقربكم في هينه .

إجنت : ومع ذلك فلا يمس دائماً إلا هذا الوتر . إنه يعلم من قديم مبلغ كراهيتى لهذه التحذيرات . إنها تُرْبِكُ فحسب ولا تعين . وإذا كنت أتجول بالليل وأنا نائم ، وأسير على قمة سطح خطر أمن البر أن تناديني باسمى وتحذرنى ، وتوقظنى ، وتقتلنى ؟ فليمض كل فى سبيله وليخمر نفسه على أسلوبه .

السكرتير : اعلم أن الخوف ليس من شيمتكم . لكن من يعرفكم ويحبكم —

إجنت : (ينظر فى الرسالة) ها هوذا يعيد الترهات القديمة . ما فعلنا ذات مساء فى

حمية السم ونشوة الخمر ، وما تحدثنا به إذ ذاك ، وما استخلصه الناس في كافة نواحي المملكة ، وما تواتر فيها من نتائج وأدلة — فليكن . لقد وشّينا أكام خدمنا بقلنسوة المهرج ذات الجلاجل . ثم حولنا هذا الوشى الجنوني إلى حزمة من السهام . وهي رمز خطر لكل الذين يريدون أن يستنتجوا شيئاً من لا شيء . لقد حملنا ووضعنا هذه الحماقة أو تلك في لحظة مزاح . أفتسأل عن عصبة نبيلة بأسرها تحمل مزاول المتسولين وأسماء اختارتها لأنفسها ، حين تدكر الملك بواجبه في مذلة ساخرة ؟ أنحن مسئولون — عن ماذا غير هذا ؟ أهزّر المرافع كالخيانة العظمى سواء بسواء ؟ أتنفس علينا تلك الخرق الملونة القصيرة التي أضفتها جرأة الشباب والخيالة المنتشية على نقط الضعف في حياتنا ؟ وإذا كنتم تنظرون إلى الحياة هذه النظرة الجدلية ، وتعلون فيها هذا الغلو فما هي هذه الحياة ؟ إذا كان لا يصبح علينا الصباح بمسرات جديدة ، ولا يقبل المساء بأمل في لهو ، أأستحق هذه الحياة لبساً وخلعاً ؟ أأتطلع على الشمس لأفكر فيما كان أمس ؟ وللنظر في شيء لا يحزر ؟ وتقييد ما ليس يقيد من مصير يوم آت ؟ أعفى من هذه التأملات فأولى بها التلاميذ ورجال البلاط ، فلهؤلاء أن يفكروا ويدبروا ، ويجولوا ويتسلوا ، ويبلغوا ما يستطيعون ، ويتهزوا ما يستطيعون — فإن وسعك أن تأخذ من هذا كله شيئاً من دون أن تجعل الرسالة سفرأ فانت وشأنك . فإن الأمر ليلوح للشيخ الطيب أجل خطراً . وهكذا يضغط الصديق الذي أمسك بيدنا طويلاً ضغطة أشد على هذه اليد حين يريد تركها .

السكرتير : عفواً . إن الرجل ليتملكه الدوار من مر الراكب الخاطف .
إجنت : كفى يا بني ولا تزد . إن جياذ الشمس التي يطلقها الزمن تمرق بالمركة الخفيفة التي تحمل مصائرنا كما لو كانت أرواح غير مرئية تلهمها بالسياط . وليس علينا إلا أن نمسك بالأعنة في رباطة جأش لنحوّل العجل تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار عن حجر هنا ، وعثرة هناك . ثم إلى أين تذهب هذه المركبة ؟ من يعلم ؟ ليكاد المرء لا يذكر من أين أتى .
السكرتير : سيدي ! سيدي !

إجنت : إني أقف عالياً . وأستطيع بل يجب أن أصعد فوق ما صعدت . فإني لأشعر من نفسي بالأمل والجرأة والقوة . ولم أبلغ بعد القمة . فإن بلغت يوماً ، فأريد أن أقف عندها ثابتاً لا يساورني خوف . وإن سقطت فلتقذف بي إلى الأعماق صاعقة أو عاصفة أو قدم زالة ،

فهناك أرقد مع آلاف غيرى . إننى لم أزد يوماً أن أحتكم ورفاق الحرب الأخيار إلى الدم من أجل مغنم ضئيل . أفأضن حين يكون الأمر أمر الحياة بأسرها وقيمتها الحرة ؟
السكرتير : سيدى . إنك لا تعلم بأى كلام نظقت . فليحفظك الله .

إجنت : اجمع أوراقك . فأورانيان آت . وأعد الألزم لينصرف الرسل قبل أن توصد أبواب المدينة . وما تبقى فالوقت متسع له . ودع كتابى إلى الكونت إلى الغد . ولا تفتك زيارة ألفيرا . وقدم إليها تحياتى — تسقط كيف حال الوصية . فإنه ليقال إنها ليست على ما يرام وإن أخفت ذلك (ينصرف السكرتير) .

(يأتى أورانيان)

إجنت : مرحباً بك يا أورانيان ، يلوح لى أن ثمة ما يشغلك .

أورانيان : ماذا تقول فى حديثنا مع الوصية ؟

إجنت : لم أجد فى استقبالها إيانا شيئاً غير مأوف . وقد رأيتها كثيراً على هذه الحال . وقد لاحت لى على غير ما يرام .

أورانيان : ألم تلاحظ أنها كانت أكثر تحفظاً من المعتاد . أرادت أولاً فى هدوء أن تقر مسلكتنا حيال الثورة الشعبية الجديدة . ثم أبدت بعد ذلك ما يلقى على هذا المسلك ضوءاً كاذباً . ثم حولت الحديث إلى محاضرتها القديمة المألوفة : عن سلوكها الطيب الودود ، وصدقتها لنا نحن أهالى الأراضى الواطئة ، وعن أن هذا السلوك وهذه الصداقة لم يقدر التقدير الكافى ، ولم يلقى إلا استخفافاً ، حتى لتأبى الأمور أن تنتهى إلى الخاتمة المرومة ، وحتى ليدركها الكلال آخر الأمر ، ويضطر الملك إلى إتخاذ إجراءات أخرى . أفلم تسمع ذلك ؟
إجنت : لم أسمع كنهه . فقد كنت فى تلك الأثناء أفكر فى أمر آخر . إنها امرأة أيها الطيب أورانيان . وهم يودون دائماً أن يستسلم كل شئ لنيرها اللين ، وأن يخلع لها كل هرقل جلد الأسد ، وأن يزداد بلاطها النسوى . ولأنها تضمّر السلم يراى بكلمة طيبة أن يسكن الاختار الذى يحيش به الشعب ، والعاصفة التى يثيرها منافسون أقوياء بعضهم على بعض ، فتتألف تحت قدمها أشد العناصر تقاطعاً ، ويسود بينها الوفاق بعد الشقاق . هذا هو أمرها . وإذ هى لا تستطيع له حولا ، لا تجد غير أن تزداد سخطاً ، وأن تشكو من الجحود والخرق ، وأن تتوعد بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وأن تهدد بأنها تريد الرحيل .

أورانيان : ألا تعتقد أنها هذه المرة تنفذ تهديداتها ؟
إجنت : أبداً . فكم رأيته على أهبّة السفر . وإلى أين تريد ؟ إنها هنا حاكّة ،
ملكة . أفتظنها تطيق أن تقضى في بلاط أخيها أياماً عديمة الشأن ؟ أو تمضى إلى إيطاليا
فتضنى هناك في حياة عائلية عتيقة ؟

أورانيان : إنك لا تراها أهلاً لهذا التصميم ، لأنك رأيته تتردد ، ورأيته يتراجع . ومع
ذلك فهي مصممة . تدفعها إلى إتخاذ القرار الذى ترددت فيه طويلاً ظروف جديدة . وإذا
رحلت ؟ وابتعث الملك غيرها ؟

إجنت : يأتى غيرها ويُشغل مثلما شُغلت . يأتى بخطط ومشاريع وأفكار ضخمة
لإصلاح كل شيء . يبدأ اليوم بهذه الصغيرة ، وغداً بتلك . ويجد بعد غد هذه العقبة .
ويقضى شهراً في مشروعات ، وآخر في السخط على خطط حابطة ، وسنة مهموماً من جراء
إقليم واحد . هو أيضاً سيضيع وقته سدى ، ويدور رأسه ، وتبقى الأمور كما كانت من قبل .
فبدلاً من أن يقطع بحاراً ، ويتبع منهاجاً ، يحمد الله أن جنب سفينته الصخر ، في
العاصفة الهوجاء .

أورانيان : فإذا كان قد نُصح للملك بمحاولة ما .

إجنت : وهى ؟

أورانيان : أن يرى ما يستطيع الجسم بلا رأس .

إجنت : كيف ؟

أورانيان : إجنت ! إننى أفكر من سنين طويلة في أحوال الناس من كل وجوهها .

ولا أقطع عن الإنكباب على مثل رقعة الشطرنج ، لا استخف بأية لعبة للخصم . وكما
تجذب الطبيعة الخلل من الناس وتحمله على الاشتغال بأسرارها ومحاولة اكتناهاها ، كذلك
أنا ، كنت أرى من واجبي ومن وظيفة الأمير أن يتعرف أفكار الأحزاب ونصائحتها جميعاً .
وعندى ما يجعلنى أخشى الانفجار . فالملك قد ظل طويلاً يعالج الأمور ، طبقاً لقواعد مَوْضُوعَةٍ .
وهو يرى أنها لم تُغْنِهِ . فهل ثمة ما هو أرجح من أن يحاول مسلماً آخر ؟

إجنت : لا أعتقد . فالمرء إن بلغ من الكبر ما بلغ ، وحاول ما حاول ، واستعصى
عليه النظام فلم يردّه إلى نصابه ، كفّ أخيراً وزهد .

أورانيان : بقى شيء لم يحاوله بعد .

إجنت : وهو ؟

أورانيان : أن يُنقى على الشعب ، ويسحق أمراءه .

إجنت : ما أكثر الذين قد خشوا ذلك ، فلا يهملك .

أورانيان : كان في مبدئه هما ، فلم يلبث أن بات حدساً ، فبقينا أخيراً .

إجنت : وهل للملك من يخلص له أكثر منا ؟

أورانيان : نحن نخدمه على طريقتنا ، ونستطيع فيما بيننا أن نعترف بأننا نعرف كيف نوازن بين حقوق الملك وحقوقنا .

إجنت : ومن يفعل ذلك ؟ نحن رعاياه ، ونعوانه على كل ما هو من حقه .

أورانيان : وإذا ادعى أكثر مما له ، وزعم ما نرى فيه نحن صونَ حقوقنا خروجا عليه ؟

إجنت : سيكون في استطاعتنا أن ندافع عن أنفسنا . ليجمع فرسان القروة الذهبية وليَقضُوا بيننا .

أورانيان : وإذا حُكم قبل التحقيق ، وعُوقب قبل الحكم ؟

إجنت : ظلم لن يقترفه فيليب أبداً . ونزق أجله ومستشاريه عنه .

أورانيان : وإذا باتوا ظالمين وحقاً ؟

إجنت : لا يا أورانيان . محال . من الذى يجزؤ أن يضع يده علينا ؟ — إن اعتقالنا

ليكون عملاً خاسراً ، لا نفع فيه . لا . إنهم لا يجسرون على رفع لواء الطغيان إلى هذا الحد .

إن الريح التى تحمل هذا النبال ستشعل ناراً هائلة . ثم إلى أى مدى يذهبون ؟ إن محاکمتنا

والحكم علينا لا يملكهما الملك . إن رابطة خيفة توحد إذ ذاك بين صفوف الشعب في لحظة .

إن البغضاء والانفصال إلى الأبد عن الاسم الأسبانى ليكونان المغبة التى تنجم في عُنف .

أورانيان : حين يندلع اللهب نكون في القبر ، وتجري دماء أعدائنا كفارة فارغة .

لنفكر يا إجنت .

إجنت : لكنه كيف تكون محاولتهم ؟

أورانيان : ألباً* في الطريق .

(*) فرديناند دوق ألبا القائد والسياسى الأسبانى الشهير . ولد سنة ١٥٠٨ في طوليدو من أسرة =

إجنت : لا أُصدق .

أورانيان : وأنا به عليم .

إجنت : لم يَبْدُ على الوصية أنها تعلم .

أورانيان : وهذا أدعى لأن يثبت يقينى . ستخلى له الوصية المكان . إنى أعرف شهوة

القتل فيه . وهو آت فى جيش .

إجنت : لإرهاق المقاطعات من جديد ؟ سينبو الشعب فى أيديهم نبؤاً عظيماً .

أورانيان : سيستوثقون من الرؤوس .

إجنت : لا . لا .

أورانيان : ليذهب كل منا إلى مقاطعته . فهناك نستزيد من قوتنا . ولن يبدأنا

بعداء صريح .

إجنت : أفلا يجب أن نستقبله حين يأتى .

أورانيان : لتتسكأ .

إجنت : وإذا طلبنا عند وصوله باسم الملك ؟

أورانيان : تتلمس المعاذير .

إجنت : فإذا ألح ؟

أورانيان : اعتذرنا .

كبرى ، ودخل الجيش الأسباني فى السادسة عشرة من عمره ، فأبلى فى حروبه مع الفرنسيين والأتراك والمغاربة فى تونس والجزائر بلاءً حسناً ، وامتاز بالشجاعة والتصميم ورباطة الجيش واليقظة إلى حد عظيم حتى صار جنرالاً فى السادسة والعشرين . وقد تبع شارلكان إلى ألمانيا ، فكان فيها أقسى مضطهد للبروتستانت ، وبعث به فيليب الثانى الذى تقدم ذكره إلى الأراضى الواطئة سنة ١٥٦٧ ليقمع حركة المذهب الجديد ، فظهر هناك على رأس جيش من خيرة جنود الأسبان مزود بعدد كبير من الرهبان المتعصبين ، وطفى ما شاء له الطغيان حتى بلغ عدد من أُمِر بإعدامهم فى سنى حكمه الست ١٨,٠٠٠ نفس عدا الزعيم لإجنت والكونت هورن وغيرها من محبي الوطن . فثار عليه سكان الأراضى الواطئة وكان ما كان مما ورد ذكره فى الكلام عن الدوق أورانيان . ولما يئس ألبا من الانتصار على المجاهدين الوطنيين قدم استقالته وعاد إلى مدريد . وقد كانت البرتغال مسرحاً آخر لقسوته ، إذ غزاها سنة ١٥٨٠ ، ونكل بأهلها كما نكل بالهولنديين . ومات سنة ١٥٨٢ ، وهو فاقد ثقة مولاه . وقد كان دوق ألبا شخصية فذة لم تضعف الشجوخة شجاعته اللباب وقوته فيه ؛ كان طويل القامة نفوراً متكبراً ، ثير جهامة وجهه ووقع السياط من صوته الرعب والكرهية اللذين كان الخوف من تعصبه الدينى يزيد أثرهما فى النفوس .

إجنت : وإذا أصر ؟

أورانيان : كان هذا أدعى إلى التخلف .

إجنت : فينأصبنا العداء ، ونكون المتمردين . أورانيان ! لا يضلك بُعد النظر .
أعلم أن الخوف لا يلين قناتك . ففكر في خطوتك .
أورانيان : قد فكرت فيها .

إجنت : فكر فيا لو أخطأت التقدير . عم تكون مسئولاً ؟ عن أفدح حرب يمكن
أن تلم ببلاد . إن رفضك هو الإشارة التي تدعو المقاطعات إلى حمل السلاح في الحال .
هو الذي يبرر كل قسوة ، تتلمس لها إسبانيا الحجب من أمد بعيد . أن ما تعبنا طويلاً
في تهدئته تريد أنت أن تثيره ثورة جامحة بإيماة واحدة . فكر في المدن ، في النبلاء ، في
الشعب ، في التجارة ، في الزراعة في الصناعات . تصور الدمار والهلاك . إن الجندي ليرى
قرينه في حومة الوغى يسقط إلى جانبه ، فلا يحرك ساكناً . لكن جثث الأهلين والأطفال
والعداري ستمر بك طافية على وجه الماء منحدر مع النهر . فتقف تتأملها يتملكك الرعب .
ولا تعود تعرف قضية من تناصر ، بعد إذ يفنى هؤلاء الذين حملت السلاح دفاعاً عن
حريتهم . وكيف تكون حالك إذا لم تكن لك ندحة عن أن تقول في نفسك : من أجل
سلامتي قد حملت السلاح .

أورانيان : لسنا في الناس أفراداً يا إجنت . فإذا صح أن نضحى بأنفسنا في سبيل
الألوف ، جاز كذلك أن نضنّ بأنفسنا في سبيل الألوف .

إجنت : إن من يضمن بنفسه لا يسلم من الإرتياب في نفسه .

أورانيان : إن من يثق بنفسه يستطيع يقيناً أن يتقدم وأن يتأخر .

إجنت : الشر الذي تحشاه سينجم على التحقيق من عملك .

أورانيان : الحكمة والجرأة تقضيان بمجابهة الشر الذي لا مفر منه .

إجنت : مثل هذا الخطر العظيم لا يخلو من بارقة أمل .

أورانيان : لم يعد لنا فيه موضع لأخفت قدم . والهوة أمامنا رأساً .

إجنت : أرضا الملك عزيز إلى هذا الحد ؟

أورانيان : ليس عزيزاً ، ولكنه غير مأمون .

إجنت : بحق السماء . إنك تسيء إليه . ولست أطيق أن يسوء رأى فيه إلى هذا الحد . فهو ابن شارل . وهو لا ينحط إلى عمل حقير .

أورانيان : الملوك لا ينحطون .

إجنت : ينبغي أن يُعرف حق المعرفة .

أورانيان : هذه المعرفة نفسها تنهانا عن أن نتعرض لتجربة خطيرة .

إجنت : لا خطر في تجربة يقدم عليها المرء رابط الجأش .

أورانيان : إنك متهيج يا إجنت .

إجنت : يجب أن أرى الأمور بعيني .

أورانيان : ليتك تراها هذه المرة بعيني أنا . أيها الصديق ! تظن أنك ترى لأن

عينيك مفتوحتان . أنا ذاهب . وانتظر أنت قدوم ألبا . والله معك . قد ينجيك امتناعي

قد يظن التنين أن ليس من يقنصه ، إذا لم يبتلعنا معا . وربما تردد ليجعل ضربته أسد

وربما رأيت الأمور في غضون ذلك على حقيقتها . عندئذ أسرع . أسرع . وانج

بنفسك ، — وداعا — لا تدع شيئا يغيب عنك . عدد القادمين من جنده ، كيفية احتلاله

للمدينة ، ما يبق للوصاية من سلطة ، رأى أصدقائك . مدني بمعلوماتك — إجنت — .

إجنت : ماذا تريد ؟

أورانيان : (يتناول يده) اقتنع . واذهب معي .

إجنت : كيف . تبكي يا أورانيان ؟

أورانيان : أندب فقيدا ، ولا تخونني الرجولة .

إجنت : أتحسني مفقودا ؟

أورانيان : إنك كذلك . فتدبر . ليست أملك سوى مهلة وجيزة .

وداعا (يخرج) .

إجنت : (وحده) لم يك يخطر لي ببال ، أن لأفكار الغير مثل هذا التأثير علينا .

إن هذا الرجل قد نقل إلى همومه . إليك عنى — هذه قطرة دم غريبة في دمي . أيتها

الطبيعة الطيبة انفها عنى . فلا تزال ثمة وسيلة ودية لإزالة النغض عن جبیني وطررد الوسوس

من رأسى .

الفصل الثالث

فهر الوصية

مارغريت دى بارما

الوصية : كان يجب أن أحزر ذلك . أن المرء المَعْنَى المكدود ليظن دائماً أنه قد أفرغ قصارى جهده . أما المتفرج الأمر من بعيد فيحسب أنه يطلب ممكناً ككل الممكنات آه من الملوك — لم أكن أظن أن الأمر يمكن أن يضايقنى إلى هذا الحد أنه جميل أن تحكم وأما أن تنزل عن الحكم ؟ — لا أعلم كيف وسع هذا أبى . ولكنى أريده .
(يظهر مكيافيل عن كُتب)

الوصية : اقترب يا مكيافيل . إنى أفكر هنا فى رسالة أخى .
مكيافيل : أيجوز لى أن أعلم فخواها ؟

الوصية : التفات رقيق نحوى . وعناية على قدره ، بولاياته . يثنى على ما أبدت من ثبات وجد وأمانة فى المحافظة على حقوق جلالته فى هذه البلاد . ويأسف إذ يسبب لى الشعب الشكس المتاعب . إنه مقنع كل الاقتناع ومن أعماق النفس بأصالة رأى وبصرى بالأمور ، راض كل الرضا عن سلوكى الحكيم . إنه لا معدى لى عن القول بأن الرسالة أرق من أن يكتبها ملك . ولكنها من أخ معقولة .

مكيافيل : ليست هذه أول مرة يعرب لك عن رضاه الحق .

الوصية : ولكنها أول مرة يتخذ فيها الأمر شكل الخطابة .

مكيافيل : لا أفهم سموك .

الوصية : ستفهم . — إنه يرى بعد هذه المقدمة أننى هنا ، وإنا بلا حول ولا قوة ولا جيش صغير ، ستصعب مهمتى دائماً . فنحن لم نحسن ، على قوله ، صنعا حين سحبنا جنودنا من الأقاليم عقب شكاوى الأهالى . فخاميته فى رأيه ، تمنع الأهليين من الجوح والثورة حين تنيخ بكل كلمها على ظهورهم .

مكيافيل : هذا مثير للنفوس إلى أقصى حد .

الوصية : بيد أن الملك يرى — أسمع — يرى الملك أن قائداً حازماً ، قائداً لا يكثرث
المنطق ، يستطيع قريباً أن يقف الشعب والنبلاء ، وأهل الحضر وأهل الريف ، عند حدهم ،
ويرسل لذلك الدوق ألبا في صحة جيش قوى .

مكيافيل : ألبا ؟

الوصية : أمندهش أنت ؟

مكيافيل : تقولين : يرسل ؟ ولعله يسألك : أيرسل ؟

الوصية : إنه لا يسأل . إنه يرسل .

مكيافيل : وهكذا يكون في خدمتك محارب مجرب .

الوصية : في خدمتي ؟ لا تداج يا مكيافيل .

مكيافيل : أردت أن لا أسبقك .

الوصية : ووددت لو أستطيع المداجاة . إني مثالة . إني حزينة جداً . كنت أوشأن أن
يصارحنى أخى برأيه ، لا أن يوقع رسائل رسمية ينشئها وزير .

مكيافيل : أما كان الأخلاق أن يكون المرء بصيراً — !

الوصية : إني أعرفهم حق المعرفة . يحبون النظافة والكس . ولأنهم لا ينظفون

بأيديهم ولا يكتسون ، فكل من تقدم إليهم ويده مكنسة يحوز ثقتهم . يخيل إلى أنى أتمثل
الملك ومجلسه فوق هذه السجادة .

مكيافيل : إلى هذا الحد ؟

الوصية : لا يغيب عنى شيء . ففي المجلس أناس طيبون . رودريغ الشريف الحنك

المعتدل الذى لا يطمح إلى أعلى مما ينبغى ، ولا يترك مع ذلك شيئاً يسقط . وأنزو الصريح .

والمجد فرينيدا . والثابت لاس برجاس . وغيرهم ممن هم خلقاء أن يشابعوا الحزب الطيب إذا

أوتى السلطان . بيد أنه فى جملة المجلس ذلك الطوليدي الغائر العينين ، ذو الجبين الصلد ،

والنظرة العميقة المضطربة . يهتمهم بين أسنانه كلاماً عن طيبة النساء ، والتساهل فى غير

موضعه ، وعن كراهية المرأة لركوب الخيل الجموحة ، وإنها لا تحسن القيام على الخيل إطلاقاً ،

وما شا كل ذلك مما كنت أضطر إلى سماعه من أفواه الساسة فيما سلف من الزمان .

مكيافيل : لقد اخترت للصورة ألوانا مطابقة .

الوصية : اعترف يا مكيافيل أنه ليس في مجموعة الألوان التي يمكن أن أرسم منها ، ما هو أشد في سمرة صفرة ، ولا أقرب في صفرة إلى القنامة من لون وجه ألبا ، ومن اللون الذي يخلعه ألبا على الأشياء . كلُّ عنده آثم في حق الله ، عائب في ذات الملك . وهذا مبرر عنده لسحق الجميع ، ولشد إلى العمود ، ولتمزيق والحرق . — إن الصالح الذي عملته هنا يبدو من بعيد هباء . ذلك لأنه صالح . — إنه سيتشبث بكل جرم فات وسيدگر بكل اضطراب سكن ، فيبدو كل شيء لعيني الملك حياشا . سيدكر بالعصيان ، والثورة ، والنزق ، حتى ليخال أهل البلاد يأكل بعضهم بعضا . بينا الأمر لم يعد عندنا قحة عابرة من شعب خشن قد نسيناها من زمن . وهو سيقسو قلبه بالضغينة على الشعب المسكين . ويلوح له الشعب منفرا كما تلوح الوحوش والغيلان فيعمل النار والسيف فيما حوله ، ويحسب أنه بهذا يروض الناس .

مكيافيل : يلوح لي أن سموك تشتدين أكثر مما ينبغي ، وتغلين في التشاؤم .
أولا تظلين وصية ؟

الوصية : إني عليمة بما هنالك فيسحمل إلى تعليمات — وقد قضيت في شئون الدولة عمرا علمني كيف يزحزح المرء غيره عن مركزه من دون أن يشغله — سيسحمل معه أولا أمرا غامضا سيء القصد . سيبطش يميننا وشمالا لأن القوة بيده ، فإذا شكوت تدرع بأمر سرى . فإذا طلبت الاطلاع عليه سوف وماطل . فإذا أصرت أراي ورقة تشتمل على شيء آخر كلية . فإذا لم أهدأ ولم أفعل شيئا غير أني تكلمت — يكون في تلك الأثناء قد فعل ما خشيت . وأعفل ما تمنيت .

مكيافيل : وددت لو أستطيع معارضة سموك .

الوصية : إن ما هدايته بصبر لا مثيل له ، سيثيره هو ثانية بقسوة وغشم . وسأرى بعيني ما خلقته ضائعا ؛ وتبعته هو عن هذا استقع فوق ذلك على .

مكيافيل : انتظري حتى يقع الأمر يا صاحبة السمو .

الوصية : أن لي من ضبط النفس ما يلزمني الهدوء . فليأت . فساخلي له مكاني على خير وجه ، قبل أن يزحزحني عنه .

مكيا قيل : تتخذين هذه الخطوة الهامة بهذه السرعة ؟
 الوصية : ولكن بأصعب مما تظن . فمن اعتاد الحكم ، ومن أَلِفَ أن تكون
 مصائر الألوف في يده كل يوم ، ينزل عن العرش كما ينزل إلى القبر . لكن هذا خير من
 أن تعيش طيفا بين الأحياء ، وأن يحملك الجاه الأجوف على التشبث بمكان آكل إلى غيرك
 فهو يتبوؤه وينعم به .

ممسكون كلارا

كلارا . أمها

الأم : إن حبا كحب براكنبورغ لم أره عمرى . وأظن أن مثله لا يكون
 إلا في الأساطير .

كلارا : (تغدو وتروح في الحجرة وتغنى أغنية بين شفيتها)

سعيدة وحدها

نفسك إذ تحب

الأم : أنه يحزر صلتك بأجنت . وأحسبه يتزوج منك مع ذلك إذا أنت شئت أن
 تتوددى إليه بعض الشيء .

كلارا : (تغنى)

مفعمة بالغبطة غصانة بالأم

تنهبها الأفكار

مشتاقة ملهـوـفة

من خشية الأقدار

تبلغ في تهليلها أعنة الساء

وتلقى في همومها غاية العناء

سعيدة وحدها

نفسك إذ تحب

الأم : دعى هذا الهراء .

كلارا : كُنِّي عن الملام . إنها أغنية قوية . وقد هدَّهتُ بها أحيانا طفلا كبيرا لينام
الأم : ليس في رأسك سوى حبك فلا تنسى كل شيء من أجل هذا الشيء
الواحد . خليك بك أن تستبقي براكنبورغ موضع إكرامك . هذا ما أقوله لك . ففي وسعه
أن يسعدك مرة أخرى .
كلارا : هو ؟

الأم : بلى . فسيأتي زمن . — إنكم أيها الأطفال لا تستبينون شيئا قبل وقوعه ،
ولا تحفلون بتجاريلنا . الشباب والحب الجميل إلى انتهاء ككل شيء . وسيأتي وقت يحمد
المرء فيه ربه ، إن استطاع أن يجد مكانا يتوارى فيه .
كلارا : (ترتعد وتضمت ثم تهب) . أماه ! دعى الوقت يأتي والحين يحين ، فالتفكير فيه
قبل حينه خيف . وإذا أتى ، وإذا وجب — عندئذ — فعلنا ما في استطاعتنا — إجمت !
أستغنى عنك ؟ — (تبكي) لا . مستحيل ! مستحيل !
(يدخل إجمت في مطرف الركوب وبقبعته مضغوطة على وجهه)

إجمت : كلارا !

كلارا : (تصرخ متراجعة) : إجمت ! (تبادر إليه) إجمت ! (تعاقبه وتستند إليه) يا حبيبي
الطيب الحلو . هل أتيت ؟ هل أنت هنا ؟
إجمت : كيف أمسيتِ أيتها الأم .
الأم : حياك الله أيها السيد النبيل . لقد كادت صغيرتي تذوب لطول غيابك .
ولم يكن لها طيلة النهار حديث أو غناء إلا عنك .
إجمت : ستقدمين لي طعام العشاء ؟

الأم : شرف هو أكثر مما نستحق ، لو أن عندنا ما تقدمه .
كلارا : بلا ريب . فلينعم بالك يا أماه . فقد قدرت كل شيء وأعددت شيئا .
فلا تبوحى به يا أماه ؟

الأم : شيئا لا يستحق الذكر .
كلارا : انتظرا ! وعندئذ أفكر : حين يكون عندي لا أحس جوعا ، وإذا لابد
ألا تكون شهيته عظيمة حين أكون عنده .

إجنت : أتظنين ؟ (تضرب كلارا الأرض بقدمها وتدير له ظهرها على الرغم منها) ما بك ؟
كلارا : ما بالك اليوم بادی القتور ؟ فإنك لم تحاول تقبيل . ولم تلف ذراعيك
بعاءتك كالوليد ؟ غير جميل بالجندی أو الحبيب أن يبق ذراعيه ملفوفتين .
إجنت : أحيانا ، يا حبيبتى ، أحيانا . حين يتربص الجندی بعدوه ويريد أن يختله ،
يستجمع لذلك نفسه ، ويحتوى جسمه فى ذراعيه ، ويبعث ضربته . . . أما العاشق —
الأم : ألا تجلس ؟ ألا تأخذ راحتك ؟ إنى ذاهبة إلى المطبخ ، فكلارا لا تفكر
فى شىء وأتما هنا . فلا تؤاخذنى .

إجنت : إرادتك الحسنة خير ما يجعل الطعام شهياً (تنهب الأم) .
كلارا : وحبى إذن ماذا يصنع ؟
إجنت : كل ما تشتهين .
كلارا : قارنه إن استطعت .
إجنت : قبل كل شىء — (يخلع عباءته فيبدو فى لباس فاخر) .
كلارا : ما أبدع !!
إجنت : الآن أطلقت ذراعى (يضمها إلى صدره) .
كلارا : خل هذا . فأنت تتلف نفسك (تراجع) ما أفر ثيابك ! لا يجوز لى أن أقربك
إجنت : أراضية أنت ؟ لقد وعدتك أن آتيك مرة فى لباس الأسبان .
كلارا : من ذلك الحين كففت عن أن أسألك هذا . فقد ظننت أنك لا تريد —

وهذه القلادة الذهبية ؟ !

إجنت : ها أنت ذى ترينها .
كلارا : وإياها قلبك الأمبراطور ؟
إجنت : أجل ، ياطفتلى . والقلادة والوسام يخولان حاملهما أنبل الحريات . فلا أعترف
فوق الأرض بحكم على أعمالى سوى صاحب الوسام الأكبر ومحفل الفرسان مجتمعاً .
كلارا : إذا لك أن تدع الدنيا بأسرها تحكم عليك ولا تحفل بحكمها . — إن الخمل
آية فى الإبداع والحبك والتطريز ! إن المرء ليحار أين يبدأ !!
إجنت : أشبعى نظرك .

كلارا : والقلادة الذهبية ؟ لقد قصصت على حكايتها . وقلت إنها رمز لكل عظيم
ثمين لا يُستحق ولا يُنال إلا بالكد والجد . إنها ثمينة جداً — ويمكن أن أقارنها بحبك —
فإني أحمله بالمثل في قلبي — على أن — .

إجنت : ماذا ؟

كلارا : على أنه عند هذا وتقف المقارنة .

إجنت : كيف ؟

كلارا : لم أنل حبك بالكد والجد فلا أستحقه .

إجنت : الحب شيء آخر . إنك تستحقينه لأنك لا تطالبينه . ويفوز به في الناس غالباً
من لا يجري وراءه .

كلارا : أهذا القول منك عنك . أهذا الاعتراف الأبى اعترافك ؟ أنت يا من يحبه
الشعب عن بكرة أبيه ؟

إجنت : أفعلت للشعب شيئاً ؟ أكان في مكنتي أن أعمل له شيئاً ؟ إن حبه إليّ من
حسن إرادته .

كلارا : كنت اليوم بالتأكد عند الوصية ؟

إجنت : نعم كنت .

كلارا : أعلقتك بها طيبة ؟

إجنت : تبدو كذلك فنحن أحياء . ويخدم أحدنا الآخر .

كلارا : وفي السريرة ؟

إجنت : أريد لها الخير ، ولكل منا نياته . وهذا لا يضير أحداً . إنها سيدة كاملة ،
وتعرف ناسها . وهي ذات بصيرة نفاذة وإن لم تكن ذات مكر سيء . وأنتى لأسبب لها
المتاعب ، إذ ترى مسلكتي مخفوقاً بالأسرار ، وهو في الواقع خلو منها .

كلارا : لا أسرار فيه أبداً ؟

إجنت : لا يخلو الأمر . احتياط بسيط . كل نبذ مع الزمن يخلف في الدنان شيئاً من
الكدورة . وأورانيان لها خير منى موضوعاً ، وشغل جديد دائم . فقد بات مأثوراً عنه أنه

يخفي دائماً شيئاً . فهي تتطلع دائماً إلى جبينه تبتغي اكتمانه ما وراءه ، وتتأمل خطواته لترى أية وجهة هو موليتها .

كلارا : اتخادع هي ؟

إجنت : وصية وتسألين ؟

كلارا : عفوا . أردت أن أسأل : أ تظهر غير ما تبطن ؟

إجنت : لا أكثر ولا أقل من كل من يريد يلوغ أغراضه .

كلارا : إني قليلة الدراية بشئون العالم . لكنني أرى لها روح الرجال ، وأراها ليست ككل النساء . ليست مثلنا نحن الخياطات والطاهيات . فهي عظيمة شجاعة ذات عزم .

إجنت : أجل . لولا أن الأمور تذهب بعيداً . فقد زایلها الهدوء هذه المرة قليلاً .

كلارا : كيف ؟

إجنت : إنها أيضاً ذات شوירب . ويصيبها النقرس أحياناً . فهي مثال المرأة المسترجلة .

كلارا : امرأة جلييلة . فإني لأتهيب الظهور أمامها .

إجنت : لست في العادة هيابة . — ولن يكون هذا منك خوفاً ، بل خفر العذاري

(تخفض كلارا بصرها وتناول يده وقبل إليه) إني أفهمك ، أيتها الفتاة الحبيبة . فلك أن ترفعي بصرك (يقبل عينيها) .

كلارا : دعني ألوذ بالصمت . دعني احتفظ بك . دعني أطلع في عينيك وأجد فيهما

كل شيء من غراء وأمل وفرح وشجن . (تعانقه وتتأمله) قل لي . قل . أني لأفهم . أنت

إجنت ؟ الكونت إجنت ؟ إجنت العظيم الذي يثير هذه الضجة وتكتب عنه الصحف ، وتتعلق به البلاد !

إجنت : لا يا كلارا . لسته .

كلارا : كيف !

إجنت : أرايت يا كلارا . دعيني أجلس . (يجلس وتركم هي أمامه فوق مقعد صغير ،

وتضع ذراعيها في حجره وتتأمله) إجنت الآخر شخص برّمْ . جاف . فاتر لا ندحه له عن

الاعتماد على نفسه ، والظهور حيناً بهذا الوجه ، وحيناً بذلك . شخص متعب منكرو ، متورط ،

حين يحسبه الناس راضياً مرحاً ؛ محبوب من شعب لا يعرف ما يريد ، مكرم مرفوع إلى العلا

من جمهور لا يُرْكَن إليه ؛ محوط بأصدقاء لا يجوز له أن يعتمد عليهم ، مراقب من أناس يريدون أن يدانوه . يكذب ويخدع ، من دون غرض غالبا وبلا جدوى . دعيني ألوذ بالصمت فلا أحدثك عن حال إجمت الذي ذكرتُ وعن شعوره . لكن إجمت المائل أمامك يا كلارا إنسان هادئ ، صريح ، سعيد ، محبوب ، معروف من خير القلوب طرّاً . من القلب الذي يعرفه هو أيضا حق المعرفة ، ويضمه إلى قلبه وملؤه الحب والثقة . (يضمها إلى صدره) ، هذا هو إجمت الذي تملكين .

كلارا : إذن دعني أموت . فالدنيا لا تدخر لي فوق هذه الغبطة غبطة !

الفصل الرابع

تارع

يتر . المعلم النجار

يتر : هيه ! بست ! هيه ! أيها الجار ! كلمة

المعلم النجار : إمض في طريقك والتزم الهدوء .

يتر : كلمة فقط . لا جديد ؟

المعلم النجار : ليس سوى حَظَرِ الكلام علينا من جديد .

يتر : كيف ؟

المعلم النجار : تعال إلى البيت ! وحاذر ! فقد أصدر الدوق ألبا بمجرد وصوله أمراً يدمع

فيه بالخيانة العظمى من دون تحقيق كل اثنين أو ثلاثة وجدوا يتحادثون في الشارع .

يتر : يا للمصاب !

المعلم النجار : ويعاقب بالسجن المؤبد من يتكلم في شئون الدولة .

يتر : يا لحریتنا !

المعلم النجار : وبالموت من ينتقد أعمال الحكومة .

يتر : يا لرؤوسنا !

المعلم النجار : وبالأمانى والوعود الكبار الآباء والأمهات والأولاد والأقرباء والأصدقاء

والخدم الذين يبلغون المحكمة الخصوصية ما يجرى في البيوت .

يتر : لنعد إلى البيت !

المعلم النجار : أما المطيعون فقد وعدوا بأن لا يمسهم أذى في أنفسهم أو شرفهم

أو أموالهم .

يتر : يا للرحمة ! لقد حز الألم في قوادى مذ دخل الدوق المدينة . من ذلك الحين

والسما تبدو لى وكأنه تحجبها غمامة سوداء وكأنها تطبق على الأرض ، حتى ليجب أن يسير

المرء مقوَّس الظهر ليأمن الاصطدام بها .

المعلم النجار : وكيف راقك جنوده ؟ حقاً هذه سرطانات تختلف عما ألفناه .

يتر : خسواً ! إن المرء ليختنق إذ يرى فصائلها تنحدر من الأزقة منتصبى القامة كالشمعة ، ذوى نظرة غريبة ، وخطوة واحدة ، بالغاً ما بلغ عديدها ! وإذا وقفوا للحراسة ومررت بأحدهم فكأنه يخرق مكنونك بنظراته . يلوح لك جافاً أنك كأنك تقع منه في كل ركن على سجان . إن مرآهم ليكرب نفسى ، فقد كان عسكرنا بالقياس إلى هؤلاء قوماً تطيب لهم الدعابة . يتبسطن ، ويقفون هناك بسيقان لدنه ، وقبعات مسحوبة فوق الأذان . يعيشون ويدعون الناس يعيشون . أما هؤلاء فالآلات يكمن فيها الشيطان .

المعلم النجار : حين ينادى أحدهم « قف » ويصوب بندقيته أتظن أننى أقف .
يتر : إني أصبح كالأموات .

المعلم النجار : فلنذهب فى الحال إلى بيوتنا .

يتر : لا أمل فى صلاح الأمور . فإلى اللقاء .

(ينضم سوست)

سوست : صديق ! رفيق !

المعلم النجار : صه . ودعنا نذهب .

سوست : أتعلمان ؟

يتر : نعم أكثر مما ينبغى .

سوست : الوصية قد رحلت .

يتر : ليرحمنا الله .

المعلم النجار : كانت تحكمننا إلى الساعة .

سوست : رحلت فجأة وفى سكون . لم تستطع العيش مع الدوق . وقد أبلغت النبلاء أنها عائدة . ولكن من يصدق .

المعلم النجار : سامح الله النبلاء . فقد تركوا سوط العذاب الجديد ينزل فوق رقابنا . لقد كان فى وسعهم أن يحولوه . الآن قد ضاعت امتيازاتنا .

يتر : بربك لا تذكر عن الإمتيازات شيئاً . فإنى لأشتم رائحة صباح الإعدام : السماء تأبى أن تلوح ، والضباب يحط علينا .

سوست : لقد رحل أورانيان أيضاً .
المعلم النجار : إذن لقد تخلوا عنا تماماً .
سوست : لا يزال الكونت إجمت هنا .
يتر : شكراً لله . ليكن القديسون جميعها في عونته حتى يُفرغ قصاراه . إنه
الوحيد الذى يستطيع شيئاً .

(فانسن يظهر)

فانسن : أخيراً أقع على بضعة لم تتسلل بعد ؟
يتر : تكرم علينا بالانصراف .
فانسن : إنك غير لطيف .
المعلم النجار : ليس هذا أوان المجاملات . أوتأكلُك حَدْبُتْكَ ثانية ؟ أشفيت تماماً ؟
فانسن : سلوا الجندى عن جراحه . ولو قد قابلت الضرب بمثله لما أمكن أن يصيبنى
شئ منه طول حياته .

يتر : يمكن أن يتفاقم الأمر .
فانسن : تستشعر من نذير العاصفة التى تهب ، فتوراً أسيفاً فى أعضائك ، فيما يلوح .
المعلم النجار : أعضاؤك ستتحرك قريباً فى مكان آخر ، إذا أنت لم تلزم السكون .
فانسن : يا للفيران المساكين . إنه سرعان ما يتملكها اليأس إذا جاء رب البيت
بهرّة جديدة . إنه شئ للتبديل فحسب . ولكننا نسير سيرتنا الأولى . فألزموا إذن السكون !
المعلم النجار : إنك صعلوك متناول .

فانسن : يا للصديق المغفل ! دع الدوق يفعل ما يشاء . إن السنور الهرم يبدو كما
لو كان ازدرد شياطين بدل الفيران ، فهو لا قبل له بهضمهم . فاتركوه الآن ، فإن له أن يأكل
ويشرب وينام كسائر الناس . وليس ما يدعونى إلى القلق إذا أتمت تريثتم . فستأخذ الأمور
فى بدايتها مجرى سريعاً . ثم لا يلبث أن يهتدى إلى أنه خير له أن يتناول الطيبات فى قاعة
أكله ، ويستريح بالليل ، من أن يتصيد الفيران فى الأهراء . فاذهبوا ، فأنا عليم بالوُلاة .
المعلم النجار : ما أعجب ما يعتلج كل هذا برأس هذا الإنسان . لو أننى قلت مثله فى
حياتى لما أمّنت لحظة على نفسى .

فانسن : لتظلوا هادئين ! فالله في سمائه لا يحسكم أيتها الديدان . فهل يشعر بكم الوصى !
يتر : يا لك من بديء .

فانسن : أعرف آخرين لو أن لهم عرق خياط في أجسادهم بدل بطولتهم لكان هذا خيراً لهم .

المعلم النجار : من تعنى بهذا الكلام ؟

فانسن : أعنى الكونت .

يتر : إجننت ؟ وماذا يخشى هذا ؟

فانسن : إني رجل مُعَدِم . كنت خليقاً أن أعيش سنة مما يفقده إجننت في مساء

واحد . ومع ذلك فأخلق به أن يهيني إيراد سنة كاملة ، لو أن له رأسى لربع ساعة فقط .

يتر : تحسب نفسك شيئاً مذكوراً ؟ إن شعر إجننت لأحذق من دماغك .

فانسن : تكلموا ! ولا تتلطفوا ! إن السادة هم أول من ينخدعون ، وما كان له أن يأمن جانب أحد .

يتر : يا لهذيانه ! أمثل هذا السيد ! ؟

فانسن : أجل . لأنه ليس بخياط .

يتر : يا للقم القذر .

فانسن : أريد له شجاعتكم تسرى في جسمه ساعة من الزمان ، لتقلقه وتثيره ، وتظل تأكله حتى يغادر المدينة .

يتر : إنك تهذى بكلام غير مفهوم . إنه أمتع من النجم في السماء .

فانسن : ألم تروا أبداً نجماً يهوى ؟ يزول وكأنه لم يكن .

المعلم النجار : ومن يريد به شراً ؟

فانسن : من يريد ! أتريد أنت أن تمنع هذا ؟ أتريد أن تشتر اضطراباً إذا ألقوا

القبض عليه ؟

يتر : آه .

فانسن : أتريدون أن تضحوا بأنفسكم من أجله .

سوست : إيه — .

فانسن : (مقلداً لياهم) . إيه . آه . أوه . تعجبوا بأحرف الأبنجدية كلها . فهكذا الأمر وسيبقى هكذا . فليحرسه الله .

يتر : إني أرتاع لقلّة حيائك . أيخشى شيء على مثل هذا الرجل النبيل الشريف ؟

فانسن : إن الخبيث موفق في كل مكان . فإذا كان متهما تغفل القاضي من كرسى الاتهام . وإذا كان قاضياً طاب له أن يجعل المتهم مجرماً . وقد نسخت محضراً من هذا القليل . أعقد فيه البلاط الحمد والعطايا على محقق لأنه استجوب رجلاً شريفاً يراد به السوء ، فجعل منه ملفقاً .

المعلم النجار : هذا كذب جديد . فماذا يمكنهم أن يستخرجوا من رجل برى ؟

فانسن : يالك من أبله . حيث لا يمكن في الاستجواب استخراج ، يمكن استدخال . والرجل الشريف لا يفكر في العواقب . وهو إلى هذا جد عنيد . يُسأل أولاً في هيئة ورفق . والمقبوض عليه فخور ببراءته كما يقولون ، فيقول صراحة كل ما يخلق بالفتين أن يخفيه . فيبني المحقق على أجوبته أسئلة ، ويترصده لما يمكن أن يتراءى له ظلاً من تناقض ، فيعقد عندئذ حبالته ، ويدع الغبي المسكين يتخبط فيها . فيقول هنا شيئاً أكثر مما ينبغي أن يقال ، وهناك شيئاً أقل مما ينبغي قوله ، أو يكتفم شيئاً لوسوسة علمها عند الله ، أو يجوز عليه التخويف عند حد من الحدود ، فيساق في الطريق المرسوم . وأؤكد لكم أن المتسولات لا يبذلن من العناية في التنقيب عن الخرق في النفايات بقدر ما يبذل مثل هذا المزور ، ليلقى من بلاغات وظروف تافهة ، خاطلة ، مدلسة ، مشوشة ، معتصرة ، مغلقة ، معروفة ، منكرة ، صورة من القش المنفوش لإفزع الطير . وذلك ليستطيع على الأقل شنق المتهم صورياً . وللمتهم المسكين أن يحمده الله بعد ذلك إن كان لا يزال يستطيع رؤية نفسه مشنوقاً .

يتر : إن للرجل لساناً زرباً .

المعلم النجار : مثل هذا يجوز على الذباب . أما الزناير فتضحك من نسيجك .

فانسن : هذا حسب العناكب . انظروا فللدوق النحيل هيئة عناكب الحقائق . لا الضخمة البطن ، فهذه أقل أذى ، بل الطويلة الأرجل ، الضامرة الجسم ، التي لا يسمها الأكل . ثم هي تنسج خيوطاً رفيعة جداً لكنها جد متينة .

يتر : إن إجمعت من فرسان الفروة الذهبية . فمن يجرو أن يمسه بسوء ؟ ليس سوى أمثاله من تجوز لهم محاكمته ؛ وليس سوى محله من له الحق في محاكمته . فلسانك الطويل ، وضميرك السيء يغويانك إلى هذه الثثرة .

فانسن : وهل من أجل ذلك أريد له السوء ؟ إني لأحب له الخير ، فهو سيد من الطراز الأول . لقد أطلق بضعة من أعز أصدقائي وعلى ظهورهم حربة متورمة من شدة الجلد ، وكان غيره خليقاً أن يرسلهم إلى المشنقة . والآن فاذهبوا ! اذهبوا ! فإني لأنصح لكم بالانصراف . أرى هناك من جديد حلقة تنضم . وهي لا تبدو ميالة إلى مؤاخاة أمثالنا . فلننتظرها ! لننتظرها ! ولنتفرج هادئين . إن لي ابنتي أخ وصديقاً ساقياً ؛ فإذا شربوا من هؤلاء ولم يلطف الشراب شرastهم ، فهم إذن ذئاب مسعورة .

قصر أوبلنبرج

منزل الدوق ألبا

سلفاً وكومتس يتلاقيان

سلفا : هل نفذت أوامر الدوق .

كومتس : بالحرف الواحد . أمرت كل الدوريات اليومية بأن تكون جميعاً في أماكن مختلفة في وقت واحد . وهي تجوب المدينة في تلك الأثناء كالمعتاد للمحافظة على النظام ، من دون أن تعلم إحداها عن الأخرى شيئاً . كل منها تعتقد أن الأمر قد صدر إليها وحدها . وفي لحظة واحدة يمكن ضرب النطاق ، واحتلال جميع المنافذ المؤدية إلى القصر . أفتعلم أنت سبب ذلك ؟

سلفا : اعتدت أن أطيع طاعة عمياء . ومن أحق بالطاعة من الدوق . فالنتيجة توشك أن تبرر أمره .

كومتس : حسناً . حسناً . وليس عجيباً أن تكون مثله كتماناً وإيجازاً . فإنك تراقبه دائماً . أما أنا فلم آلف هذا الأسلوب . إذ كنت معتاداً الخدمة الإيطالية وهي أسهل . إني رجل يجري الإخلاص وتجري الطاعة في عروقي . لكنني اعتدت الثثرة والتساؤل . وأتم

تَلْزَمُونَ الصَّمْتَ جَمِيعًا ، وَلَا تَسْرُونَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَبَدًا . والدُّوقُ عِنْدِي يَشْبَهُ بَرْجًا مِنَ الْمَعْدِنِ لَا بَابَ لَهُ . يَدْخُلُهُ أَهْلُهُ طَائِرِينَ . وَقَدْ سَمِعْتُهُ أَخِيرًا يَتَحَدَّثُ عَلَى الْمَائِدَةِ عَنْ شَخْصٍ مَرَحٍ وَدُودٍ ، فَيَقُولُ إِنَّهُ كَحَانَةِ رَدِيئَةٍ ذَاتِ دَلَالَةٍ بَارِزَةٍ تَسْتَهْوِي الْمَتَسَكِّعِينَ وَالْمَتَسَوِّلِينَ وَالْأَصْوَصَ .

سلفا : أَوْ لَمْ يَقْتَدِنَا إِلَى هُنَا صَامِتًا ؟

كومتس : لَا اعْتِرَاضَ عَلَى هَذَا بِالتَّأْكِيدِ . فَمَنْ شَهِدَ حِكْمَتَهُ الَّتِي تَجَلَّتْ فِي اسْتِقْدَامِهِ الْجَيْشَ مِنْ إِيطَالِيَا إِلَى هُنَا فَقَدْ شَهِدَ شَيْئًا عَجَبًا ، وَرَأَى كَيْفَ كَانَ يَنْسِلُ بَيْنَ الصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ ، بَيْنَ الْفَرَنْسِيِّينَ ، مُلْكِيِّينَ وَزَنَادِقَةٍ ، وَبَيْنَ السُّوَيْسَرِيِّينَ وَالْحُلَفَاءِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَكَيْفَ رَاضٍ الْجُنْدُ عَلَى أَصْرَمِ طَاعَةٍ ، وَسَيَّرَ جَيْشًا كَهَذَا فِي سَهُولَةٍ وَسِلَاسَةٍ . وَكَانَ مِثْلَ هَذَا التَّسْيِيرِ مُحْفُوفًا فِي ظَنِّ النَّاسِ بِالْأَخْطَارِ . — لَقَدْ أَمَكَّنَا أَنْ نَرَى وَتَتَعَلَّمَ شَيْئًا .

سلفا : وَكَذَلِكَ هُنَا . أَوْ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ سَاكِنًا هَادِئًا كَانَ لَمْ تَكُنْ ثَوْرَةً قَطْ ؟

كومتس : لَقَدْ كَانَتْ الْحَالَةُ حِينَ قَدُمْنَا تَحْفَ بِهَا السَّكِينَةُ غَالِبًا .

سلفا : لَقَدْ بَاتَتْ الْأَقَالِيمُ أَهْدَأَ كَثِيرًا . وَإِذَا كَانَ ثَمَّ مِنْ لَا يَزَالُ يَتَحَرَّكُ ، فَنَفِي سَبِيلِ الْهَرَبِ . وَحَتَّى هَذَا يَوْشِكُ فِي أَغْلَبِ الظَّنِّ أَنْ يَجِدَ الطَّرِيقَ مُسَدُودًا فِي وَجْهِهِ .

كومتس : عَلَيْهِ أَنْ يَفُوزَ أَوَّلًا بِرُضَى الْمَلِكِ .

سلفا : وَلَيْسَ عِنْدَنَا أَهَمُّ مِنَ الْفُوزِ بِرُضَاهُ هُوَ . فَلَنْ يَفُوتَهُ وَمَنْ يُوصَى بِهِ الْجُزْءُ إِذَا

قَدَّمَ الْمَلِكَ .

كومتس : أَوْ تَظُنُّ الْمَلِكَ آتِيًا ؟

سلفا : إِنْ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْشِئَاتِ لَيَعْمَلُ عَلَى إِعْدَادِهِ ، حَتَّى لَيَرْجَحَ كُلُّ الرَّجْحَانِ أَنْ

يَأْتِيَ الْمَلِكُ .

كومتس : لَيْسَتْ هَذِهِ الْمُنْشِئَاتُ بِالَّتِي تَقْنَعُنِي .

سلفا : إِذْنِ أَمْسِكْ عَنِ الْكَلَامِ فِي هَذَا عَلَى الْأَقْلِ . فَإِنَّهُ إِنْ كَانَتْ نِيَّةُ الْقُدُومِ

لَا تَحْدُوْهُ الْمَلِكُ ، فَالْمَوْكَدُ عَلَى الْأَقْلِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَقِدَ النَّاسُ بِقُدُومِهِ .

(يَدْخُلُ فَرْدِينَانِ بِنِ أَلْبَا غَيْرِ الشَّرْعِيِّ)

فَرْدِينَانِ : أَلَمْ يَخْرُجْ أَبِي بَعْدَ ؟

سلفا : نَحْنُ فِي انْتِظَارِهِ .

فردينان : يوشك أن يأتي الأمراء .

كومتس : أيأتون اليوم ؟

فردينان : نعم . أورانيان وإجننت .

كومتس : (يخاطب سلفا في صوت خافت) إني أفطن إلى شيء .

سلفا : استبقه لنفسك .

(يدخل الدوق ألبا — يتراجع الآخرون بدخوله وتقدمه)

ألبا : كومتس !

كومتس : (يتقدم) مولاي .

ألبا : هل وزعت الحرس وأصدرت إليه الأوامر ؟

كومتس : على غاية الدقة . فالدوريات اليومية —

ألبا : كفى — انتظر في الرواق . سيخبرك سلفا بالخطّة التي تجمع الدوريات فيها

وتحتل بها المسالك المؤدية إلى القصر . وما بقي فأنت تعلمه .

كومتس : أجل يا مولاي (يذهب) .

ألبا : سلفا !

سلفا : ها أنذا .

ألبا : كل شيء قدرته فيك منذ البداية من شجاعة وتصميم وتنفيذ لا يدافع ،

إبدّه اليوم .

سلفا : أشكر لكم هذه الفرصة التي أتحتُم لي لأظهر أُنّى ما زلت من تعهدون

من قديم .

ألبا : إذا دخل الأمراء علىّ فأسرع بإلقاء القبض على كاتب سر إجننت . وقد

اتخذت كافة الإجراءات لاعتقال سائر من عينتهم ؟

سلفا : اعتمد علىّ . ما قدر لهم سيصيبهم ويروعهم في حينه ككسوف الشمس

الذي لا يخطئ حساباه .

ألبا : أكلفت من يلاحظهم ملاحظة دقيقة ؟

سلفا : الجميع وإجننت قبلهم . إنه الوحيد الذي لم يغير مسلكه منذ قدمت إلى

هنا فلا يزال يقضى نهاره كله منتقلا من صهوة جواد إلى صهوة آخر ، قارياً الضيف ، مرحا على الدوام ، مسامراً على المائدة ، يلعب بالنرد ، ويزاول الرماية ، ويتسلل بالليل إلى الحبيبة . أما الآخرون فقد كفوا في صورة ملحوظة عن العيش على أسلوبهم ، ولزموا دورهم ، حتى ليخيل لمن يقف ببابهم أن بالدار مريضاً .

ألبا : ومن ثم عجل قبل أن يشفوا على الرغم منا .
سلفا : سأتولى أمرهم وسنغفرهم كأمرك بالهبات التي تأسرها . إنهم فرعون يقدمون لنا من حسن السياسة شكراً يزجيه القلق . ويشعرون بأن خير ما يفعلون هو الهرب . لكن أحداً منهم لا يجروء أن يخطو خطوة واحدة . إنهم ليترددون ولا يستطيعون أن يجمعوا أمرهم . ويمنعهم ذلك الروح المتسلط عليهم من أن يقدموا فرادى على عمل جرى . إنهم حريصون على تجنب الريب فلا يكون من ذلك إلا زيادة الارتياب فيهم . وإنه ليدعو إلى الغبطة أن خطمتك تنفذ بحذافيرها .

ألبا : لا أعتبط إلا بما يتم . واعتباطى به ليس مع ذلك خالصاً ، فإن ثم على الدوام — شيئاً يدعوني إلى التفكير والاهتمام . والحظ عنيد ، يكرم الحقير دائماً ومن لا خلاق له ، ويبخس الفعال الصادرة عن روية ، ويلطخها بنتيجة زرية . انتظر حتى يأتي الأمراء فركومتس باحتلال الشوارع ، وعجل أنت بالقبض على كاتب إجنجت وبقية من عينت لك . ثم تعال إلى هنا ، وبلغ ولدى الخبر ليحمله إلى في المجلس .

سلفا : آمل أن يؤذن لي بالوقوف بين يديك هذا المساء (يتجه ألبا نحو ولده الواقف في الرواق . بصوت خافت) إني لا أجروء على الكلام ؛ لكن أملئ يتزعزع . وأخشى أن لا تجرى الأمور بما لا يُشتهى . فإني لأرى أرواحاً ترن مبصائر الأمراء والآلاف المؤلفة من الناس في كِفَاتٍ سوداء ، يخيم عليها السكون ويستغرقها التفكير . إن لسان الميزان يتذبذب بطيئاً هنا وها هنا ، والقضاة تبدو عليهم علائم التفكير العميق . وسترجح آخر الأمر كفة ، وتشيل كفة بمشيئة الأقدار ، ويصدر القرار (ينصرف) .

ألبا : (يتقدم وفردينان) كيف وجدت المدينة ؟
فردينان : لقد فتر كل شيء فيها فقد ركبت من شارع إلى شارع وكأني أُرَجِّي الفراغ .
فألقيتُ حرسك الذين أحسن توزيعهم يحبسون الأنفاس ، حتى لا يجروء أحد على همس من

شدة الخوف . فالمدينة تشبه حقلاً تضيئه العاصفة من بعيد ، فليس فيه طير أو حيوان إلا ما ينسل مسرعاً إلى ملجأ يعصمه .

ألبا : ألم تلق غير هذا شيئاً .

فردينان : جاء إجمت إلى السوق راكباً ومعه بعض الرجال ، فحيا أحداً الآخر . وكان تحته جواد قوى الشكيمة فأطريته . فصاح بي : لنعجل بامتطاء الجياد فسنحتاج إليها قريباً . ثم قال إنه سيراني اليوم ثانية إذ يجيئ لمشاورتك إجابة لطلبك .

ألبا : أجل سيراك مرة أخرى .

فردينان : إنه فيمن أعرف من الفرسان خيرهم ، وأنه ليلوح لي أننا سنكون أصدقاء .

ألبا : إنك دائماً متسرع ، قليل الحذر ، وأرى فيك دائماً خفة أملك وطيشها الذي لم يكن مفر من أن يلقيها بين أحضاني . فالظواهر تغرك فتدفعك إلى غير علاقة خطيرة . فردينان : إرادتك كفيلة بتكيفي .

ألبا : إنني أعترف لدمك الفتى هذه الطيبة الطائشة وهذا المرح الأرعن . فقط لا تنس المهمة التي ابتعثت من أجلها إلى هنا ، ولا النصيب الذي أحب أن أجعله لك .

فردينان : ذكرني ولا تحفل بي ، أتى وجدت هذا ضرورياً .

ألبا : (بعد هنيهة) بُنَيَّ .

فردينان : أبى .

ألبا : إن الأمراء قادمون وشيكا . أورانيان وإجمت آتيان . وليس من سوء الظن أني أكشفك الآن فقط بما أقدر أن يقع . إنهما لن يبرحا هذا المكان ثانية .

فردينان : ماذا تدبر يا أبى .

ألبا : لقد قررت اعتقالهما — أراك دهشا . فاسمع ما عليك أن تفعله . وستعلم الأسباب متى تم الأمر . أما الآن فلا وقت للتفسير . إنني لأود أن أبحث معك وحدك كل جليل وخفي . فإن أصرة قوية تربط أحداً بالآخر . أنت عندى عزيز حبيب وأود أن أكل إليك كل شيء . ليست الطاعة وحدها ما أريد أن أعودك إياه ؛ بل أحب أيضاً أن أنقل إليك القدرة على التعبير والأمر والتنفيذ ، وأن أخلف لك تركة عظيمة ، فتكون للملك خادمه الذي لا يستغنى عنه ، وأن أجهزك بخير ما عندى فلا تحجل من الظهور بين إخوتك .

فردينان : أى شىء لست به مديناً لك على هذا الحب الذى تؤثرنى به . أنت الذى ترتعد الدولة بأسرها منك .

ألبا : والآن فاسمع ما عليك أن تفعله حين يدخل الأمراء . فكل طريق إلى القصر سيحتل ، والأمر بذلك يحمله كومتس . وسيبادر سلفا إلى القبض على كاتب إيجنت وعلى سائر المشتبه فيهم . وتتولى أنت الإشراف على النظام بين حرس المدخل والأفنية . واعهد قبل كل شىء بهذه الغرف القريبة إلى آمن الرجال . ثم انتظر فى الرواق عودة سلفا . فإذا عاد فأحمل إلى ورقة عديمة الشأن لأفهم أن المهمة أديت . ثم أبق فى الردهة حتى ينصرف أورانيان فسر فى أثره . أما أنا فستبقى إيجنت هنا كأنما عندى ما أقوله له . وفى طرف الرواق أطلب إلى أورانيان سيفه ، وناد الحرس ، وعجل باعتقال أخطر رجل . بينما يكون إيجنت هنا فى قبضتى .

فردينان : سمعاً وطاعة يا والدى . ولأول مرة بقلب حزين ونفس مهمومة .
ألبا : أغتفرها لك . فهذا أول يوم عظيم تحياه .

(يدخل سلفا)

سلفا : رسول من أنفرس . ها هو ذا كتاب أورانيان . إنه لا يأتى .

ألبا : أيقول الرسول ذلك ؟

سلفا : كلا بل هذا حديث القلب .

ألبا : يتكلم فيك شيطانى . (بعد أن يقرأ الكتاب يومئ إلى كليهما فينسحبان إلى الرواق ويبقى هو وحده فى المقدمة) إنه لا يأتى . لقد تكتم مسلكه حتى اللحظة الأخيرة . إنه يجروء على التخلف . كان الحكيم هذه المرة على غير ما افترضت . كان من الحكمة بحيث أطرح الحكمة . إن الساعة تدور وليس على العقب سوى شقة بسيطة فيتم عمل عظيم أو يفوت فوتاً لا يدرك . ذلك أنه لا سبيل إلى استدراك أو تكتم . وقد وزنت كل شىء من زمن حتى نضج ، ولم تغب حالة كهذه عنى ، فاتخذت لها العدة . والآن والموقف يدعو إلى العمل لا أ كاد اتحامى التردد من جديد بين ما للأمر وما عليه . أمن الحكمة أن أعتقل الآخرين بينما هو يفر منى ؟ أم أرجئ وأدع إيجنت ورجاله ومعهم كثيرون يفلتون . وقد لا يقعون بعد اليوم فى قبضتى ؟ أبداً . أهكذا يقهرك القدر يا من لا تقهر ؟ ما أكثر ما فكرت ، وما أحكم ما رتبت ! ما أعظم

وأجمل ما دبرت ، وما أدنى ما كان الأمل إلى التحقيق . فالآن في لحظة الفصل تقف بين شرين ، وتخط في المستقبل المظلم كما تخط في حق النرد . فما تمسكه لا يزال يتدحرج ولا تزال تجهله ، لا تعلم أفأترأنت أم خاسر . (ثم يتنبه شأن الذي يسمع شيئاً ويخطو إلى النافذة) إنه هو . — إجننت . أيدخل بك جوادك بهذه السهولة فلا يتراجع من راحة الدم ، ومن الطيف الذي ينتضى السيف اللامع لاستقبالك ألبالباب ؟ ترجل — هكذا تدخل إلى قبرك بإحدى قدميك ، ثم بكليهما . امسح على رقبته وربت عليه للمرة الأخيرة جزاء ما خدمك هذه الخدمة الجريئة . أما أنا فليس لي خيار . ففي هذا العمى الذي يقترب به إجننت ما أراه يسلم نفسه لك مرة أخرى . اسمعوا . (يعجل إليه فردينان وسلفا) أفعلا ما أمرتكما به فلن أغير إرادتي . سأستبقى إجننت على أى نحو كان حتى تحمل إلى النبا من سلفا ثم ابق على مقربة . أنت أيضاً يحرمك القدر من فضل عظيم فيفوتك القبض على ألد عدو للملك (سلفا) أسرع . (لفردينان) اذهب للملاقاته . (يبقى ألبا لحظات وحده يندرع فيها المكان صامتاً) .

(يدخل إجننت)

إجننت : جئت أتلقي أوامر الملك ، وأسمع أية خدمة يقتضيها ولاؤنا الدائم له .

ألبا : إنه يرغب قبل كل شيء في سماع رأيك .

إجننت : في أى صدد ؟ أيا ترى أوراينان أيضاً ؟ لقد حسبته هنا .

ألبا : يؤسفنى أن نفتقده في هذه الساعة الخطيرة بالذات . إن الملك يرغب في سماع

ما تشير به وتنصح لإرضاء هذه الولايات ثانية . أجل إنه ليأمل أن تعاوننا بقوة على تهدئة هذه القلاقل ، وإقرار النظام في الأقاليم كاملا مرجو الدوام .

إجننت : في وسعكم أن تعلموا أكثر منى أن كل شيء قد أخذ إلى السكينة إخلاداً

كافياً . بل لعله كان أكثر هدوءاً قبل أن يبعث مظهر الجند الجدد الخوف ، ويشير القلق من جديد .

ألبا : يلوح أنكم تريدون التلميح بأنه كان أولى أن لا يجعلنى الملك يحيث أوجه

إليكم سؤالاً .

إجننت : عفواً . فإنه ليس من شأنى أن أحكم أكان إرسال الجيش ، أم كانت السلطة

التي يبعثها محضر جلالته أخلق وحدها بأن تفعل في النفس وتؤثر تأثيراً قويا ؟ فالجيش هو

الموجود هنا لا جلالة الملك . وأنا لنكونن جحودين جداً وكثيرى النسيان إذا نحن لم نذكر ما يطوق أعناقنا من فضل الوصية . فلنؤمن بأنها ألزمت الثوار السكينة بمسلكها الحكيم الجريء ، إذ توسلت فيه بما لها من سلطة وهيبة وقوة إقناع ، وسعة حيلة ، وأنها أعادت شعباً متمرداً إلى أداء واجبه فى بضعة أشهر ، وهو أمر أدهش العالم .

ألبا : لست أنكر هذا . فلاضطراب قد هذا . والكل فيما يلوح قد ألزموا حدود الطاعة . لكنه أليس تخطى هذه الحدود وفقاً على إرادة كل منهم ؟ فمن ذا يمنع الشعب من الثورة ؟ وأين السلطة التى تردهم ؟ ومن يضمن لنا أن يظلوا مظهرين الولاء والخضوع ؟ إن حسن إرادتكم هو كل الضمان الذى نملكه .

إجننت : أفليس حسن إرادة الشعب هو خير ضمان وأنبه ؟ يا لله ! ومتى جاز الملك أن يشعر بأنه آمن من شر أعدائه فى الداخل والخارج إلا بأن يقف الجميع وراء الواحد ، وأن يقف الواحد مع الجميع ؟

ألبا : ما أحسبنا أحرىء بأن نقتنع بأن الأمور تجرى هنا على هذا المنوال .
إجننت : ليصدر الملك عفواً عاماً يهدئ النفوس . فسرعان ما يرى المرء كيف أنه بالثقة يعود الولاء والحب إلى مكانهما القديم .

ألبا : وكل من عاب جلالة الملك ، ودنس قدسية الدين ، أيسرح حراً طليقاً ، ويغدو ويروح على هواه ، ويعيش مثلاً للآخرين على أن الجرائم الشنيعة تذهب فى الناس بلا عقاب ؟

إجننت : أليس الأثم الناجم عن الطيش والعربة أخلق بأن يغتفر ، لا أن يقسو عليه الجزاء ، وخاصة إذا كان الأمل وطيداً واليقين قائماً ، بأن الشرور لن تعود ؟ ألا يكون الملوك بذلك آمن على أنفسهم ؟ ألا يذكر بالخير فى الناس والأجيال المقبلة من قدروا على العفو عن أساء إلى كرامتهم ؛ واستطاعوا الرثاء للمسيء والازدراء لإساءته ! ألا يرتفعون إلى مثل مرتبة الخالق الذى لا تصل إليه جريرة فى علاه ؟

ألبا : ومن ثم ينبغى على الملك أن ينافح عن غرة الله والدين ، وأن ننافح نحن عن هبة الملك . فما يترفع العظيم عن استنكاره يكون علينا نحن أن نعاقب عليه ، وعندى أنه ما من آثم يجوز أن توليه مسرة الإفلات من العقاب .

إجنت : أو تظن أنك تنالهم جميعاً ؟ ألا تسمع كل يوم أن الخوف يقذف بالناس هنا وهاهنا ، ويشردهم إلى الخارج . سيهرب الأغنياء متاعهم ، ويهربون هم وأبنائهم وأصدقائهم . وسيعير الفقير جاره يديه النافعتين .

ألبا : سيفعلون إذا لم نستطع منعهم . ومن ثم يطلب الملك إلى كل أمير أن يمدّه برأيه وعمله ، ويقتضى الجدّ كل حاكم لا كلاماً وحكاية ، كما هي الحال الآن ، وكما يمكن أن تكون إذا ترك كل شيء يجري كما يجري . أما التفرج على شر مستطير ، والتعلل بالأمل ، والاطمئنان إلى الزمن ، والضرب مرة كما هو الشأن في المرافع لإحداث صوت ، تظاهراً بالعمل ، والعمل لا يخطر بالبال — أليس معناه أن يعرض المرء نفسه للريب ، وأن يشته في أنه يتفرج مغتبطاً على الثورة التي لا يجب أن يكون من مضميرها ، لكنه يرضى عنها .

إجنت : (على وشك أن يهب ، لكنه يتألم نفسه ، ويتكلم بعد هنية رابط الجأش) ليست كل نية واضحة ، ولا نية بعض الرجال بالتى يساء تأويلها . إن المرء ليسمع من كل ناحية أن نية الملك لا تتجه إلى حكم الأقاليم بقوانين صريحة واحدة ، ولا إلى صيان جلال الدين ، ومنح الشعب سلاماً عاماً ، بقدر ما تتجه إلى إخضاعه إخضاعاً محتماً ، واغتصاب حقوقه القديمة ، والاستيلاء على أملاكه ، وتقييد حقوق النبلاء القيمة ليعلمه النيل من أجل هذه الحقوق ، ولجعل جسمه وحياته وفقاً عليه وحده . يقولون إن الدين ليس إلا بساطاً فاخراً يستتر المرء ليكون من الأسهل عليه وراءه أن يرسم خطته الخطرة . إن الشعب جاث على ركبته يصلح لما بدا من أمارات مقدسة ، والصيد من وراءه ينبغي أن يستلبه هذه الأمارات .

ألبا : أمثل هذا الكلام أسمع منك ؟

إجنت : ليست هذه أفكارى . وإنما هو ما ينتشر ويذيع عالياً مرة هنا ومرة هناك على لسان الكبير والصغير ، والحكيم والأخرق . إن أهالى الأراضى الواطئة يخافون نيرا مزدوجاً . ثم من يكفل لهم حريتهم ؟

ألبا : حرية ؟ كلمة جميلة لمن يحسن فهمها . أية حرية يريدون ؟ وما مبلغ حرية أكثر الناس حريةً ؟ — أن يعمل صالحاً . وليس الملك بالذى يحد من هذه الحرية . لا . لا . إنهم لا يعدون أنفسهم أحراراً حين لا يستطيعون الإضرار بأنفسهم وبالغير . أليس الأفضل

التخلي عن الولاية لاحكم شعب كهذا ؟ إن الخلاف ليدب في صفوفه إذا ألح عليه أعداء من الخارج ليسوا في حساب أحد من الأهالي ، إذ كل منهم في شغل بجاره . فإذا طالبه الملك بالعون ، تفرقت كلمته وراح وكأنما يتأمر مع أعدائه . أفضل من هذا كثيراً أن يُضَيَّق من هذه الحرية ليتمكن حكمهم كما يحكم الأطفال ، وليقادوا لمصلحتهم كما يقاد الأطفال . وأعتقد أن الشعب من الشعوب لا يهرم ولا يرشد بل يظل طفلاً على الدوام .

إجنت : ما أندر ما يبلغ ملك سن الرشد ! ثم ألا يؤثر الكثيرون أن يكون الكثيرون موضع تقهم لا واحد بعينه ؟ وأن لا تكون تقهم بهذا الواحد بل بالهينين عليه ، بالشعب ، ذلك الذي يهرم من نظرات سيده فهو وحده من له الحق في أن يصير رشيداً .

ألبا : لعل المانع من رشده أنه لا يترك لنفسه .

إجنت : بل إنه لا يترك لنفسه ، لأن أحداً لا يجب أن يترك لنفسه . فليفعل من شاء ما يشاء ، فقد أجبت عن سؤالك . وأعيد القول : إن هذا لا يكون ولا يمكن أن يكون . فإني خبير بمواطني . إنهم رجال يستحقون الدخول في أرض الله كلهم جريئاً ، وملك صغير . كلهم ثابت ، نشيط ، كفء ، أمين ، حريص على عاداته القديمة ، صعب على المرء أن يستحق تقهم ، لكنه من السهل أن ينالها . جامدون عنيدون ، يمكن أن تضغطهم ، لكنه لا يمكن الضغط عليهم .

ألبا : (الذي يكون قد تلفت حوله في تلك الأثناء مراهراً) أ كنت تعيد هذا كله في حضرة الملك ؟

إجنت : أسوء من هذا لي ، أن أتهيب الكلام في حضرته . وخير له ولشعبه إن شجعتني ، ومهد لي سبيل مصارحته بأكثر مما قلت .

ألبا : يمكنني مثله أن أسمع ما فيه نفع .

إجنت : كنت أقول له : سهل أن يسوق الراعي قطعاً من الغنم ، والثور يجز الحراث ولا يمانع في جره . لكن الفرس النبيل إذا أردت ركوبه يجب عليك أن تتعرف أفكاره ، فلا تطلب إليه خرقاً ، ولا تكون معه في الطلب غير حكيم . ومن ثم يريد ابن البلد أن يحتفظ بدستوره القديم ، وأن يحكمه مواطنوه لأنهم يعرفون كيف يسوسونه ، ولأنه يأمل منهم الرعاية والعطف على مصيره .

ألبا : ألا يملك الوصى تغيير هذا الدستور القديم . أليس هذا بالذات هو أكبر امتياز له ؟ وما الذى يثبت فى هذه الدنيا ولا يتحول ؟ وهل يمكن أن يبقى نظام دولة بلا تغيير ؟ ألا يتبدل كل وضع بعد مضى زمن بعينه ، ويصبح من ثم كل دستور قديم سبباً لآلاف الشرور ، لأنه لم يعد يلائم حالة الشعب فى وقته الحاضر ؟ أخشى أن تكون مؤاتاة هذه الحقوق القديمة ناشئة من أنها ذات مهابر تمكن الماكر وذا السلطان ، من أن يستتر وراءها أو يتسلل منها ، أضراراً بالشعب ، وإيذاءً للمجموع .

إجنت : وهذه التغييرات التحكيمية ، وهذه التدخلات غير المحدودة من أسمى سلطة ، أليست نذراً بأن واحداً يريد أن يفعل ما لا ينبغي أن يفعله الألوف ، يريد أن يملك وحده من الحرية ما يرضى رغباته جميعاً ، وينفذها جميعاً ؟ وإذا نحن وثقنا كل الثقة بملك طيب حكيم ، أيضمن هو ألا يأتى بعده ، من يحكم من دون اكتراث أو رعاية ؟ ومن يقينا عندئذ من استبداد كامل ، إذا هو ابتعث إلينا خدامه ، والأدنين منه ، ليحكمونا على هواهم ، وعلى جهل بالبلاد وحاجاتها ، وليمضوا فى سياستهم من دون مقاومة ، فيعرفوا كيف يتحللون من كل تبعة .

ألبا : (الذى يتلفت حوله فى تلك الأثناء كرة أخرى) ليس ما هو أكثر انسجاماً مع طبائع الأشياء من أن يرى ملك أن يحكم بنفسه ، وأن يختص بأوامره من هم أفهم له ، وأكثر رغبة فى فهمه ، ومن ينفذون مشيئته من دون قيد ولا شرط .

إجنت : ومثل ذلك انسجاماً مع طبائع الأشياء أن يرغب ابن البلد فى أن يحكمه من ولد ونشأ معه ، ومن يشاطره فهمه للعدل والظلم ، ومن يجد فيه أخاه .

ألبا : ومع ذلك فقد كانت قسمة النبلاء مع هؤلاء الأخوة قسمةً ضيزى .

إجنت : كان هذا قبل قرون . وهو يحتمل اليوم . ولا نحسد أصحابه عليه . أما إذا أرسل أناس جديدون من غير ماداع لئيثروا على حساب الأمة مرة أخرى ، ورأى الناس أنفسهم معرضين لجشع قاس جريء لا ضابط له ، فإن ذلك خليك أن يحدث اختاراً ليس من السهل أن يزول من نفسه .

ألبا : إنك تجابهنى بما لا ينبغي أن أسمعه . وأيضاً فإنى أجنبى .

إجنت : إن توجيهى إياه إليك يدلك على أننى لا أعنيك .

ألبا : وحتى مع هذا كنت أود أن لا أسمعك منك . لقد ابتغنى الملك وهو يأمل أن أجد هنا عون النبلاء . والمليك يريد أن تنفذ إرادته . وقد رأى بعد إعمال الفكر ما يصلح للشعب . فالأمور لا يمكن أن تبقى أو تسير على هذا المنوال . ونية الملك تتجه إلى الحد من حرية الناس لمصلحتهم ، وأن يفرض عليهم ما ينفعهم فرضاً إذا اقتضى الأمر ، وأن يضحي بالضارين من أبناء البلاد ، ليجد الباقون راحتهم ويستمتعوا بالهناء الذي تتيحه لهم حكومة رشيدة . هذا هو قراره : وقد كلفني أن أعلنه إلى النبلاء . وإني أسألك باسمه أن تشير عليّ كيف أودى هذا ، لا ماذا أفعل ، فإن هذا قد تقرر .

إجنت : يؤسفني أن تجيئ أقوالك مبررة لمخاوف الشعب والخوف العام . إذن لقد قرر ما لا ينبغي أن يقرره أمير . إنه يريد أن يضعف من قوة الشعب ومن روحه ، ومن إيمانه بنفسه ، ويذلها جميعاً ، ويقضى عليها ليستطيع أن يحكمه وهو مطمئن . إنه يريد أن يقضى على صميم كيانه ، وفي نيته على التحقيق أن يجعله أسعد حالاً مما هو . يريد أن يجعله عدماً ، ليجعل منه شيئاً ، شيئاً آخر . فإذا كان الملك حسن النية فالطريقة التي اختيرت لتحقيقها لاشك خاطلة . إن الملوك لا تقاوم لكنما يعترض المرء الملك الذي يخطو الخطوات المشئومة الأولى للسير في غير الطريق السوي .

ألبا : يلوح لي مما يجول في ذهنك أن من العبث أن نحاول الاتفاق . إنك لتستهين بالملك وتزدرى نصحاء ، إذا أنت شككت في أن كل شيء لم يُفكر فيه ولم يبحث ولم يدرس . فلم أكلف أن أبحث مرة أخرى فيما يجب وما لا يجب ، وإنما أطلب الطاعة من الشعب ، ومنكم أتم زعمائه ، وأنبئ من فيه . أطلب النصيحة والعمل ضماناً لهذا الواجب المفروض .

إجنت : اطلب أعناقنا تنته منا دفعة واحدة . فسيان عند النفس النبيلة طأطأت الرأس تحت النير أو حنيتته تحت فأس الجلال . وقد ذهب كل ما قلت سدى ولم أعد أن حركت به الهواء فذهب هباء .

(يأتي فرديناند)

فرديناند : عفواً أن قطعت حديثكم . هذا خطاب يلح حامله في طلب الجواب .

ألبا : اسمح لي أن أطلع عليه (يتحنى جانباً) .

فردينان : (إجنت) إنه جواد جميل ذلك الذى أحضره رجالك لعودتك .
إجنت : ليس بأردء جواد . قد استبقيته فترة وأرى أن أتخلى عنه . فإذا راقك فلرب
عقدنا الصفة .

فردينان : حسناً سنرى (ألبا يوحى إلى ولده الذى ينسحب إلى المؤخرة) .
إجنت : أستودعك الله ، وأذن لى فى الانصراف . فإنى لا أعلم بالله ما أقول فوق
الذى قلت .

ألبا : لقد حالت الصدفة لحسن حظك دون الكشف عما تبقى من أفكارك .
وقد بسطت فى غير ما حذر طيأت قلبك ، واتهمت نفسك بأصرم مما كان يفعل خصم حقود .
إجنت : هذه اللائمة لا تمسنى فإنى بنفسى جد عليم . عارف مبلغ ولائى للملك أكثر
كثيراً من كثيرين يخدمون أنفسهم فى خدمته . وإنى على الرغم منى أخرج من هذا النضال
من دون أن أسويه . وأتمنى فقط أن توفق بيننا قريباً خدمة السيد وخير البلاد . ولعل حديثاً
معاداً وحضرة أمراء ينقصوننا اليوم ، ينفع كلاهما فى لحظة أسعد من هذه ، ويكون له من الأثر
ما يعز اليوم . بهذا الأمل أنصرف .

ألبا : (الذى يعطى ولده فردينان إشارة فى نفس الوقت) — قف يا إجنت ! سيفك —
(ينفتح الباب الأوسط . فىرى الرواق يحتله الحرس الذى يبقى فى مكانه) .

إجنت : (الذى يظل برهة صامتاً دهشاً) إذن كان هذا قصدك . من أجل هذا استدعيتنى
(يلتضى سيفه كما لو كان يريد دفاعاً عن نفسه) أبت بلا حماية ؟

ألبا : أمر الملك . وأنت أسيرى . (يدخل على الأثر رجال مسلحون من الجانبين) .
إجنت : (بعد سكون) الملك ؟ — أورانيان ! أورانيان ! (ثم يسلم سيفه بعد برهة قائلاً) إذن
خذه . لقد طال ما دافع عن قضية الملك أكثر مما حى هذا الصدر (يخرج من الباب الأوسط يتبعه
المسلحون الموجودون فى الغرفة وبالثل ولد ألبا . ويظل ألبا واقفاً وتنزل الستار) .

الفصل الخامس

سارع

الوقت وقت السحر

كلارا . برا كنبرغ . أهالى

برا كنبرغ : حبيبى ، بحق السماء . ماذا تنتوين ؟

كلارا : تعال معى يا برا كنبرغ . لا بد أنك تجهل الناس . سنخلصه من غير شك ، وإلا فماذا يعدل حبهم إياه ؟ كل منهم — وأقسم على ذلك — يحس فى نفسه بالهفة المتقدة على إنقاذه ، ودرء الخطر عن حياة غالية ، ورد الحرية إلى سيد الأحرار . تعال ، أفلا ينقص إلا الصوت الذى يجمعهم ، ولا يزال دينه عليهم يعمر صدورهم ! فهم يعلمون أن ساعده القوى وحده هو الذى يدفع عنهم غائلة الدمار . فمن أجله وأجل أنفسهم يجب أن يقدموا على كل شيء . وما عسانا أن نقدم عليه ؟ الحياة التى لا تستحق أن يحافظ عليها إذا هو قضى . هذه الحياة هى أكثر ما نبذل .

برا كنبرغ : أيتها المنكودة الحظ . ألا ترين القوة التى نرسف فى أغلالها المكيئة .

كلارا : لا تلوح لى مما لا يمكن التغلب عليه . لندع الكلام طويلا بهذا القول الذى لا يجدى . هاهم أولاء بعض الرجال المسنين الشرفاء الشجعان . اسمعوا أيها الأصدقاء . اسمعوا أيها الجيران . خبرونى عن إجمت .

المعلم النجار : ماذا تريد الطفلة ؟ أسكتها .

كلارا : اقتربوا لتكلم فى رفق إلى أن تتحد كلمتنا ونصبح أقوى مما نحن الآن . فليس يجوز لنا أن نفوت على أنفسنا لحظة واحدة . إن الظلم الوقح الذى يتجرأ على تقييده ، يهز الخنجر لقتله به . أيها الأصدقاء ! إن كل خطوة يخطوها الشفق تزيد فى ارتياحى وإنى لأخشى هذه الليلة . تنالوا . سنوزع أنفسنا ، ونعدو من حى إلى حى ، نستصرخ القوم . ولينتض كل منكم سلاحه القديم ، وليكن فى السوق تلاقينا ، وليجرف تيارنا معه كل من

يصادفه . عندئذ يجد الأعداء أنفسهم ، وقد أهدقنا بهم ودهمناهم وسحقناهم . وماذا يستطيع لنا حفنة من العبيد ؟ ثم إنه وهو في وسطنا ، وقد عاد طليقاً ، يستطيع أن يشكرنا مرة ، نحن الذين ندين له بالشئ الكثير . اعلمه يرى ، بل إنه على التحقيق سيرى مطلع النهار ثانية ، وقد خضبت السماء حمرة .

المعلم النجار : ما بك يا فتاتى .

كلارا : أترأى أستم فهمى ؟ إنى أتحدث عن الكونت . إنى أتحدث عن إجننت .
يتر : لا تلفظى هذا الاسم ، إنه مهلك .

كلارا : لا أذكر هذا الاسم ؟ كيف ؟ ومن ذا الذى لا يذكره فى كل مناسبة ؟
وأن لا تجدونه مسطوراً ! لقد طالما طالعت به أحرفه كلها فى هذه التجوم . أفلا أذكره ؟ ما معنى هذا ؟ أيها الأصدقاء ! أيها الجيران الطيبون الأغراء ! إنكم تحملون . أفيقوا . لا تنظروا إلى محملين مرتاعين هكذا ! ولا تتلفتوا وجلين هنا وها هنا . إنما أطلب إليكم ما يتمناه كل منكم . أليس صوتى هو صوت قلوبكم ؟ من ذا الذى لا يركع على ركبتيه فى هذه الليلة المخوفة ليسترده بالصلاة الحارة من السماء ، قبل أن يصعد إلى سريره المؤرق ؟ سلوا بعضكم بعضاً . وليسأل كل منكم نفسه . فمن ذا الذى لا يردد بعد ذاك ورأى : « حرية إجننت أو الموت » .
يتر : اللهم احفظنا . إن مصابا سيقع .

كلارا : ابقوا . ابقوا . ولا تتفرقوا من سماع اسمه . وقد كنتم قبل الآن تتزاحمون عليه مبهجين . حين كان مقدمه يعلن ، وحين كان يقال إجننت آت ، إنه آت من غنت ، كان السكان فى الشوارع التى يخرقها إجننت راكباً يعتدون أنفسهم سعداء . وحين كنتم تسمعون خشخشة حياده ، كان كل منكم يطرح عمله ، وتشرق وجوهكم المهمة المطلة من النوافذ بالنظرة من محياه ، كشعاع الشمس ، تبعث الغبطة والأمل . كنتم إذ ذاك ترفعون أطفالكم على عتبة الباب فى الهواء ، وتشيرون إليهم قائلين : « انظروا هاكم إجننت ! أعظم الجميع ! إنه هو من يرجع إليه الفضل فى انتظاركم أياماً خيراً من التى عاشها آبأؤكم المساكين » فلا تدعو أطفالكم يسألونكم يوماً : أين ذهب إذن ، وأين الأيام التى كنتم تعدون ؟ — هكذا نتساجل القول وتلكأ ونخونه .

سوست : إلا ما خجلت يا برا كنبرغ ! لا تدعها تتماذى . ادرا الشر .

برا كنبرغ : حبيبتى كلارا فلنذهب . ما عسى أملك أن تقول . ربما —

كلارا : أتغنى أنتى طفلة أو بلهاء ؟ ما معنى ربما . — أأذهب بى عن هذا اليقين المرعب من غير أمل — ينبغي أن تستمعوا لى وستستمعون . ذلك أنى أدرك خيركم . إنكم مرتبكون ولا تستطيعون أن تتمالكوا أنفسكم . ارجعوا البصر خلل هذا الخطر القائم إلى الماضى ، إلى الماضى القريب ، ثم ولوا أفكاركم شطر المستقبل . أفستطيعون أن تعيشوا حين يلحق به هو الدمار ؟ إن أخرى نسأت الحرية لتلفظ فى أنفاسه . أفتعلمون كم كان لكم ؟ وفى سبيل من أسلم نفسه إلى الخطر الداهم ؟ لقد دميت جراحه واندملت من أجلكم . إن النفس الكبيرة التى حملت عبثكم جميعاً باتت رهن السجن تحوم حولها غائلة القتل . ولعله يفكر فيكم الآن ويحدوه الأمل من أجلكم ، وهو من ألف أن يعطى وأن ينجز .

المعلم النجار : تعال يا صديقى !

كلارا : ليست لى ساعد مثل ساعدكم ، ولا قوة مثل قوتكم . لكن لى ما ينقصكم أجمعين : عندى الشجاعة والقدرة على احتقار الخطر . كانت أنفاسى خليقة أن تلهبكم ، وكنت خليقة أن أضحمكم إلى صدرى فأدفئكم وأحيى مواتكم . فتعالوا . فإنى أريد أن أسير بينكم — كالعلم يقود جيشاً نبيلاً من المحاربين يرفرف فوقهم . أريد أن تندلع روحى حول رؤوسكم لهيباً ، وأن يؤلف الحب والإقدام بين الشعب المتردد الشثيت فيجعل منه عسكرياً لجباً .

يتر : نحها جانباً ! إنى أرثى لها (ينصرف الأهالى) .

برا كنبورغ : كلارا ! ألا ترين أين نحن ؟

كلارا : أين ؟ تحت السماء التى طالما تبدت قبتها فى مظهر مجيد يوم أن كان النبيل يسير تحتها . من هذه النوافذ كانوا يطلون : أربعة رؤوس أو خمسة بعضها فوق بعض . وبهذه الأبواب كانوا يجتمعون ويحنون الرؤوس حين كان يتفضل بالنظرة على هؤلاء الجبناء . ما كان أحبهم إلى حين كانوا يحلونه . ولو كان طاعية لتحاشوا طريقه لكنهم كانوا يحبونه . — أيتها الأيدى التى كنت ترفعين القبعات احتراماً ، أراك لا تستطيعين انتضاء السيوف . برا كنبورغ ! — ونحن ؟ — أنلومهم — هذه السواعد التى طالما أمسكت به ماذا يسعها أن تفعل له . — لقد نال المكر من الدنيا الكثير . — وأنت تعرف الطرقات والمعابر ، وتعرف القصر القديم . وليس فى الدنيا مستحيل فأشِرْ على بشيء .

براكنبورغ : حين نؤوب إلى البيت .

كلارا : حسناً .

براكنبورغ : هناك عند المنعطف حرس ألبا . فدعى صوت العقل ينفذ إلى قلبك .
أفتحسيني جباناً ؟ ألا تعتقدين أنني أموت من أجلك ؟ . كلانا هنا مجنون ، أنا وأنت على
السواء . ألا ترين المستحيل ؟ تمالكى نفسك فأنت لست في وعيك .

كلارا : لست في وعي ! ! يا للفظاعة ! براكنبورغ ! أنتم الذين لا تعون ،
إذ كنتم حين مقدمه تكررّمون البطل عالياً ، وتدعّونه صديقكم وحاميك ومعتقد رجائكم ،
وإذ أنا واقفة في ركبي أفتح النافذة نصف فتحة ، وأخفي وراءها أسترق السمع ، وقلبي يخفق
بأشد من خفقان قلوبكم أجمعين . وإنه الآن ليخفق أكثر مما تخفق قلوبكم . أتحبثون في
ساعة الضيق وتنكرونه ، ولا تشعرون بأنكم — حين يهلك . تهلكون ؟
براكنبورغ : هيا إلى البيت .

كلارا : إلى البيت !

براكنبورغ : أفيق وانظري حولك . هذه هي الشوارع التي لم تكوني تطئنها
إلا أيام الأحاد ، والتي كنت تسيرين فيها محتشمة إلى الكنيسة ، فتغضبين للفضيلة وتبالغين
في الغضب حين ألحق بك فيها حياءً بكلمة ودودة . إنك تقفين فيها الآن ، وتحطين ،
وتعملين فيها أمام الملاء أجمعين . أفيق أيتها الحبيبة . فماذا ينفع ذلك ؟
كلارا : إلى البيت . أجل إني أفيق . فهيا يا براكنبورغ إلى البيت . أتعرف
أين موطني ؟ (بنصر فان) .

السجون

بضيئه مصباح وفي مؤخرته سرير

إجمنت وحده

أيها الصديق القديم ! أيها النوم الذي والاني دائماً . أتهجرني أنت أيضاً كما هجرني
سائر الاصدقاء . كم هبطت راضياً فوق رأسى الحر ، ولطفت سألني كإكليل الريحان

الجميل المنطوى على الحب . كم رقدتُ في أحضانك ، في حومة الوغى ، وموجة الحياة ، أنفَسَ في راحة كالطفل السعيد . وحين كانت العواصف تصفر بين الغصون ، والأوراق والفروع تنز ، والاعالى تهتز ، لم تكن السكينة تزايل القلب وصميم الفؤاد . فما الذى يهزك الآن . ما الذى يزغزع الوجدان الثابت الأمين ؟ أشعر بالمصاب . إنه وقع فأس الفناء ، تجتثني من الجذور ؛ ولا أزال على قدمي ، يقشعر بدني . إنها القوة الخؤون تتغلب على ، وتقوض الجذع الثابت العالى . فقبل أن يحف اللحاء ينهد عالىك ، ويتحطم .

أنت يا من طالما أزعجت الهموم الراضحة عن صدرك وبددتها كما تبدد ققاييع الصابون ! لماذا تعجز الآن عن طرد الخاطر الذى لا ينفك يجول ويصول في رأسك ؟ متى ألفت الموت خيفاً ؟ أنت الذى كنت تعيش مع صوره المتنوعة هادئاً كما تعيش مع أعماط الناس . ليس السجن بالعدو العاجل الذى يشتهيه الصدر السليم ويسعى جاهداً إليه ؛ فالسجن أنموذج للقبر يبعثه البطل والرعيد على السواء . لم ألك أطيع جلستى فوق المقعد الوثير فى مجلس الحكم ، والأمراء يبدئون ويعيدون فى الأمر البسيط ، وكان خليفاً أن يفصلوا فيه على أهون سبيل . كنت حين أضيق بالمكان وينقبض صدرى لقتامة الجدران أعجل بالانصراف ما أمكن الانصراف ، وأبادر إلى امتطاء جوادى نشطاً أنفَسَ الصعداء ، إلى حيث المكان الذى خلقناه . إلى الميدان الذى نصيب من أرضه ما يرتفع إلينا من طيبات الطبيعة ، ويهب من سماءه ما يهبط علينا من بركات النجوم . حيث نشب من مسأنا أصلب عوداً كالمراد الأرضى ، وحيث نحس البشرية فى كل جارحة فينا ، وتطفئ علينا شهوات الإنسان ، وحيث تستعر فى نفس القناص الفتى الرغبة فى الإقدام والظفر والخنص والضرب والاستحواذ والفتح . وحيث يقتصب الجندى حقه الموروث فى الدنيا بأسرها مسرعاً ، ويطلق لنفسه العنان مستبيحاً باطشاً منطلقاً كالبرد العاصف ، نخر با فى المرج والحقل والغاب ، لا يصدده صاد .

إنك صورة فحسب ، وحلم يذكرك بالهناء الذى سعدت به طويلاً . فإلى أين ساقتك خيانة القدر ؟ أو يأتى أن يجعل إليك فى وضح النهار بالموت الذى لم تهبه قط ، ليزيقك فى الطين المهيمن طعم الرمس ؟ ما أبشع أنفاسه التى تهب على من هاته الحجارة . إن الحياة تقيض ، والقدم تتراجع أمام هذا السرير كما تتراجع أمام القبر .

أيها الهم الذى تشرع فى القتل قبل الأوان ، حل عني . فمتى كان إجمت فى هذه الدنيا

وحيداً ، لا سند ولا عون ؟ إن الشك لا الهناء هو الذى يفقدك الشعور . هل اختفت عدالة الملك التى آمنت بها طيلة حياتك ، وخبت صداقة الوصية التى قارت أن تكون حبا ؟ — ولك أن تقولها لنفسك — ، كما تنطفئ النار الساطعة فى جوف الليل دفعة واحدة ؟ أخلفتك كلماتها وحدك فى الطريق المظلم ؟ ألا يقدم أورانيان على رأس أصدقائك لخلاصك ؟ ألا يتجمع الشعب ويسعى بالقوة الجائشة إلى إنقاذك ؟

أيها الجدران التى تحتجزينى ، لا تمنعنى عنى تلك الأرواح الغفيرة التى تتدافع نحوى تريد لى الخير ، وتلك الشجاعة التى كانوا يستمدونها منى وتفيض بها عيناى : لتعد الآن من قلوبهم إلى قلبى . بلى إنهم يتحركون ألوفا . إنهم آتون ليقفوا إلى جانبي . إن أمانهم الحارة تتصاعد عجلي نحو السماء ترجو المعجزة . فإذا لم ينزل ملك لخلاصى فسيتناولون الحراب والسيوف لإيقادى . إن الأبواب تنشق ، والأسيجة تتحطم ، والصور يندك تحت أيديهم ، وحرية النهار الطالع تلاقى إجمت مغتبطا ، وغير وجه أعرفه يستقبلنى مهللا . آه يا كلارا لو أنك رجل لكنت فى طليعة الآتين ، ولشكرت لك الحرية التى يشق أن أحدها لملك .

بيت كلارا

(تأتى كلارا تحمل مصباحا وقدحا من الماء من الغرفة فتضع القدح على المائدة ، وتقدم إلى النافذة)

كلارا : برا كبيرغ ؟ أهذا أنت ؟ ماذا سمعت إذن ؟ لا أحد بعد ؟ لم يكن أحد هناك . أريد أن أضع المصباح على النافذة ليرى أننى لا أزال يقطى ، وأننى مازلت أنتظره . لقد وعدنى خبراً . خبراً ! إنه اليقين المرعب . لقد حكم على إجمت . فأية محكمة تملك أن تطلبه ؟ ثم هم يدينونه . أيدينه الملك أم الدوق ؟ وتتصل الوصية ، أو يتردد أورانيان وسائر أصدقائه جميعاً ؟ أهذه هى الدنيا التى سمعت الكثير عن قلبها ، وعدم الركون إليها ، ولم أشعر بهما . أهذه هى الدنيا ؟ من ذا الذى يبلغ من شره أن يعادى العزيز ! أبلغ من سلطان الشر أن يسقط سريعا ذلك المعترف بين الكافة بفضل ! أجل إن هذا هكذا . هكذا ! أى إجمت ! كنت آمن عليك أمام الله والناس كما آمن عليك بين ذراعى . فماذا كنت لك ! لقد تملكتنى ، وجعلت حياى فداء لك . فمن أنا إذن ؟ عبثاً أمد يدي إلى الحبال التى تترهنك . أنت بلا معين ، وأنا طليقة . — ها هو ذا مفتاح بابى . إنى أروح وأغدو على هواى ولا أملك شيئاً لك — ألا فلتقيدونى

حتى لا يتملكني اليأس ! القوابي في غيابة السجون ، لأضرب رأسي بالحيطان الرطبة ، وأتلهف على الحرية ، ولأحلم كيف وددت أن أعينه ، وكيف كنت أساعده لو لم يشلني القيد . —
لكني طليقة ، وفي حريتي يمكن خوفي من العجز — أعجز عن أن أحرك عضواً لمساعدته شاعرة كل الشعور بذلك . وآأسفاه . إن ذلك الجزء الصغير من كيائك ، كلارا التي هي ملكك ، سجنينة مثلك . تعتلج بعيدة منك قواها الأخيرة في تشنجة الموت . — أسمع تسلا وسعالا — برا كنبرغ — إنه هو — أيها الرجل المسكين الطيب ، إن مصيرك واحد لن يتغير . إن حبيبتك تفتح لك الباب الليلي ولكن لأى لقاء مشثوم .

يظهر برا كنبرغ

كلارا : أراك ممتعا وجلا يا برا كنبرغ . فما وراؤك ؟
برا كنبرغ : لقد طلبتك وأنا ألف وأدور وأعرض للأخطار . إن الشوارع الكبرى محتلة ، وقد تسالت إليك من الأزقة والزوايا .

كلارا : قصّ علىّ . ما هنالك ؟
برا كنبرغ : (يجلس) آه يا كلارا دعيني أبكى . لم أكن أحبه . كان الرجل السرى ، فاستهوى الحمل الوحيد الذى يملكه الفقير إلى مرعى أطيب . ما لعنته قط ، فقد خلقني الله مخلصا رقيقا . كانت حياتي تنضب في الألم ، وكنت أرجو الضنى كل يوم .
كلارا : إنس هذا يا برا كنبرغ . إنس نفسك . حدثني عنه . أحقا أنه حُكم عليه ؟
برا كنبرغ : أجل . أعلمه علم اليقين .
كلارا : ولا يزال حيا ؟

برا كنبرغ : نعم يعيش .
كلارا : أتى لك أن تؤكّد هذا ؟ فالظلم يفتك بالسّنيّ في بهمة الليل ، فيسيل دمه خفية عن الأنظار جميعا . والشعب المذهول مذعور في نومه يحلم بالخلاص . يحلم بتحقيق أمنيته الواهنة . في تلك الأثناء تودع روحه الدنيا كارهة . لقد صعدت روحه إلى بارئها . فلا تخدعني ولا تخدع نفسك .

برا كنبرغ : كلا . إنه يعيش — ويدعو إلى الأسف أن الأسبان الذين يريدون سحق الشعب يعدون له مسرحية مرعبة تحطم إلى الأبد كل قلب يهفو إلى الحرية .

كلارا : إِمض في كلامك وأصدر هادئاً حكم الموت على . فإني أقترِب من تلك البقعة السعيدة شيئاً فشيئاً ، وأستروح العزاء من أرض السلام . تكلم .

برا كنبورغ : لقد وسعني أن ألحظ على الحراس من كلام جرى هنا وههنا أن في السوق شنيعة تعد في الخفاء . وقد تسلفت من الأرقعة ، ومن طرق معروفة إلى بيت ابن عمي لأطلع على السوق من نافذة خلفية . — كانت المشاعل تهب وتندلع ألسنتها رائحة غادية في دائرة واسعة من جند الأسبان . فدققت النظر فيما لم تألفه عيني فبرزت لي من جوف الليل صقالة سوداء فسيحة عالية . فاقشعر بدني لهذا المنظر . وكان كثيرون منهمكين حولها يجالون كل أبيض واضح من خشبها بقماش أسود ويلفونه فيه . وقد أبصرتهم أيضاً يجالون الدبرج أخيراً بالسواد فكأنهم يأخذون في إعداد احتفال بضحية بشعة . وقد ثبتوا في ناحية صليباً أبيض كان يلتمع كالفضة في الليل الخالك ورفعوه عالياً . رأيت اليقين المرعب ، وازداد يقيني به . وكانت المشاعل تترشح فلم تلبث أن خبت تدريجاً وانطفأت ، فعاد الرعب الذي تمخض عنه الليل إلى بطن أمه ، وطواه الظلام .

كلارا : كفى يا برا كنبورغ . والزم الصمت ودع هذا القناع يسترنى . لقد توارت الأشباح . وأنت أيها الليل الرفيق أعمر عباءتك تلك الأرض التي تحتمر ، فلن تحتمل طويلاً ذلك العبء البغيض . ستتفتح شقوقها العميقة بما يرعب النفس وتندك فيها صقالة الموت . سيرسل الله ملكاً ما تسمى إليه الأرض لتشهده على سورتها . وستنحل المزالج والروابط لِمَسِّه الطاهر ، ويحيط الصديق بهالة من النور الشفيق . سيقوده في الليل إلى الحرية في حنوسكون . وسيكون سيرى أيضاً في هذه الظلمة خفية لألقاه .

برا كنبورغ : (محتجراً لها) . إلى أين يا عزيزتي ؟ إلى أين تجرئين ؟

كلارا : اخفض صوتك يا عزيزي فلا يستيقظ أحد ، ولا ننتبه نحن أيضاً .

أتعرف هذه القنينة يا برا كنبورغ ؟ لقد انتزعها منك مازحة ، وأنت تهدد بالموت العاجل كلما عيل منك الصبر ، وكثيراً ما عيل — والآن يا صديق —

برا كنبورغ : يا للدهاية الدهاء .

كلارا : إنك لا تدفع شيئاً ، فالموت من نصيبي . فامنحني الموت الرفيق السريع الذي كنت أعددت لنفسك . ناولني يدك . — في اللحظة التي أفتح فيها الباب المظلم الذي

لا رجعة منه . أستطيع أن أقول لك ، ويدي تضغط يدك كما أفعل الآن ، كم كنت أحبك
وكم رثيتُ لحالك . لقد مات أخى صغيراً فاخترتك لتعوضنى منه لكن قلبك عارض ، وعذبك
وعذبنى ، وأبيت إلا أن يكون لك حاراً ، وحاراً دائماً ، ما لم يقدر لك . فسأحنى وطب
عيشاً . دعنى أناديك بأخى فإنه اسم يجمع الكثير من الأسماء . خذ آخر زهرة جميلة من
أزهار الراحلين وقلبك عامر بالوفاء . — تناول هذه القبله فالموت يجمع الأشتات يا براكنبورغ .
وسوف يجمعنا أيضاً .

براكنبورغ : إذن دعينى أشاطرك المات ، فقاسمى . فى القنينة الكفاء لإطفاء حياتين .
كلارا : بل عش ! فعليك أن تعيش . وبوسعك أن تعيش — كن إلى جانب
أمى التى سوف تضنى من دونك ضنكا . كن لها ما لم أعد أستطيع أن أكون لها بعد الآن .
عيشا معاً لتبكيانى ، لتبكي الوطن ، وتبكي من كان وحده القدير على صيانته . لن ينجو
الجيل الحاضر من مصابه به ، ولن تستطيع سورة الانتقام لنفسها أن تقتله . أيها المساكين !
عيشوا العمر الذى لم يعد عمراً . فاليوم تسكن حركة الدنيا دفعة واحدة وتقف دورتها .
ونبضى قد لا تستغرق دقائق بضع دقائق أخرى . فالوداع .

براكنبورغ : أما عشت معنا كما نعيش لأجلك وحدك . ستميتينا بموتك فعيشى وإن
تألمت . سنقف بجانبك لا نفارقك . والحب كفى أن يهيب لك فى أحضانها الجياشة العزاء
الجميل ، ويسهر عليك . كونى لنا . ولا يجوز أن أقول لى .
كلارا : ترفق يا براكنبورغ . إنك لا تحس ماتمس . فحيثا لاح لك الأمل كان
لى عين اليأس .

براكنبورغ : قاسمى الأحياء الرجاء . إياسى عند حافة الهاوية . وانظرى إلى الغور
البعيد ، ثم ارجعى البصر إلينا .

كلارا : لقد تغلبت — فلا تسترجعنى إلى النضال .

براكنبورغ : إنك مذهولة يطويك الليل ، وتطلبين الاعماق . ولم ينطفئ كل نور
بعد ، ولا يزال هناك نهار .

كلارا : واهاً لك ! واهاً لك ! إنك تمزق الستر عن عيني فى غير مراحة
ولا شفقة ! أجل سيطلع النهار . سيحاول أن يجتذب من حوله الضباب لكنه سيطلع رغم

أنفه . سيطل المواطن من نافذته جزوعاً ، وسيخلف الليل بقعة سوداء . سيطل فترعبه القصلة وهي تزداد في الضوء وضوحاً . سيرفع الإنسانُ المخلوقُ على مثال الرحمن ، بصره إلى خالقه ضارعا إليه من الألم الجديد . لن تجرأ الشمس على الارتفاع حتى لا تسجل الساعة التي يموت فيها . إن العقيرين يجريان مجراها متباطئين والساعة تدق تلو الساعة . مهلاً . مهلاً . الآن حان الحين . والآن يدفع اقتراب الصبح إلى القبر . (تتقدم إلى النافذة وتظاھر بأنها تلفت حولها وتتجرع خفية) .

برا كنبورغ : كلارا ! كلارا !

كلارا : (تذهب إلى المائدة وتشرب ماء) هاك البقية . إني لا أغويك . فافعل ما شئت . وداعاً . أطفئ هذا المصباح في سكون ولا تتردد ، فإني أتوجه إلى النوم ، تسلل إلى الخارج في رفق ورد الباب وراءك في سكون ، ولا توقظ أحمى . اذهب وانج بنفسك . انج بنفسك ، إذا شئت أن لا يشته في أنك قاتلي (تنصرف) .

برا كنبورغ : إنها تتركني لأخر مرة شأنها في كل مرة . ليت نفساً بشرية تشعر كيف تستطيع أن تمزق قلباً محباً . إنها تتركني واقفاً ، تتركني لنفسى . والموت والحياة كلاهما بغيض إلى . تموت وحدها . — أذرفوا الدمع أيها العاشقون ، فليس أقسى من مصيرى . إنها تقاسمى شراب المنون وتطلق سبيلى . تقصينى عن جوارها . تجذبنى إليها ، وتردنى إلى الحياة . ما أغلى ما تصيب يا إجنّت . إنها تسبقك وإكيليل النصر الذى تتلقاه من يدها هو إكيليلك . إنها تأتى إليك بالنعيم كله — هل أتبعها ؟ وانزوى ثانية بعيداً منهما ؟ وأحمل إلى تلك المنازل العلية حسداً لا ينطق ؟ — لم يعد فى الأرض مكان لى . والجحيم والنعيم سواء فيما يبذلان لى من عذاب . ما أحرى التعيس بأن يرحب بيد الرعب يدها إليه الفناء .

(برا كنبورغ ينصرف ويظل المسرح لحظة كما هو . ثم تبدأ موسيقى ترضى إلى موت كلارا والمصباح الذى نسى برا كنبورغ أن يطفئه ، يدلع لهيبه مرات ثم ينطفئ . ثم يتحول المسرح إلى) :

السجن

(إجنّت يرقد نائماً فوق السرير . ثم إذا بصليل مفاتيح يسمع ، وإذا بالباب يفتح ويدخل منه خدم بالمشاعل ، وفردينان ابن ألبا من ورائهم ومعه سيلفا يصحبهما رجال مسلحون . إجنّت يهب من نومه) .
إجنّت : من أنتم يا من تطردون النوم من معاهد أجفانى غير محتشمين ؟ ماذا تعلن

إلى نظراتكم المتحدية القلقة ؟ ولماذا هذا المشهد الخيف ؟ أى حلم مرعب تقصون على النفس بهتاناً وهى لم تستكمل يقطتها بعد ؟

سيلفا : أرسلنا إليك الدوق لنعلن إليك الحكم .

إجننت : وهل أحضرتكم الجلاد أيضاً لتنفيذه ؟

سيلفا : اسمعه تعلم ماذا ينتظر .

إجننت : هذا بكم خليق وبيدائتكم المعيبة . دبرت بليل ونفذت بليل . ظلم جرى

يوارى عن العيان . تجاسر وتقدم يا من تحمل سيفك متوارياً تحت عباءتك ! هاك رأسى أعلى ما انتزع الظلم من جسمى وأعظمه حرية .

سيلفا : أنت واهم . ما يقرره قضاة عدول لا يتهيب وجه النهار .

إجننت : هكذا تتجاوز القحة كل فهم وكل فكر .

سيلفا : (يتناول الحكم من أحد الواقفين وينشره ويأخذ فى تلاوته) « باسم الملك وبمقتضى

السلطة الخاصة المخولة لنا من جلالته بالقضاء فى رعاياه جميعاً أيا كان مقامهم . سواء فى ذلك فرسان الفروة الذهبية أو غيرهم ، قد اتضح —

إجننت : أيستطيع الملك تخويل هذه السلطة ؟

سيلفا : « قد اتضح لنا بعد تحقيق قانونى سابق واف أنك يا هنرى كونت إجننت

وبرنس دى جور مدين بالخيانة العظمى . وقد أصدرنا حكماً ، بأن تقاد فى باكورة النهار

الطالع ، من الحياة إلى الموت ، أمام أعين الشعب لتكون عبرة لكل خائن . صدر فى

بروكسل فى (يقرأ رقم السنة فى غمغمة بحيث لا يسميها السامعون) . فردينان دوق ألبا ورئيس محكمة الاثنى عشر

فالآن قد علمت مصيرك . وليس لديك إلا القليل من الوقت للاستعداد له ، وطلب

آل بيتك ، وتوديع ذويك (ينصرف سيلفا ومعه الحاشية ويتخلف فردينان ومعه مشعليان . تكون

الإضاءة فى المسرح معتدلة) .

إجننت : (يقف برهة ساكناً غارقاً فى الفكر ويترك سيلفا يمضى دون أن يلتفت ، ويعتقد أنه وحده .

لكنه إذ يرفع عينيه يبصر ابن ألبا) أتقف وتتخلف ؟ أتريد أن يزيد وجودك فى عجبى ، وفى

ارتياحى ! أتريد أن تحمل إلى والدك رسالة موموقة فتبلغه أنى عدمت الرجولة فى يأسى ؟
 اذهب ! اذهب وقل له — ! قل له إنك لا تخدعنى ولا تخدع العالم بكذبك . لهذا الرجل
 الطموح سيقولها الناس من وراء كتفيه همساً ، ثم بصوت مرتفع يزداد ارتفاعاً . فإذا ما هبط
 عن هذه القمة فسوف تصرخ فى وجهه ألف صوت تقول له : لم يكن صالح الدولة ولا هيبة
 الملك ولا أمن الأقاليم ما أتى به إلى هذا المكان . إنه من نفسه قد نصح بالحرب ليكون
 المحارب فى الحرب السلطان . لقد آثار هذه الفوضى الطاغية ليكونوا بحاجة إليه . وإنى
 لأسقط ضخية بغضائه الحقيرة ، وحسده الوضيع . أجل أعلم ذلك ولى أن أقوله . فالواقف على
 عتبة القبر ، والجريح بالجرح المميت من حقه أن يقوله . فقد حسدنى المغرور ، وفكر ودبر طويلاً
 فى اجتثاثى . كان فى سالف الزمان ونحن أصغر مم نحن الآن ، نلعب بالنرد ، وتنهار إلى ناحيتى
 أكوام الذهب كوما بعد كوم — كان يقف مغيظاً ، يصطنع الهدوء ، ويأكل قلبه الحقد
 على حظى أكثر مما يأكله السخط من خسارته . ما أزال أذكر تلك النظرة القداحة بالشرر
 والامتقاع المنطوى على الصدر ، حين كنا نتبارى فى الرماية فى حفل رسمى أمام ألوف مؤلفة
 من الناس . فقد طلبنى إلى منازلته ووقفت الأمان وجهاً لوجه : الأسبان وأبناء الأراضى
 الواطئة تتباريان وتتمنيان . وتغلبت عليه إذ طاشت رصاصته وأصاب رصاصتى ، فشق هتاف
 أنصارى عنان السماء . لكن رميته الطائشة لم تخطئى . قل له إنى عليم بما هنالك ؛ عليم به
 هو ؛ وإن الدنيا تحتقر كل ظفرتحتسله النفس الحقيرة . أما أنت فإذا كان ممكناً أن لا تكون
 للابن طباع أبيه ، فاستشعر الحين بعد الحين ذلك الخجل الذى تحسه لى ، أنا الذى تود من
 كل قلبك تبجيله .

فردينان : أنى أسمعك ولا أقاطعك . إن ملائك ينزل فى كضربات الهراوة على
 إحدى الخوذ . أحس بهزها ولا تؤذبنى . إنك تصيبنى لكنك لا تجرحنى . وكل ما أشعر
 به هو الألم الذى يمزق قلبى . فواها لى ، واها لى ! فمثل هذا المشهد كان نموى ، ومثل هذه
 المسرحية كان ابتعائى .

إجنت : أنجأ بالشكوى ؟ فم تشكو وماذا مضى ؟ أندم متأخر هو ؟ على معاوتك
 على المؤامرة الخزية ؟ إنك فى ريعان الشباب . ولك طلعة ميمونة . وقد كنت ذا ثقة بى ،
 وكنت ودوداً نحوى . كلما رأيتك صفت نفسى لأبيك . لكنك تستدرجنى إلى الأحبولة

مداحيا كأبيك وأكثر مداحاة من أبيك . أنك للشنيع ! من يأمن له يتعرض للخطر .
لكن من ذا الذى يخشى خطرا من ثقة بك ؟ أذهب . اذهب . لا تسلبنى اللحظات القليلة .
اذهب لأستجمع نفسى وأنسى الدنيا وأنساك أولا .

فردينان : ما عسانى أن أقول لك ؟ إني واقف أنظر إليك ، فلا أراك ولا أشعر
بنفسى . أينبغى أن أعتذر ؟ أينبغى أن أوكد لك أنى لم أعلم بنيات أبى إلا متأخرا ، وإلا فى
النهاية القصوى ، فكنت مرغما وكنت أداة جامدة لإرادته ؟ وما يجدينى أى رأى لك فى ؟
إنك مقضى عليك . وأنا الشقى أقف هنا لأؤكد لك مصيرك ولأرثى لك .

إجنت : يا له من صوت غريب ، وعزاء غير منتظر يتلقانى فى طريقى إلى القبر .
أنت يا ابن عدوى الأول ، بل عدوى الوحيد تقريبا ، ترثى لى ؟ ألست بين قتلتى ، قل
تكلم . ماذا أعدك ؟

فردينان : يالك من أب قاس ! أنى لأتبينك فى هذا الأمر . فقد كنت تعرف
قلبي وتفكيرى الذى طالما عبته بأنى أرثه عن أمى الرحيمة . فلكى تجعلنى على غرارك
أرسلتنى إلى هذا المكان . أرغمتنى على رؤية هذا الرجل الواقف على حافة قبر فاغر فاه ،
والرازح فى قبضة موت عاسف ، لأحس من رؤيته أعماق الألم ؛ لأصم أذنى عن كل مصير ؛
لأغدو عديم الشعور . وليكن بعد ذلك ما يكون .

إجنت : عجبا ! هدى روعك ! قف ! تكلم كما يجمل بالرجل .

فردينان : ألايتنى امرأة . ألايت من يقول لى : ماذا يؤثريك هذا ، وماذا يعينيك ؟
قل لى شراً أكبر وسوءاً أعظم ، اجعلنى شاهدا على فعلة مرعبة أشكرَكَ وأقلُ لك :
لم تفعل شيئا .

إجنت : أنك تضيع نفسك . فأين أنت ؟

فردينان : دع هذه السورة تطفئ . دعنى أشكو طليقا . لا أحب أن أصطنع الثبات ،
وكل شئ فى ينهار . أريد بى أن أراك هنا ؟ — أنت ؟ — هذا خيف . أنك لا تفهمنى
وهل عليك أن تفهمنى ؟ إجنت . إجنت . (يرتى عليه ويطوق عنقه)

إجنت : اكشف لى هذا السر !

فردينان : لا سر .

إِجْنَتْ : كيف يؤثر فيك هذا التأثير مصير رجل غريب عنك ؟

فردينان : لست غريبا . كلا لست غريبا عني . فاسمك هو الذي كان يرشدني في صباى الأول كنجوم السماء . وكثيرا ما كنت أتسقط أخبارك وأتساءل عنك ؛ والطفل يتطلع إلى الشاب ، والشاب إلى الرجل ؛ وهكذا كنت تخطو أمامي . دائما أمامي . فكنت تتقدمني وكنت أتتبع خطاك دون ما حسد ، ومن دون توقف . وأخيرا أملت أن أراك . ورأيتك فهنا قلبى إليك . لقد قررتك لنفسى ، فلما رأيتك اخترتك من جديد ، ورجوت أن أكون معك وأن أعيش معك . وأن أعلق بك وأن — لقد قطع كل شيء . فيها أنذا أراك هنا .

إِجْنَتْ : يا صديقى ! إذا كان يرضيك أن تعلم أن نفسى مالت إليك منذ اللحظة الأولى فأنى أو كده لك . والآن اصغ إلى . دعنا نتبادل معا كلمة هادئة . قل لى . أهى إرادة أهلك الجدية الصارمة أن يقتلنى ؟

فردينان : نعم .

إِجْنَتْ : وليس هذا الحكم صوريا أجوف لأرهابى ، والتوسل بالخوف والتهديد لعقابى واذلالى ، ثم رفعى بعد ذلك من الحضيض بعفو ملكى ؟

فردينان : كلا . ويا للأسف كلا . فقد عللت نفسى بادئ ذى بدء بهذا الأمل الضائع . بل إنى عندئذ أحسست الخوف والألم من رؤيتك على هذه الحال . لكن ها هو ذا الأمر حقيقى مؤكد . إن نفسى ثائرة على من يسعفى . ومن يمدنى بالرأى السديد فى التفادى مما ليس منه بد !

إِجْنَتْ : إذن أصغ إلى . إذا كانت نفسك تلج بك هكذا إلى إنقاذى ، وإذا كنت تستنكر الطغيان الذى يقيدنى ، فنجنى . إن اللحظات جد ثمينة . وأنت ابن صاحب السلطان . وأنت نفسك ذو سلطان — دعنا نهرب . فأنى أعرف الطرق . والوسائل لا يمكن أن تكون مجهولة عندك . هذه الأسوار فقط وبضعة أميال فقط تبعدنى من أصدقائى . فك هذه القيود . واذهب بى إليهم ، وكن من رجالنا . سيحمد لك الملك يوما إنقاذى ما فى ذلك شك . إنه الآن تحت تأثير الصدمة ، ولعله يجهل كل شيء . إن أباك يتجاسر . وصاحب الجلالة لا معدى له عن إقرار ما حدث ولو روعه . إنك تفكر ؟ فهلا فكرت لى فى سبيل الحرية ؟ تكلم وأخى أمل الروح الحية .

فردينان : صه ! صه ! إنك تزيد في يأسى بكل كلمة من كلماتك . لا مخرج من هنا ولا رأى ولا مهرب . وهذا ما يعذبني ، ويقبض صدرى ، وينشب فيه مثل الأظفار . لقد حبكت أنا نفسى الشبكة بيدي ، وأعرف عقدها القاسية الوثيقة . إني أعرف أن كل طريق مسدود أمام المرأة وأمام الخديعة . وأشعر أنى مقيد بك وبالأخرين جميعا . أو أشكوا ؟ أو لم أحاول كل شيء ؟ ألم أرتم على قدميه ، وأتوسل إليه ؟ إنه أرسلنى إلى هنا ليقضى فى هذه اللحظة على كل شيء فى ينبض بالفرح وبهجة الحياة .

إجنت : فلا نجاة ؟

فردينان : لا .

إجنت : (يضرب الأرض بقدمه) . لا نجاة . — يا للحياة الحلوة ! يا لاعتياد الوجود والعمل ، ذلك الاعتياد الجميل المحبوب ! إياك يراد أن أفارق ، وأفارق هادنا وادعا ؟ فى حومة الوغى و بين قعقة السلاح وفى هزج المعركة ومزجها لم تودعيني وداعا خاطفا . لم تودعيني وداعا عاجلا . ولم توجزى لحظة الفراق . لأنه قدر لى أن أشد على يدك ؛ وأن أهدق كرة أخرى فى عينيك ؛ وأن أشعر بجمالك وقيمتك شعورا شديدا ؛ ثم أن أتزع نفسى منك مصما ، وأن أقول : اذهبي !

فردينان : وقدر لى أن أقف بذلك وأن أشهده . وأن لا أستطيع استبقاءك ومنعك . أتكنفى الكلم للشكوى ؟ أى قلب لا يتمزق لهذه الفجعة ؟

إجنت : تمالك نفسك !

فردينان : أنك تستطيع أن تتمالك نفسك وأن تسير فى خطو وثيد شأن الأبطال ، نزولا على حكم الضرورة . أما أنا فماذا أستطيع ؟ وماذا ينبغى لى ؟ إنك تخضع نفسك وتخضعنا وتعالو علينا . سأعيش بعدك وأقعد نفسى وأنا على قيد الحياة . وقد فقدت نورى فى غبطة المجتمع ولوائى فى حومة الوغى . فالمستقبل لعينى تافه مشوش كدر .

إجنت : أيها الصديق الشاب يا من يكسبنى إياه مصير غريب ، ويفجئنى مع ذلك فيه ؛ يا من يشعر بالألم من موتى ويألم لى ، انظر إلى فى هذه اللحظات . إنك لا تفقدنى . فإن كانت حياتى مرآة طاب لك أن ترى نفسك فيها ، فكذلك موتى سوف يكون هذه المرأة . ولا يكون الناس معاً ، حيث يكونون مجتمعين فحسب ، فإن البعيد والراحل أيضاً

يعيشان معنا . إني أعيش معك وقد انتهى عيشي مع نفسي . لقد طابت نفسي بكل يوم من أيامي الماضية . وقد قت كل يوم بواجبي ، كما عيّنت لي ضميري . وأمر قيامي بواجبي ثمراً عاجلاً . والآن تنتهي الحياة كما كان يمكن أن تنتهي من قبل ، ومن قديم فوق رمال جرافيلنجن . إني أكف الآن عن الحياة ، لكنني قد حييت . فأحي أنت أيضاً يا صديقي . ولتطب لك الحياة ولا تتهيب الموت .

فردينان : كان في وسعك أن تحتفظ بنفسك لنا ، وكان ينبغي أن تفعل ذلك . لكنك قتلت نفسك بيدك . كان العقلاء يتحدثون عنك ، خصوصاً كانوا أو مريدين . فكنت كثيراً ما أسمعهم يختلفون في قيمتك ، ويطول بهم الجدل . لكنهم كانوا في النهاية يتفقون . ما كان أحد ليجرؤ على إنكار قيمتك ، لكنهم جميعاً كانوا يرون أنك تسير في طريق خطرة . ولكم وددت أن أستطيع تحذيرك . أفما كان لك أصدقاء ؟
إجنت : لقد حُذرت .

فردينان : ولما وجدت كل هذه التهم في ورقة اتهامك نقطة نقطة ، ووجدت أجوبتك عليها ، كنت موقفاً في التماس العذر لنفسك ، لكنك لم توفق التوفيق الكافي لتبرئة نفسك من التهم .

إجنت : لندع هذا جانباً . فإن المرء منا يعتقد أنه يدير حياته بيده ، ويقود نفسه بنفسه ! وهو في هذا يتوجه إلى المصير الذي كتب له غير مصدود ولا مقاوم . فدعنا من التفكير في هذا ، فما أيسر ما أتخلص من هذه الأفكار . لكن شجننا من أجل البلاد أعظم . وإنه في هذه المحنة ليعني بها أيضاً . فإذا أمكن أن يجري دمي لخير الكثيرين ، وأن يجلب السلام لأمتي فليجر . لكن هذا لن يكون للأسف هكذا . وأليق بالمرء أن ينقطع عن التفكير فيما لم يعد يملك فيه التأثير . فإذا استطعت أن تقف سلطة أبيك الدمرة أو تحولها فافعل . فأما وأنت لا تستطيع ولا يستطيعه أحد ، فالوداع .

فردينان : لا أستطيع الذهاب .

إجنت : أوصيك برجالى خيراً . فمن أخيار الناس خدم لي . فلا يشتتوا . ولا يشقوا . وكيف حال كاتبى ريتشارد .

فردينان : لقد سبقك . لقد عدوه شريكاً في الخيانة العظمى . فقطعوا رأسه .

إجنت : يا للسكين ! — وشيء آخر ثم استودعك الله ، فلم أعد أستطيع شيئاً :
ومهما يكن الزمن مرهقاً مشغولاً فللطبيعة آخر حقوقها غير مدافعة . وكالطفل الذى ينم
بالنوم الهنىء والحية ملتفة حوله ، كذلك يستلقى المتعب مرة أخرى على عتبة الموت ليستريح ،
وكان أمامه طريقاً شاقاً سيقطعها — شيء آخر . إني أعرف فتاة ؛ إنك لن تزدرىها لأنها
كانت لى . فالآن إذ أوصيك بها أموت مستريحاً . إنك رجل كريم ، والمرأة فى يدك آمنة
مصون . أيعيش أدولف الشيخ ؟ أطلق هو ؟

فردينان : الشيخ الطروب الذى كان دائماً فى ركابك ؟

إجنت : هو .

فردينان : إنه يعيش . إنه طليق .

إجنت : إنه يعرف منزلها ، فدعه يقتادك ، وكافته حتى يماته أن أراك الطريق إلى هذه

الدرة — وداعا !

فردينان : لست ذاهباً .

إجنت : (يدفعه نحو الباب) . وداعا !

فردينان : لو تركتني قليلاً !

إجنت : صديقي . إذن لا وداع !

(يرافق فرديناند حتى الباب ويتخلص منه هناك . ويتعد فرديناند مسرعاً وقد أصابه ذهول) .

إجنت : (وحده) . أيها الرجل العدو . ما كنت تظن أنك توليني هذا الإحسان

على يد ابنك . فعلى يده تخلصت من هموى وآلامى ، ومن الخوف وكل شعور به . والآن

تطلب الطبيعة حقها الأخير فى رقة وإلحاح . لقد انتهت كل شيء . لقد تقرر . وإن الأمر

الذى استبقانى الليلة الفاتئة على فراشى ساهراً لا أعلم منه شيئاً علم اليقين يخدر حواسى الآن

باليقين القاطع .

(يجلس على سريريه . موسيقى)

أيها النوم اللذيذ . إنك تأتى أطوع ما تأتى كالهناء الصافى لم تُرَج ولم يتوسل إليك .

إنك تحل عقد الأفكار القاسية ، وتمزج الصور جميعاً ، صور الفرح والألم ، وتجرى بك حلقة

الانسجيمات فى أنفسنا على هواها . وفى غلالة من الهذيان الرفيق نهبط وتنقطع علاقتنا بالوجود .

(يفلبه النعاس ، وترافق الموسيقى نعاسه . ويلوح فيها وراء سريره كأن الجدار ينشق فتبدو ظاهرة باهرة : الحرية في لباس سماوى يفيض من حولها النور ، وتستقر فوق سحابة . والحرية ملامح كلارا فتميل نحو البطل النائم وتعرب عن إحساس الأسف ، وتلوح كأنها تندبه . ثم سرعان ما تتألك نفسها ، وترى حزمة الأسهم مشجعة ، ثم العصا والقبة ، وتطلب إليه أن يروح عن نفسه . وإذا تلمح له أن موته سيجلب للأقاليم الحرية ، ترى فيه الظافر ، وتناوله إكليلا من الغار . وفيما هي تقترب بالإكليل من رأسه إذا بحركة تصدر عن إجنث كمن يتحرك في نومه ، فيكون في حركته كمن يرقد ووجهه مرفوع صوب الحرية . فتمسك بالإكليل وتحوم به فوق رأسه . عندئذ تسمع من بعيد موسيقى حرية قوامها الطبول والقرب . فما أن يسمع الطيف أخفت وقع لهذه الموسيقى حتى يختفى . ويزداد صوت الموسيقى قوة ووضوحا فيستيقظ إجنث وينفذ ضوء النهار خفيفاً إلى السجن . وتكون أول حركة لإجنث أن يتحسس رأسه ، ثم ينهض ويلتفت حوله بحيث يبقى يده فوق رأسه) .

لقد اختفى الإكليل . أيتها الصورة الجميلة . لقد أقصاك ضوء النهار . لقد كانتا هما . كانتا متحدتين أحلى مسرتين على قلبي : الحرية السماوية وقد استعارت قامتها من حبيبتى ، والفتاة الفاتنة ترتدى ثوب الصديقة السماوى . ظهرتا متحدتين في لحظة خطيرة تبدو عليهما سياء الجد أكثر مما تظهر أمارات العطف . لقد تقدمت منى الحرية بقدمين ملطختين بالدم . كذلك ثوبها كانت ثنياه الهفافة ملطخة بالدم . دى أنا ودم الكثيرين من النبلاء . كلا . إنه لم يرق هدراً . تقدموا أيها الرجال البواسل . فالهة النصر تقودكم . وكما يرتد البحر ويتكسر على سدكم ، كذلك فأهدموا جدار الظلم ودكوه دكا ، وردوه مغرقاً عن أرضكم التى يستبيح ، رداً .

(يقترب قرع الطبول)

أنصت ! أنصت ! ما أ أكثر ما نادانى هذا الصوت وما أهاب بي إلى ميدان القتال والنصر . وما أشد ما طربت قلوب الرفاق فى السير فوق هذه الطريق الخطرة المحفوفة بالفخار . كذلك اليوم أخطو إلى موت كريم من هذا السجن . إنى أموت فى سبيل الحرية التى عشت وجاهدت من أجلها ، والتى أضخى بنفسى الآن معانياً فى سبيلها .

(يحتل مؤخرة المسرح شردمة من جند الأسبان يحملون الحراب) أجل . ضموا حرايكم واحكموا صفوفكم فلن تخيفونى . لقد اعتدت أن أقف أمام الحراب أواجه الحراب ، وأن أحس الحياة الباسلة تحيى مضاعفة فى صدرى بين مخالب الموت الداهم .

(تقرع الطبول)

العدو مطبق عليك من كل صوب ، والسيوف تلتمع ، فاستبسوا أيها الصحاب ! إن
من ورائكم آباء وأمهات وونساء وأطفالا .

(يشير إلى الحراس)

وهولاء تدفعهم كلمة من الحاكم جوفاء ، لا من وحى قلوبهم . فاحموا أموالكم ! ولكي
تنقذوا أعز ما لديكم طيبوا بالموت نفساً ، كما به اليوم أطيب .

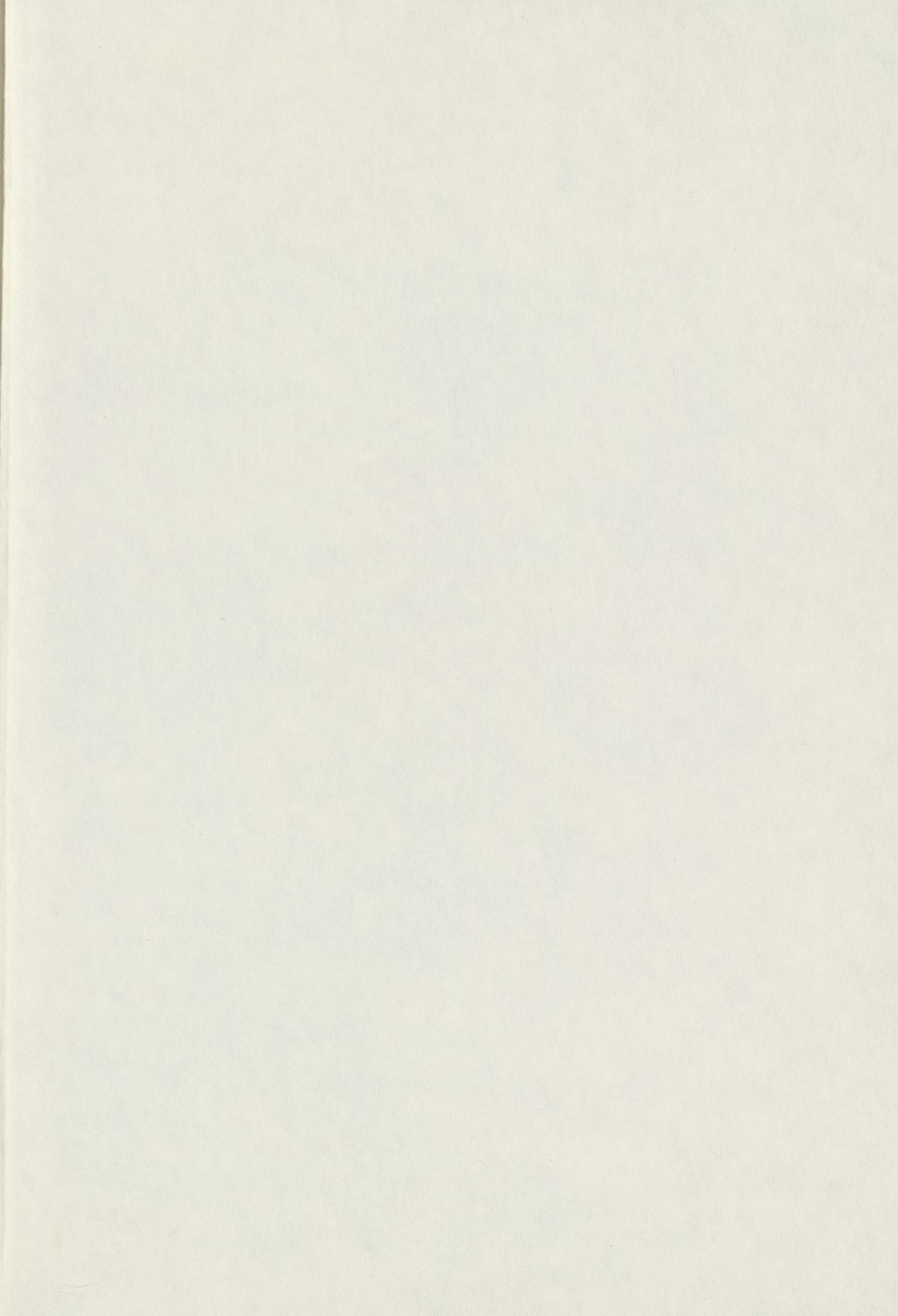
(تقرع الطبول . وإذا يسرع نحو الحراس صوب الباب الخلفي تنزل الستار ، وتعزف الموسيقى ، وتحتم
الرواية بسيمفوني النصر) .

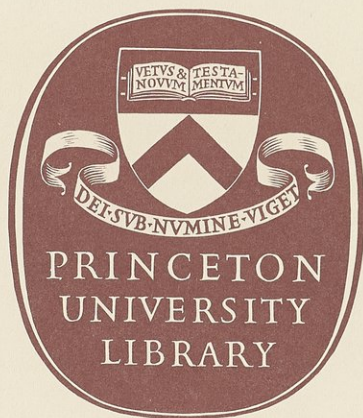
« انتهت »

6. *Chrysomela*



5673





(Arab)

PT2034

.A71412

Princeton University Library



32101 054330814